شعراء الوطنية في مصر

تراجمهم ، وشعرهم الوطنى ،
والمناسبات التى نظموا فيها قصائدهم

تأليف
عبد الرحمن الرافعي

« ان فى قيثارة الشعر سلوى للقلب ، »
« وغذاء للروح ، وانها لتوحى الى النفوس »
« أسمى معانى الانسانية ، وما أجمل هذه »
« القيثارة حينما تغرد للناس ألحان الوطنية »

الطبعة الثانية
١٣٨٦ هـ - ١٩٦٦ م



الدار القومية للطباعة والنشر

شعراء الوطنية

في مصر

تراجمهم ، وشعرهم الوطني ،
والمناسبات التي نظموا فيها قصائدهم

تأليف

عبد الرحمن الرافعي

« ان في قيثارة الشعر سلوى للقلب ، »
« وغذاء للروح ، وانها لتوحي الى النفوس »
« اسمى معاني الانسانية ، وما اجمل هذه »
« القيثارة حينما تغرد للناس ألحان الوطنية »

الطبعة الثانية

١٣٨٦ هـ ـ ١٩٦٦ م



الدار القومية للطباعة والنشر

القاهرة

مقدمة الطبعة الثانية

أقدم الطبعة الثانية لهذا الكتاب طبق الأصل للطبعة الأولى التى أخرجتها سنة ١٩٥٤ وهى ضمن ما أخرجته من سلسلة تاريخ حركتنا الوطنية ـ أحمد الله وأشكره على نعمائه ،وكم كنت أتمنى أن أضيف إلى تراثنا الشعرى الوطنى ما جادت به قرائح شعرائنا الجدد فى المناسبات الوطنية تمشياً مع روح الاشتراكية والتطور فى عهدنا الحديث خاصة وقد لابست الأمة المصرية ظروف وضحت فيها معالم القومية والوطنية والكفاح والجهاد ، وليس أدل على ذلك مما ظهر عقب الاعتداء الثلاثى من قصائد لشعراء وطنيين وغير ذلك من المناسبات الوطنية المعروفة لولا ـ مرضى الذى منعنى عن جمع وتسجيل قصائد هؤلاء الشعراء فلهم منى صادق اعتذارى .

والله ولى التوفيق .

يوليه سنة ١٩٦٦

عبد الرحمن الرافعى

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

عند ما أرخت الحركة القومية فى أدوارها المتعاقبة ، تبينت مبلغ ما للشعر الوطنى من أثر عميق فى التمهيد لها وبعثها ، وإذكاء الروح الوطنية فى نفوس المواطنين ، وتسجيل الحوادث الهامة فى تاريخ مصر القومى ، ومن يومئذ وأنا توّاق إلى أن أخصص لشعراء الوطنية سفراً منفرداً ، يجمع معظم ما جادت به قرائحهم من الشعر الوطنى ، مع التعريف بشخصياتهم ، وذكر المناسبات التى أنشأوا فيها قصائدهم الوطنية .

ولقد كنت أرجو أن أُضَمِّن ما أخرجته من سلسلة تاريخ الحركة الوطنية قصائد أولئك الشعراء ، وعنيت فعلا بأن أقتبس بعضها فى شتى المناسبات ، ولكننى وجدت أن هذا الاقتباس لا يكفى للتنوية بفضلهم ، وإبراز مبلغ مساهمتهم فى غرس الشعور الوطنى فى نفوس الأجيال المتعاقبة ، فواعدت نفسى أن أتفرغ يوما لإخراج كتاب خاص بهم وبأشعارهم الوطنية ، وها أنذا أوفى بوعدى .

وإنى لأشعر أنى باخراج هذا الكتاب ، أؤدى واجبا نحو أولئك الشعراء ، ونحو الحركة الوطنية ذاتها ، فالشعراء الذين استلهموا وحى الوطنية فى قصائدهم ، واهتزت لها مشاعرهم ، واستجابوا إلى نداء الوطن فى عالم الشعر والفن والخيال ، وتجاوبوا مع الحركة الوطنية ، وكانوا مرآة صادقة لعصرهم ، ومصدر إلهام وتوجيه لمواطنيهم ، وترجمانا لهم فى آمالهم وآلامهم ، وأحاسيسهم

وأهدافهم ، هؤلاء خليقون جميعاً بتقدير الوطن وثنائه ، وإن من أبسط علامات التقدير لهم أن تجمع قصائدهم فى سجل واحد .

على أنى لا أقصد تقديراً لهم فحسب ، بل أقصد إلى تغذية الروح الوطنية بمدد من شعرهم وإلهامهم ، وإذا كان مما تعمد إليه الأمم أن تغذى نفوس أبنائها بالأناشيد الوطنية ، فأجدر بنا أن نشيع الشعر الوطنى ونجعله فى متناول المواطنين جميعاً ، رجالا ونساء ، شيبا وشبانا ، فكلنا فى حاجة إلى أن نستذكر تلك القصائد الغر التى تملأ النفوس وطنية وإيمانا ، وتغرس فيها فضائل الصدق والإخلاص والشجاعة ، والتفانى فى أداء الواجب الوطنى ، فلعلها تدفعنا إلى السير دائما إلى الأمام ، غير متوانين ولا متنابذين، مستمسكين بالمثل العليا فى حياتنا القومية .

إن حياة هؤلاء الشعراء وقصائدهم الوطنية — إلى جانب أنها عماد للأدب وتاريخه — هى قطعة من تاريخ الحركة الوطنية ، وعنصر من عناصر بعثها وتطورها ، ولا غرو فالشعر فرع من دوحة الأدب ، والأدب الوطنى له الأثر الذى لا ينكر فى تكوين المواطن الصالح ، والشعر بما يطبع فى نفس الشاعر من التحليق فى سماء الخيال ، والتطلع إلى المثل العليا ، يمهد للنهضات الوطنية ويبعثها ويغذيها ، إذ يهيب بالأمة أن تتمسك بالحرية والكرامة ، ويستحثها على النفور من الذل ، وإباء الضيم ، ويحبب إليها الثورة على الاستعمار والاستبداد ، وشعراء الوطنية فى مصر لهم فى هذه الناحية فضل عميم ، فكم ناصروا الحركة الوطنية فى مختلف عهودها ، وغذوها بقصائدهم وروائع شعرهم ، وسجلوا حوادثها الهامة ، وأشادوا بمفاخر الشعب، وأهابوا به أن ينهض ويستعيد مجده القديم ، وكم استصرخوا الإنسانية أن تهب لنصرته ، وتنتصف له من المظالم التى حاقت به ، وإن كثيراً من روائع الأدب التى جادت بها قرائح أولئك

الشعراء كانت معالم للحركة الوطنية ، وكان الشباب يحفظها عن ظهر قلب ، فتذكى فى نفوسه روح الوطنية والإخلاص والإقدام والتضحية .

وكم من قصيدة أو بيت من الشعر قد حركت المشاعر فى نفوس المواطنين وستحركها على الدوام ، مهما تقادمت عليها الأعوام ، ألست ترى إلى نشيد المارسلييز ؟ كيف أنه رغم تقادم العهد على وضعه لا يزال يلهب شعور الفرنسيين ويثير فى نفوسهم روح الجهاد والفداء ، ويقدرون له قدسيته الفنية والوطنية .

ولعل فى جمع عيون الشعر الوطنى فى كتاب واحد ما يبرز لنا فضل أولئك الشعراء فى إمدادهم الروح الوطنية بغذاء معنوى يتجدد على تعاقب العهود والعصور ، ولعلنا بذلك نكون أكثر عرفاناً لفضلهم ، وتقديراً لذكرياتهم ، وما أجمل وفاء الأمم للمجاهدين السابقين من بنيها ، فى مختلف الميادين ، ولا غرو فالحركة الوطنية ليست وليدة الجيل الحاضر ، ولا هى وقف عليه ، بل هى ثمرة الجهود المتواصلة التى يتوارثها المواطنون جيلا بعد جيل ، وما أضعف الروح الوطنية إذا حدد مولدها بجيل واحد ، لأنها بذلك تكون رخوة البناء ، مقفرة المعالم ، أما الوطنية الوطيدة الأساس ، العالية الذرى ، فهى التى تجمع بين مجد الماضى ، وجهاد الحاضر ، وأمل المستقبل .

إن فى قيثارة الشعر سلوى للقلب ، وغذاء للروح ، وإنها لتوحى إلى النفوس أسمى معانى الإنسانية ، وما أجمل هذه القيثارة حينما تغرد للناس ألحان الوطنية .

هذه المعانى والخواطر هى التى ألهمتنى إخراج هذا الكتاب ، وكم يطيب لى أن أنشر فيه صفحات لشعراء تكاد أحداث الزمان تنسينا شعرهم ، بل تنسينا أسماء بعضهم ، فى حين أن فضلهم لا يصح أن ينسى وآثارهم فى بعث الوطنية لا تمحى ، والأدب فى حاجة إلى استذكار أشعارهم ، فانها حقاً عماد

الأدب الرفيع وكيانه ، وهذه الأشعار هى فى ذاتها سبيل لنشر الثقافة الوطنية بين أفراد الشعب فى مختلف طبقاته .

من أين نبدأ

لقد ساءلت نفسى قبل أن أرسم . خطوط الكتاب : من أين نبدأ تاريخ الشعر الوطنى ؟ أنبدأه من يوم أن قرأنا قصائد شوقى وحافظ وسمعناها ووعيناها وكان لها صداها فى أحياء مشاعرنا الوطنية ؟ إننا إذ نحدد هذه البداية نكون قد اجتزأنا تاريخ الشعر الوطنى ، وأغفلنا مرحلة سبقت شوقى وحافظ ، وهذا مالا يقره الحق والإنصاف ، ولا يرضاه شوقى وحافظ ، على علو كعبهما وبلوغهما الذروة بين شعراء الوطنية .

فلنبحث إذن عن بداية سابقة على شوقى وحافظ .

إننى عندما أرخت مصطفى كامل بحثت فى بداية الحركة الوطنية الحديثة ، وتساءلت هل تبدأ الحركة بظهور مصطفى كامل فيكون تأريخه تاريخاً لها ، أم أن لها بداية سبقت ظهوره ؟ وعلى أننى تلميذ لمصطفى كامل وكان تتلمذى له هو من البواعث على إخراجى لتاريخه ، كما نوهت إلى ذلك فى مقدمة كتابى عنه ، فانى قد وجدت من الإنصاف أن أبحث عن الأدوار التى تقدمت عصر مصطفى كامل ، لأقف عند حدّ يصح اعتباره مبدأ الحركة القومية الحديثة ، وانتهى بى البحث إلى أن بدايتها — فى تاريخ مصر الحديث — ترجع إلى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر ، وأن أول دور من أدوارها هو عصر المقاومة الأهلية التى اعترضت الحملة الفرنسية فى مصر ، ومن ثم تطورت الفكرة عندى من تأريخ لمصطفى كامل إلى تأريخ للحركة القومية ، وعلى هذا الأساس أخرجت سلسلة هذا التاريخ .

وأرانى فى تأريخ الشعر الوطنى أميل إلى سلوك مثل هذا المنهج ، فرجعت فى بدايته إلى الماضى ، ووجدت أن روح الوطنية — بمعناها الحديث — قد بدأت تدخل الشعر المصرى ، وتبعث فيه من حياتها وبهائها ، وتضفى عليه من جمالها ، وجلالها منذ أوائل القرن التاسع عشر ، وأول رائد لهذه النهضة هو رفاعة رافع الطهطاوى ، فالى هذا العهد يجب أن نرجع ظهور الشعر الوطنى فى مصر ، وهكذا يبدو التقارب بين ظهور الحركة الوطنيه وظهور الشعر الوطنى فى تاريخنا الحديث .

فلنبدأ إذن برفاعة رافع الطهطاوى ولندرس تطور الشعر الوطنى من بعده إلى وقتنا الحاضر .

ويطيب لى فى صدد التنويه بشعراء الوطنية ، أن أعتذر عما فاتنى من تأريخهم ، وأعوزنى الحديث عنهم ، فانى أقصد من شاعر الوطنية من تغلب عليه النزعة الوطنية فى شعره،فاذا كان قد فاتنى أن أتحدث عن بعض الشعراء الممتازين ، فالأمر لا يعدو أن يكون رأياً تقديرياً ، وأن يكون شعرهم الوطنى قد بدا لى مغموراً فى بحر شعرهم الفياض ، وهذا لا يغض بداهة من منزلتهم فى عالم الشعر والأدب ، وحسبي عذرالى أن رأيى التقديرى فى تخيّر شعراء الوطنية كان نتيجة دراسات مستفضية ، عكفت عليها سنين عديدة ، ولم أقتصر على ما وعته ذاكرتى من الشعر الوطنى فى مختلف المناسبات ، ولا على دواوين الشعراء ، بل ذهبت أستقصى الشعر الوطنى فى مجاميع الصحف والمجلات ، عاما بعد عام ، قرابة نصف قرن من الزمان ، بحيث اكتملت لدى مجموعة من أشعار الوطنية ، بعضها لم ينشر من قبل فى كتاب أوديوان ، ومع ذلك فاذا نبهنى القارئ الكريم إلى شاعر فاتنى الحديث عنه ، ضمن شعراء الوطنية ، فانى على أتم الاستعداد لتدراك هذا النقص فى الطبعة التالية من الكتاب ،

لأنى أود حقًّا أن أستكمل أى نقص بدا منى فى هذه الناحية ، وليس أحب إلى نفسى من أن أسجل فى كتابى كل قصيدة بل كل بيت من الشعر الوطنى .

والله أسأل أن يكون فى هذه الدراسة مايعين على نشر الأدب الوطنى وإذاعته ، وتعميمه بين المواطنين ، والحمد لله أولا وأخيراً ؟

يونيه سنة ١٩٥٤ — عبد الرحمن الرافعى

رفاعة رافع الطهطاوى

١٨٠١ - ١٨٧٣



مصرىٌ صميم ، من أقصى الصعيد ، نشأ نشأة عادية ، من أبوين فقيرين ، قرأ القرآن ، وتلقى العلوم الدينية كما يتلقاها عامة طلبة العلم فى عصره ، ودخل الأزهر كما دخله غيره ، وصار من علمائه كما صار الكثيرون ، ولكنه بذَّ الأقران ، وتفرد بالسبق عليهم ، وتسامت شخصيته إلى عليا المراتب ، ذلك أنه كان يحمل بين جنبيه نفساً عالية ، وروحاً متوثبة ، وعزيمة ماضية ، وذكاء حادا ، وشغفاً بالعلم ، وإخلاصاً للوطن وبنيه ، تهيأت له أسباب الجدِّ والنبوغ ، فاستوفى علوم الأزهر فى ذلك العصر ، ثم صحب البعثة العلمية الأولى من بعثات محمد على ، وارتحل إلى معاهد العلم فى باريس ، واستروح نسيم الثقافة الأوربية ، فزادت معارفه ، واتسعت مداركه ، ونفذت بصيرته ، لكنه احتفظ بشخصيته ، واستمسك بدينه وقوميته ، فأخذ من المدنية الغربية أحسنها ، ورجع إلى وطنه كامل الثقافة ، مهذب الفؤاد ، ماضى العزيمة ، صحيح العقيدة ، سليم الوجدان ، عاد وقد اعتزم خدمة مصر من طريق العلم والتعليم ، فبرّ بوعده ، ووفَّى بعهده ، واضطلع بالنهضة العلمية تأليفاً وترجمة ، وتعليما وتربية ، فملأ البلاد بمؤلفاته ومعرباته ، وتخرج على يديه جيل من خيرة علماء مصر ، وحمل مصباح العلم والعرفان يضىء به أرجاء البلاد ، وينير به البصائر والأذهان ، وظل يحمله نيفاً

وأربعين سنة، وانتهت إليه الزعامة العلمية والأدبية فى عصر محمد على، وامتدت زعامته إلى عهد إسماعيل، ذلك هو رفاعة رافع الطهطاوى(١) .

ولد فى طهطا بمديرية جرجا سنة ١٨٠١ (١٢١٦ هـ)، وبدت عليه مخايل الذكاء والنباهة منذ صباه، ودخل الأزهر سنة ١٨١٧، ولم يمض عليه به بضع سنوات حتى صار من طبقة العلماء، وتولى التدريس فيه سنتين، وصنف وألف ودرس وهو فى الحادية والعشرين من سنه، ثم عين واعظاً وإماما فى أحد ألايات الجيش المصرى، ولما جاء عهد البعثات العلمية كان من حسن التوفيق أن اختاره محمد على ضمن أعضاء البعثة الأولى التى سافرت إلى فرنسا سنة ١٨٢٦، فجمع إلى ثقافته الأزهرية ثقافة أوروبا وعلومها وآدابها، فاقتبس منها الشيء الكثير، وازدهرت روحه الأدبية على ضوء الحضارة الغربية، ولما عاد إلى مصر سنة ١٨٣١ تولى عدة مناصب فى التعليم، وأنشأ مدرسة الألسن سنة ١٨٣٦، وكانت أشبه ما تكون بكلية الآداب والحقوق فى مصر، وكان رفاعة يتولى نظارتها ويلقى فيها دروسه على الطلبة، فكانت أكبر معهد لنشر الثقافة فى مصر، وتنقل فى المناصب العلمية، وكان لا يفتأ يؤلف ويخرج من حين لآخر مصنفاته ومعرباته فى العلوم والآداب إلى أن أدركته الوفاة سنة ١٨٧٣(٢) .

وهو أول رائد لنهضة العلم والأدب فى النصف الأول من القرن التاسع عشر، كان شاعراً رقيقاً بالقياس إلى عصره، أشربت نفسه الوطنية منذ نعومة أظفاره، تلقاها من إيمانه الصادق (وحب الوطن من الإيمان)، ومن فطرته السليمة، وخلوص نيته، وقد استثار رحيله عن مصر إلى فرنسا عاطفته

---

(١) عن ترجمته فى كتابنا تاريخ الحركة القومية الجزء الثالث – عصر محمد على .

(٢) راجع ترجمته تفصيلا فى كتابنا الحركة القومية الجزء الثالث – عصر محمد علي .

الوطنية العميقة المتأصلة فى نفسه الحساسة ، فجادت قريحته وهو فى باريس بقصيدة عبَّر فيها عن الحنين إلى الوطن وأهله ، والإشادة بمفاخره ، قال فى مطلعها :

ناح الحمامُ على غصون البانِ فأباح شيمةَ مغرمٍ وَلْهَانِ

وانتقل إلى التغنى بمصر وذكر محاسنها وقال :

هـذا لعمرى إن فيها سادةً قد زُيِّنوا بالحسن والإحسان
يا أيها الخافى عليكَ فخارها فإليك أن الشاهد الحسنان
ولئن حلفتُ بأنَّ مصرَ لَجَنَّةٌ وقطوفها للفائزين دوان
والنيل كوثرها الشهىّ شرابه لأبرُّ كلّ البرِّ فى أيمانى

وله قصائد ومنظومات وطنية قالها فى مناسبات مختلفة .

فانظر إلى القصيدة الآتية تجدها تعبِّر عما يجيش فى نفسه من أكرم العواطف وأنبلها ، وقد قدمها هو بقوله « وقلت أيضاً وطنية » ، فالروح الوطنية تتمشى حتى فى تقديمه لقصائده ، قال :

ياصاحِ حُبُّ الوطنِ حِلْيَةُ كل فَطِنِ

***

مَحَبَّـةُ الأوطان من شُعَب الإيمان
فى أفخر الأديان آية كل مؤمن

***

مساقط الرؤوس تلذ للنفوس
تذهب كل بوس عنا وكلَّ حزن

***

ومصر أبهى مولدٍ لنا وأزهى محتد
ومربعٍ ومعهـدٍ للروح أو للبدن

***

شُدَّت بها العزائم نيطت بهـا التمـائمُ
لطبعنـا تلائم في السرّ أو في العلن

***

مصرُ لَهـا أياد عُليـا على البلاد
وفخـرها ينـادى ما المجد إلاَّ ديدنى

***

الكونُ من مصر اقتبسْ نوراً وما عنـه احتبس
فخرٌ قـديمٌ يؤثرُ عن سـادة ويُنشرُ
زهور مجـد تُنثر منها العقول تجتنى

***

دارُ نعيم زاهيـهْ ومعدن الرفاهيـهْ
آمرةٌ وناهيـهْ قِدْماً لكل المدن
قوة مصر القاهرهْ على سواها ظاهرَهْ
وبالعمار زاهـره خُصَّت بذكرٍ حسن

***

أبنـاؤها رجال لم يثنهم محـال

وَجُنْدُهم صِنْديدُ وقلبه حديدُ
وخصمه طريد بل مُدْرَجٌ فى كفن

وقال من قصيدة أخرى يدعو إلى افتداء الوطن بالنفس والمال :

وعزيز الموطن نخدمه برضا فى النفس نحكمه
مالُ المصرى كذا دمُهُ مبذولٌ فى شرف الوطن
تفديه العين بناظرها والنفس بخير ذخائرها
تهدى فى نيل نظائرها بشرا العليا أعلى ثمن

وقال يصف الجيش المصرى ويشيد بمفاخره :

نُنَظِّمُ جُندَنا نَظْما عجيبا يُعجز الفهما
بِأُسْدٍ تُرْعب الخصما فمن يقوى يناضلنا ؟

***

رجالٌ مالها عددُ كمال نظامها العُددُ
حُلاها الدرع والزردُ سنان الرمح عاملنا

***

وهل لخيولنا شَبَهٌ كرائم ما بها شُبَهٌ
إليها الكل منتبهٌ وهل تخفى أصائلنا ؟

***

لنا فى الجيش فرسان لهم عند اللقا شان
وفى الهيجاء عنوان تهيم به صواهلنا

فيها الميدان (والشقرا) سَقَتْ أُذن العـدا وَقْرا
كأنَّا نرســل الصقرا فمن يبغى يراســلنا

***

مَدَافِعُنا القضــا فيها وحُكْمُ الحتف فى فيهـا
وأهوانُهـا وجافيهـا تجـودُ به معاملُنـا

***

لنا فى المدن تحصين وتنظيمٌ وتحســين
وتأييــدٌ وتمــكين منيعاتٌ معاقلُنــا

وهذه الأبيات لمن خير ماقيل فى وصف الجيش المصرى ، ولاشك أن رفاعة قد استلهم شعره من مفاخر الجيش فى عهده ، فهو يصور العصر الذى عاش فيه تصويراً صحيحاً ، لا مبالغة فيه ولا إغراق ، وإن قصيدته لتشبه أن تكون لوحة فنية يخيل لمن ينظر إليها أنه يلمح فيها كتائب الجيش المصرى تسير إلى ميادين الحرب ، تحف بها أعلام النصر والظفر ، تخوض غمار القتال ، بقلوب ملؤها الشجاعة والإقدام ، وتجابه الأخطار قوية الإيمان ، ثابتة الجنان ، مجهزة بالسلاح والمدافع « تجود به معاملنا » ، ولو لم يشهد رفاعة مفاخر الجيش المصرى فى ذلك العصر ، لما جادت قريحته بهذا الشعر ، وهكذا يتأثر الشاعر والأديب بالعصر الذى يعيش فيه ، والبيئة التى تحيط به ، ويصور الحياة على عهده ، فكأنما هو قطعة من عصره ، أو مرآة تنطبع فيها مشاهد الحياة السياسية والاجتماعية ، ومظاهر الحالة الفكرية والأخلاقية .

وإنك لتلمح أيضاً عظمة الجيش المصرى من قول رفاعة فى قصيدة أخرى يخاطب فيها الجنود :

يا أيها الجنـــودُ والقادة الأســـود
إنْ أمَّـكم حســـودُ يعـــودُ هَامِى المدْمَعِ
فـكم لـكُم حروبُ بنصركم تؤوبُ
لم تَثْنِـكُم خُطوبُ ولا اقتحـــامُ مَعْمَع

***

وكم شهدتم منْ وغى وكم هزمتم مَنْ بغى
فمن تعـــدَّى وطغى على حِمَـاكم يُصرَعُ

وتتجلى روحه الوطنية المتطلعة إلى الحرية فى تعريبه نشيد الحرية (المارسليز) ، فإن النفس لا تميل إلا إلى ماهو محبب إليها ، فهذا النشيد قد استثار ولاشك إعجاب رفاعة رافع ، حتى مالت نفسه إلى تعريبه ، وإظهار مااحتواه من العواطف الوطنية الفدائية فى حلة عربية قشيبة .

وإذا تأملت فى شعر رفاعة رافع الذى نقلنا طرفا منه وجدت فيه تقدماً نسبياً إذا قارنته بأسلوب شعراء المدرسة القديمة التى سبقته ، كالشبراوى والعطار والخشاب وغيرهم ، ويعد شعره دور الانتقال إلى دولة الشعر الحديثة التى حمل لواءها البارودى ، وإسماعيل صبرى ، وشوقى ، وحافظ .

حقاً إننا إذا وضعناه إلى جانب شعر شوقى مثلا ، لجاء فى المرتبة الثالثة ، أو الرابعة ، ولـكن يجب ألا ننسى أن رفاعة رافع نشأ فى عصر كانت اللغة العربية وآدابها فى دور تأخرها واضمحلالها ، فله على نهضة الشعر والأدب فضل لا ينـكر .

***

عبد الله نديم

١٨٤٥ – ١٨٩٦



ظل الشعر فى مصر بعد وفاة رفاعة رافع الطهطاوى خلو من المعانى الوطنية ، إلى أن تجددت فى شعر عبد الله نديم .

هو خطيب الثورة العرابية ، وهو أيضاً شاعرها ، انطبعت فى خطبه وقصائده روح الوطنية المتدفقة ، وروح الثورة .

ولد سنة ١٨٤٥ بالإسكندرية ، وبدت عليه منذ صباه مخايل الذكاء اللامع ، وظهرت مواهبه فى الترسل فى الكتابة والشعر والزجل ، والقدرة الخطابية ، مع خفة فى الروح ، وميل إلى الفكاهة ، وجرأة وإقدام ، واستخفاف بأحداث الزمان .

ولما ظهرت الثورة العرابية أوائل ١٨٨١ ، انضم إليها بطبعه ، إذ كانت نفسه تتأجج وطنية ، وتتطلع إلى الحرية والمجد ، وتجلت مواهبه الخطابية ، فصار خطيب الثورة العرابية .

ومما يذكر عنه فى صدد الحديث عن شعره الوطنى أنه لما سافر الألاى السودانى الذى كان يقوده الأميرالاى عبد العال حلمى أحد زعماء الثورة من القاهرة إلى دمياط ، فى أوائل أكتوبر سنة ١٨٨١ . كان سفره يوماً مشهوداً ، فاحتشدت الجموع فى محطة العاصمة لتحية الألاى حين سفره . وكان من بين

الموِدعين عرابى والبارودى وعبد الله نديم ، فوقف النديم وسط هذا الجمع الحاشد وألقى خطبة حماسية فياضة ، بدأها بقوله مخاطباً رجال الجيش :

« حماة البلاد وفرسانها !

« من قرأ التواريخ وعلم ما توالى على مصر من الحوادث والنوازل عرف مقدار ما وصلتم إليه من الشرف وما كتب لكم فى صفحات التاريخ من الحسنات .

إلى أن قال : وهذا وطنكم العزيز أصبح يناديكم ويناجيكم ويقول :

إليكم يُرَدُّ الأمر وهو عظيم ... فإنى بكم طول الزمان رحيم
إذا لم تكونوا للخطوب وللردى ... فمن أين يأتى للديار نعيم ؟
وإن الفتى إن لم ينازل زمانه ... تأخر عنه صاحبٌ وحميم
فرُدُّوا عنان الخيل نحو مخيم ... تقلبه بين البيوت نسيم
وشدوا له الأطراف من كل وجهة ... فمشدود أطراف الجهات قويم
إذا لم تكن سيفاً فكن أرض وطأة ... فليس لمغلول اليدين حريم

وختم خطبته بقوله : وأحسن ما يؤرخ به اسم الجهادية عند النوازل أن يقال (مات شهيد الأوطان !) ، فنادى الجميع (رضينا بالموت فى حفظ الأوطان !) .

ولما شبت الحرب العرابية لازم النديم عرابى فى كفر الدوار ثم فى التل الكبير ، وكانت مجلته (الطائف) ، تصدر فى معسكر الجيش المصرى .

وبعد أن وقعت الهزيمة ، ظل مخلصاً للثورة فى محنتها ، فبرهن على وفاء نادر ووطنية أصيلة عميقة ، وكان ممن أمرت الحكومة باعتقالهم ، وعجزت عن التعرف إلى مقره والقبض عليه ، وظل مختفياً عن عيونها وجواسيسها نحو تسعة

أعوام ، وأعيا الحكومة أمره ، وجعلت ألف جنيه لمن يرشد عنه ، ولكنها لم تهتد إليه .

وقد وصف مالقيه من الشدائد أثناء اختفائه فى قصيدة تفيض وطنية وإيمانة وفخراً وشجاعة ، وهى من غرر قصائده . قال :

أتحسبنا إذا قلنا بلينا ... بلينا أو يروم القلب لينا
نعم للمجد نقتحم الدواهى ... فيحسب خاملٌ أنا دُهينا
تناوشنا فتقهرنا خطوب ... ترى ليث العرين لها قرينا
سواء حربها والسلم إنا ... أناس قبل هدنتها هدينا

إلى أن قال :

إذا ما الدهر صافانا مرضنا ... فإن عدنا إلى خطب شفينا
لنا جلد على جلد يقينا ... فإن زاد البلا زدنا يقيناً
ألفنا كل مكروه تفدى ... له فرسانه بالراجلينا
فأعيا الخطب ما يلقاه منا ... ولكنا صحاح ماعيينا

***

سلينا يا خطوب فقد عرفنا ... بأنا الصلب صلنا أو صلينا
وقرى فوق عاتقنا وقولى : ... نزلت اليوم أعلى طورسينا
علينا للعلا دين وضعنا ... عليه الروح لا الدنيا رهينا
فهل يمسى رهين فى سرور ... وهل تلقى بلا كدر مدينا ؟
إذا ما المجد نادانا أجبنا ... فيظهر حين ينظرنا حنينا
يغنينا فيلهينا التغنى ... عن الباكى وينسينا الحزينا

ولسنا الساخطين إذا رزئنا نعم يلقى القضا قلبا رزينا
فإنا في عداد الناس قوم بما يرضى الإله لنا رضينا
إذا طاش الزمان بنا حلمنا ولكنا نُهينا أن نهينا

إلى أن قال

سلوا عنا (منابرنا) فإنا تركنا فى منصتها فطينا
لحكمتنا تقول إذا هذرتم ألا هبي بصحيتك فاصبحينا
سَرَى فينا من الآباء سِرٌّ يسوق البر نحو المعوزينا
فإن عشنا منحنا سائلينا وإن متنا نفحنا الزائرينا

وقال يصف إحاطة الجند بالمنزل الذى كان فيه يريدون اعتقاله فنجاه الله من شرهم .

أأنسى يوم مصر والبلايا تطاردنى ولا ألقى معينا
فكنتَ(١) الغوثَ فى يوم كريه أخاف الشهم والحبر السمينا
مُدحنا فيه فى إشراق شمس فلما جاء مغربه هُجينا !
وهل أنسى هجوم الجند عمراً بلا علم وقد كنا لجينا
أحاطوا بى وسدوا كل باب وصرنا بين أيدى الباحثينا
وكان السطح مملوءاً بجند وخلف البيت كم وضعوا كمينا
فأدركت الوحيد وكان صيدا قريباً من فخاخ الطالبينا
وأرشدتَ النديم إلى مكان رآه بعد حيرته مكينا

(١) الخطاب هنا وفى الأبيات التالية موجهة إلى الرسول عليه السلام ، والنديم شريف النسب.

وأعمى الله عنا كل عين | وكنا للعساكر ناظرينا
وصرنا فوق سطح فيه علو | يحطم هاوياً منه متينا
فلم أرهب وثوبى من طمار | ولم أنظر شمالا أو يمينا
ويوم الغيظ كنتَ لنا مجيرا | بسطوته من البلوى حمينا
فقد كنا بلا ستر يرانا | أمام العين كل القاصدينا
وكم سرنا بلا خوف جهارا | ركبنا الخيل أو جئنا السفينا
وإنى الآن فى خطب عظيم | أرى فى طيّه داء دفينا
أتانا مخبرٌ عن قوم سوء | أرادوا وصفنا للحاكمينا
وخاف الضُّرَّ أحبابى جميعاً | وقالوا لى بالوشاية قد رمينا
فعجل بالرحيل بلا توان | ولا تخبر صديقا أو خدينا
فأدرك يا أبى نجلا دهاه | من الأهوال ما يوهى البدينا
فما خفت المنون ولا الأعادى | نعم خفت انشراح الشامتينا



فسرتُ الليل يصحبنى ثبات | لِخِلّ نحو منزله دُعينا
ورافقنى خليل كان قبلا | يوافى حين كنا ظاهرينا
وأدركنا القطار بغير خوف | وكنا بالثياب منكرينا
وألقى الله ستر الحفظ فضلا | فلم ترنا عيون المبلسينا
وكان الخل منتظراً قدومى | بخيل أوصلتنا سالمينا
ونجّى الله بعد اليأس عبدا | يرى الرحمنَ خير المنقذينا

وإنك لترى هذا الشعر أقوى فى الروح والأسلوب من شعره فى إبان الثورة ، وهكذا يبدو أن الهزيمة لم تنل منه ، بل زادته قوة وحيوية ، وصلابة وبلاغة ، وأن الشدائد صقلت مواهبه كما تصقل المعادن وتجلى جواهرها فى لهب النار ، فاحتفظ النديم فى سنى المحنة بما حباه الله من إيمان صادق ، وعزم ثابت ، وصمود على الأيام ، وكذلك الشدائد والمحن ، يختلف أثرها فى نفوس الناس ، فبينما تبعث اليأس والجزع فى النفوس الضعيفة ، نراها على العكس تزيد النفوس الكبيرة ثباتاً وصبراً ، وشجاعة وإيماناً ، ومن هنا جاء شعر النديم بعد هزيمة الثورة أقوى منه فى أوج انتصارها .

وفى الحق أن النديم هو الزعيم الوحيد بين الزعماء العربيين الذى استمر فى جهاده ضد الانجليز ونضاله عن مصر فى عهد الاحتلال ، وتلك لعمرى ميزة كبرى جديرة بأن تحيط اسمه بهالة من المجد والخلود ، وقد اهتدت الحكومة إلى مكانه سنة ١٨٩١ وقررت نفيه إلى خارج القطر ، وفى أوائل عهد الخديو عباس الثانى عفى عنه ورخص له بالعودة إلى مصر ، فعاد إليها ، وأنشأ مجلة (الأستاذ) سنة ١٨٩٢ فتجلت فيها روحه الوطنية التى لم تضعفها الهزيمة ولم تنل منها الشدائد ، مما أحفظ عليه الإنجليز وصنائعهم ، فتدخل اللورد كرومر ، وأمر بإبعاده عن مصر ثانية ، فاضطر إلى تعطيل صحيفته سنة ١٨٩٣ ، وودع قراءه وداعاً مؤثراً فى آخر عدد صدر منها (فى ١٣ يونيه سنة ١٨٩٣) قال :

« ما خلقت الرجال إلا لمصابرة الأهوال ومصادمة النوائب ، والعاقل يتلذذ بما يراه فى فصول تاريخه من العظمة والجلال ، وإن كان المبدأ صعوبة وكدرا فى أعين الواقفين عند الظواهر ، وعلى هذا فإنى أودع إخوانى قائلا :

أودعكم والله يعلم أنني أحب لقاكم والخلود إليكم
وما عَنْ قِلًى كان الرحيل وإنما دَواعٍ تبدَّت فالسلام عليكم !

وانتهى به المطاف في منفاه إلى الاستانة حيث توفى سنة ١٨٩٦ ، وشيعت جنازته فى احتفال مهيب مشى فيه كثير من العلماء والكبراء ، يتقدمهم السيد جمال الدين الأفغانى ، ودفن هناك .

بالأمس كان غريباً فى ديارهم واليوم صار غريب اللحد والكفن !

***

محمود سامي البارودي

١٨٤٠ – ١٩٠٤



محمود سامى البارودى هو إمام الشعراء المحدثين قاطبة ، وباكورة الأعلام فى دولة الشعر الحديث ، وأول من نهض به وجارى فى نظمه فحول الشعراء المتقدمين ، فبعث النهضة الشعرية من مرقدها بعد طول الخمود .

ولد سنة ١٨٤٠ ، وهو ابن حسن بك حسنى من ضباط المدفعية فى الجيش المصرى ، وحفيد عبد الله الجركسى أحد الكشاف فى عهد محمد على ، وسمى البارودى نسبة إلى إيتاى البارود التى كان أحد أجداده الأمير مراد البارودى ملتزماً لها فى عهد الالتزام .

وقد تلقى العلم أول ما تلقاه على أيدى أساتذة خصوصيين فى سراى والده بغيط العدة (القريبة من باب الخلق) والمعروفة بسراى البارودى ، ولما بلغ الثانية عشر من عمره إنتظم فى المدرسة الحربية ، وتخرج منها سنة ١٨٥٥ ، والتحق بخدمة الجيش المصرى ، وأخذ يترقى حتى بلغ رتبة أميرالاى ، وخاض غمار الحروب فى ثورة كريد سنة ١٨٦٦ ، إذ كان ضابطاً فى الجيش الذى أنفذته مصر لإخماد تلك الثورة وانتصر على الثوار فى مواقع عدة .

ولما شبت الحرب بين تركيا والروسيا سنة ١٨٧٧ أنفذت مصر جيشاً لنجدة تركيا كان البارودى من ضباطه ، وأبلى فى الحرب بلاء حسنا ، وصقلت

المعارك مواهبه الشعرية ، ولما عاد إلى مصر رقى إلى رتبة اللواء ، وعين مديراً للشرقية ، وكان محافظا للعاصمة حين ألف شريف باشا وزارته الثانية سنة **١٨٧٩** فى أوائل عهد الخديو توفيق ، فاختاره فيها وزيرا للمعارف والأوقاف ، واشترك فى حوادث الثورة العرابية ، وكان من زعمائها المشار إليهم بالبنان ، وتولى رآسة وزارة الثورة سنة **١٨٨٢** ، ثم كانت الهزيمة ، ونفى مع زملائه إلى جزيرة سيلان (سرنديب) ، وظل فى منفاه نيفا وسبعة عشر عاما ، وأسبغ عليه النفى سمات التضحية والبطولة[١] .

الحنين إلى الوطن

كانت حياة زعماء الثورة العرابية فى منفاهم حياة ألم وحزن ، إذ انقطعت صلتهم بالناس ، وطال اغترابهم عن أرض الوطن ، وبعدت الشقة بينهم وبين أهليهم ومواطنيهم ، ولم يكترث لهم أحد ، ولم يعطف عليهم أحد (والناس مع الغالب !) ، وجادت قريحة البارودى بشعر مؤثر فى الحنين إلى الوطن ، والحزن على فراقه ، مما يعد آية فى البلاغة ، وبلغت سليقته الشعرية فى منفاه ذروة العظمة والجلال .

قال يصف الرحيل عن أرض الوطن :

مَحَا البينُ ما أبقت عيون المها منى   فشبْتُ ولم أقض اللُّبانة من سنِّى
عَنَــاءٌ ويأسٌ واشتياقٌ وغربةٌ   ألا شَدَّ ما ألقاه فى الدهر من غبن

إلى أن قال :

ولمـا وقفنا للوداع وأســبلتْ   مدامعنــا فوق الترائب كالمزن

(١) راجع ترجمته تفصيلا فى كتابنا (الثورة العرابية والاحتلال الإنجليزى) .

أهبت بصبرى أن يعود فبزّنى ... وناديت حلمى أن يثوب فلم يغن

وما هى إلا خطوة ثم أقلعت ... بنا عن خطوط الحىّ أجنحة السفن

فكم مهجة من زفرة الشوق فى لظى ... وكم مقلة من غزرة الدمع فى دجن

وما كنت جربت النوى قبل هذه ... فلما دهتنى كدت أقضى من الحزن

ولكنى راجعت حلمى وَرَدَّنى ... إلى الحزم رأى لايحوم على أفن

ولولا بنيات وشيب عواطل ... لما قرعت نفسى على فائت سنى

الصبر على الشدائد

وتجلت فى منفاه صفاته العالية من الشمم، وعلو النفس واحتمل آلام النفى بشجاعة وإباء، وصبر وإيمان، وله فى ذلك شعر يفيض بهذه المعانى السامية .

قال وهو فى سرنديب (سيلان) :

لم أقترف زِلَّةً تقضى علىَّ بما ... أصبحت فيه فماذا الويل والحَرَب ؟

فهل دفاعى عن دينى وعن وطنى ... ذنب أدان به ظلماً وأغترب ؟

فلا يظن بى الحساد مندمة ... فإننى صابر فى الله محتسب

أثريتُ مجداً فلم أعبأ بما سلبَتْ ... أيدى الحوادث منى فهو مكتسب

لايخفض البؤس نفساً وهى عالية ... ولا يشيد بذكر الخامل النشب (١)

وقال مشيراً إلى مصادرة أملاكه :

---

(١) النشب. المال والعقار .

يا ناصر الحق على الباطل خُذْ لى بحقى من يدى ماطلى
أخرجنى عما حوته يدى من كسبى الحر بلا ناطل (١)
من غير ماذنب سوى منطق ذى رونق كالصارم القاطل (٢)
فإن أكن جُرِّدت من ثروتى ففضل ربى حلية العاطل

وقال من قصيدة أخرى فى مقاومة الظلم والصمود أمام المحن والخطوب :

إذا المرء لم يدفع يدَ الجور إن سَطَتْ عليه فلا يأسف إذا ضاع مجدُهُ
ومن ذلَّ خوف الموت كانت حياته أضرَّ عليه من حمام يؤدُّهُ
وأقْتل داءٍ رؤية العين ظالما يسىء ويُتْلَى فى المحافل حمده
علام يعيش المرء فى الدهر خاملا أيفرح فى الدنيا بيوم يَعُدُّه ؟
عَفاءٌ على الدنيــا إذا المرء لم يعش بها بطلا يحمى الحقيقة شَـــدُّه

وقال فى هذا المعنى :

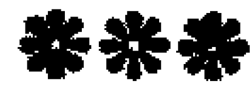
أمطرى لؤلؤاً جبال (سرنديـ ـب) وفيضى آبار (تكرور) تبرا
أنا إن عشت لست أعــدم قوتا وإذا مت لست أعدم قبراً
همَّتى همــة المــلوك ونفسى نفس حرٍّ ترى المذلة كفراً

ومن قوله فى الحنين إلى الوطن والصبر على الشدائد :

فيا دموع القطر سيلى دماً ويابنات الأيك نُوحى معى
وأنت يانَسْمَةَ (وادى) الغضا مُرِّى بريَّاك على مربعى

(١) الناطل . الشىء القليل .
(٢) القاطل . القاطع .

وأنت ياعصفورة المنحَنى   بالله غَـنِّى طرباً واسجعى
وأنت ياعــين إذا لم تفى   بذمــة الدمع فلا تهجعى
أبيت أرعى النجم فى سدفة   ضلَّ بها الصبح فلم يطلع



فهل إلى الأشواف من غاية   أم هل إلى الأوطان من مرجع ؟
لا تأسَ ياقلبُ على مامضى   لابد للمحنة من مقطع

يتمنى أن يرى مصر

وقال فى منفاه يتمنى أن يرى مصر :

ياحبذا جرعةٌ من ماء محْنِية   وضجعة فوق برد الرمل بالقاع(١)
ونَسْمةٌ كشميم الخلد قد حملت   ريًّا الأزاهر من مِيثٍ وأجراع(٢)
ياهل أرانى بذاك الحى مجتمعاً   بأهل ودى من قومى وأشياعى ؟

وقال فى هذا المعنى :

أبيت حزيناً فى (سرنديب) ساهراً   طوال الليالى والخَلِيُّون هُجَّدُ
إذا خطرت من نحو (حلوان) نسمة   نَزَتْ بين قلبي شعلة تتوقد
شبابٌ وإخوانٌ رزئتُ ودادهم   وكل امرئ فى الدهر يشقى ويسعد!

ومن قصيدة له فى هذا المعنى قالها فى منفاه يتشوق إلى الوطن :

---

(١) المحنية . ما انحنى من الأرض .

(٢) الميث . جمع ميثاء الأرض اللينة .

هل من طبيبٍ لداء الحب أوراقى ... يشفى عليلا أخا حزن وإيراق(١)
قد كان أبقى الهوى من مهجتى رمقاً ... حتى جرى البَيْنُ فاستولى على الباقى

وفيها يقول :

ياروضة النيل لامَسَّتْكِ بائقةٌ ... ولا عدتك سماءٌ ذات إغداق(٢)
ولا برحتِ من الأوراق فى حُلَلٍ ... من سندس عبقريٍّ الوشى برّاق
ياحبذا نَسَمٌ من جوِّها عَبِقٌ ... يسرى على جدول بالماء دفّاق
مَرْعى جيادى ومأوى جيرتى وحِمَى ... قومى ومنبتُ آدابى وأعراقى
أصبوا إليها على بُعدٍ ويعجبنى ... أنى أعيش بها فى ثوب إملاق
وكيف أنسى دياراً قد تركتُ بها ... أهلًا كراماً لهم ودى وإشفاقى

***

فيا بريدَ الصَّبا(٣) بلِّغ ذوِى رحمى ... أنى مقيم على عهدى وميثاقى
وأنتَ ياطائراً يبكى على فَنَنٍ ... نفسى فداؤك من ساقٍ إلى ساق
أذكرتنى مامضى والشمل مجتمعٌ ... بمصر والحربُ لم تنهض على ساق

وقال أيضاً فى منفاه :

رُدُّوا علىَّ الصبا من عصرى الخالى ... وهل يعود سوادُ اللمة البالى ؟
ماض من العيش مالاحت مخايله ... فى صفحة الفكر إلا هاج بلبالى

---

(١) الراقى . اسم فاعل من رقاه يرقيه أى عوذه فهو راق .
(٢) البائقة . الداهية والبلية . ولا عدتك . أى لا تجاوزتك
(٣) الصبا بالفتح . ريح معروفة .

أدهى المصائب غدر قبله ثقة   وأقبح الظلم صَدٌّ بعد إقبال

***

لا عيب فيّ سوى حرية ملكت   أعنتي عن قبول الذل بالمال
قلبي سليم ونفسى حرة ويدى   مأمونة ولسانى غير ختال
بلوت دهرى فما أحمدت سيرته   فى سابق من لياليه ولا تالى
حليت شطرية من يسر ومعسرة   وذقت طعميه من خصب وإمحال
لم يبق لى أرب فى الدهر أطلبه   إلا صحابة حر صادق الخال
وأين أدرك ما أبغيه من وطر ؟   والصدق فى الدهر أعيا كل محتال
لا فى (سرنديب) لى إلفٌ أجاذبه   فضل الحديث ولا خلّ فيرعى لى
أبيت منفردا فى رأس شاهقة   مثل القطامى فوق المربأ العالى
إذا تلفَّتُّ لم أبصر سوى صور   فى الذهن يرسمها نقاش آمالى

***

علام أجزع والأيام تشهد لى   بصدق ما كان من وسمى وإغفالى
راجعتُ فهرس آثارى فما لمحت   بصيرتى فيه مايُزْرى بأعمالى
فكيف ينكر قومى فضل بادرتى   وقد سرتْ حِكَمى فيهم وأمثالى
أنا ابن قولى وحسبي فى الفخار به   وإن غدوت كريم العم والخال
ولى من الشعر آيات مفصلة   تلوح فى وجنة الأيام كالخال
ينسى لها الفاقد المحزون لوعته   ويهتدى بسناها كل قوال
فانظر لقولى تجد نفسى مصورة   فى صفحتيه فقولى خط تمثالى
ولا تغرنك فى الدنيا مشاكلة   بين الأنام فليس النبع كالضال

إن ابن آدم لولا عقله شَبَحٌ مركب من عظام ذات أوصال

ومن قصيدة له يتشوق إلى مصر :

خليليّ هذا الشوق لاشك قاتلى فميلا إلى (المقياس) إن خفتما فقدى
ففى ذلك(الوادى)الذى أنْبتَ الهوى شفائى من سقمى وبرئى من وجدى

وقال فى هذا المعنى :

طال شوقى إلى الديار ولكن أين من(مصر) من أقام(بكندى)(١)
حبذا (النيل) حين يجرى فيبدى رونق السيف واهتزاز الفرنْد
تتثنى الغصون فى حافتيه كالعذارى يسحبن وشى الفرنْد
قلدتها يد الغمام عقودا هى أبهى من كل عقد وبند
كيف لاتهتف الحمام عليه وهى تسقى به سلافة قند
كلما صورته نفسى لعينى قدح الشوق فى الفؤاد بزند

الحنين إلى الأهل والولد

وقال فى منفاه وقد رأى فى المنام ابنته الوسطى :

تأوَّبَ(٢) طيفٌ من (سميرة) زائرٌ وما الطيف إلا ماتُريه الخواطر
طوى سُدْفةَ(٣) الظلماء والليل ضاربٌ بأرواقه والنجم بالأفق حائر
فيالك من طيفٍ ألَمَّ ودونه محيطٌ من البحر الجنوبى زاخر

(١) كندى مدينة صغيرة فى جزيرة سيلان (سرنديب) .
(٢) تأوب . أى أتى ليلا .
(٣) السدفة . الستر .

تخطّى إلىَّ الأرض وَجْداً وما له ... سوى نزوات الشوق حادٍ وزاجر
ألَمَّ ولم يلبث وســار وليته ... أقام ولو طالت علىَّ الدياجر
تحمل أهوالَ الظلام مخاطرا ... وعهـدى بمن جادت به لا تخاطر
«خماسية[1]» لم تدرما الليل والسرى ... ولم تنحسر عن صفحتيها الستائر
فيا بُعْدَ ما بينى وبين أحبَّــتى ... ويا قرب ما التفَّت عليه الضمائر
ولولا أمانى النفس وهى حياتها ... لمـا طار لى فوق البسيطة طائر
فان تـكن الأيام فرّقن بيننا ... فـكل امرىء يوما إلى الله صائر

إلى أن قال :

فلا يشمت الأعــداء بى فلربما ... وصلتُ لمـا أرجوه ممـا أحاذر
فقد يستقيم الأمر بعد اعوجاجه ... وتنهض بالمرء الجـدودُ العواثر
ولى أمل فى الله تحيا به المُنى ... ويُشرق وجه الظن والخطبُ كاشرُ
إذا المرءلم يركن إلى الله فى الذى ... يحاذره من دهره فهو خاسر
وإن هو لم يصبر على ما أصابه ... فليس له فى معرض الحق ناصر
ومن لم يذق حلو الزمان ومُرَّه ... فما هو إلا طائش اللب نافر
علىَّ طِلابُ العِزِّ من مستقره ... ولا ذنب لى إن عارضتنى المقادر

إلى أن قال :

فان كنت قد أصبحتُ فَلّ[2] رزية ... تقاسمها فى الأهل بادٍ وحاضر

(١) أى بنت خمس سنوات .

(٢) فل . أى منهزم .

فكم بطلٍ فلَّ الزمان شبَاتَهُ ... وكم سيّد دارت عليه الدوائر
فسوف يبين الحق يوما لناظرٍ ... و تَنْزُو(١) بعوراء الحقود السرائر
وما هى إلا غمرة ثم تنجلى ... غيابتها والله من شاء ناصر
فقد حاطنى فى ظلمة الحبس بعد ما ... ترامت بأفلاذ القلوب الحناجر

***

فمهلاً بنى الدنيا علينا فإننا ... إلى غاية تَنْفَتُّ فيها المرائر
تطول بها الأنفاس بُهْراً(٢) وتلتوى ... على فلكة الساقين فيها المآزر
هنالك يعلو الحق والحق واضحٌ ... ويسفُل كعب الزور والزور عاثر
وعما قليل ينتهى الأمر كله ... فما أولٌ إلا ويتــلوه آخر

يشيد بعظمة الأهرام

قال يصف (الأهرام) ويشيد بعظمتها

سل (الجيزة) الفيحاء عن (هرمى) مصر ... لعلك تدرى غيب ما لم تكن تدرى
بناءان رَدَّا صـــولة الدهر عنهما ... ومن عجب أن يغلبا صولة الدهر
أقاما على رغم الخطوب ليشهدا ... لبانيهما بين الـــبرية بالفخر
فكم أمم فى الدهر بادت وأعصر ... خلت وهما أعجوبة العين والفكر
تلوح لآثار العـــقول عليهما ... أساطير لا تنفك تتلى إلى الحشر
رموزٌ لو استطلعت مكنون سرها ... لأبصرت مجموع الخلائق فى سطر

---

(١) تنزو تضج يقال : نزا به قلبه طمح ،

(٢) بهرا بالضم تتابع الأنفاس من الإعياء فى اللسان .

فما من بناء كان أو هو كائن   يدانيهما عنـــد التأمل والخبر

وختمها بقوله

فيا نسمات الفجـــر أدى تحيتى   إلى ذلك البرج المطل على النهر
ويالمعات البرق إن جزت بالحمى   فصوبى عليها بالنثار من القطر
عليها ســـلام من فؤاد متيم   بها لا بربات القلائد والشذر (١)
ولا برحت فى الدهر وهى خوالد   خلود الدراى والأوابد من شعرى

شعر القتال

ومن قصيدة له فى إحدى المعارك التى خاضها ، ويبدو منها مبلغ شجاعته وصبره على أهوال القتال

ولمـــا تداعى القوم واشتبك القنا   ودارت كما تهوى على قطبها الحرب
وزُيّن للناس الفرار من الردى   وماجت صدور الخيل والتهب الضرب
ودارت بنـــا الأرض الفضاء كأننا   سقينا بكأس لا يفيق لها شرب
صبرت لهــــا حتى تجلت سماؤها   وإنى صبور إن ألم بى الخطب

الفساد فى عهد اسماعيل

وقال من قصيدة يصف سوء الحكم وظلم الحكام فى عهد اسماعيل ، وينصح قومه بالمطالبة بحقوقهم والمبادرة باصلاح شؤونهم قبل أن تسوء العقبى ، وهى من شعره السياسى الوطنى الرائع :

---

(١) الشذر : صغار اللؤلؤ

قامت به من رجال السوء طائفة أدهى على النفس من بؤس على ثكل
من كل وغد يكاد الدست يدفعه بغضاً ويلفظه الديوان من ملل
ذلت بهم مصر بعد العز واضطربت قواعد الملك حتى ظل فى خلل

إلى أن قال

فبادروا الأمر قبل الغوث وانتزعوا شكالة الريث فالدنيا مع العجل
وطالبوا بحقوق أصبحت غرضاً لكل منتزع سهماً ومختتل
حتى تعود سماء الأمن ضاحية ويرفل العدل فى ضفاف من الحلل

الجيش والدستور

وقال فى أوائل عهد الخديو توفيق يدعو إلي الشورى وتقوية الجيش :

أمران ما اجتمعا لقائد أمة إلا جنى بهما ثمار السؤدد
(جمع) يكون الأمر فيما بينهم (شورى) وجند للعدو بمرصد

يندد بالدسائس

وقال من قصيدة يشكو فيها من الدسائس التى كانت تحاك حوله :

نقموا على حميتى فتألبوا حزبا على وأجمعوا ما أجمعوا
وسعوا بفريتهم فلما صادفوا سمعا يميل إلى الملام توسعوا
لاعيب فىَّ سوى حمية ماجد والسيف يغلبه المضاء فيقطع

يحث على الاعتدال ، ويستنكر الذل

قال فى هذا المعنى :

إذا شئت أن تحيا سعيداً فلا تكن لدوداً ولا تدفع يد اللين بالقسر
ولا تحتقر ذا فاقة فلربما لقيتَ به شهما يبرّ على المثرى
فرُبَّ فقير يملأ القلب حكمةً وربَّ غنى لا يريش ولا يبرى[١]
وكن وسطاً لا مشرئبا إلى السُهى ولا قانعاً يبغى التزلف للصفُر[٢]
فأحمد أخلاق الفتى ما تكافأت بمنزلةٍ بين التواضع والكبر
ولا تعترف بالذل فى طلب الغنى فإن الغنى فى الذل شرٌ من الفقر

العودة إلى الوطن

وقد عاد إلى الوطن سنة ١٩٠٠ بعد أن فقد نور عينيه فى منفاه ، فاستقبل مصر بقصيدته التى مطلعها :

أبابل مرأى العين أم هذه مصر فإنى أرى فيها عيوناً هى السحر
فإن يك موسى أبطل السحر مرة فذلك عصر المعجزات وذا عصر

إلى أن قال :

وإنى امرؤ تأبى لى الضيم صولة مواقعها فى كل معترك حمر
أبىٌّ على الحدثان لا يستفزنى عظيم ولا يأوى إلى ساحتى ذعر

---

(١) أى لا ينفع ولا يضر .

(٢) القانع هنا : السائل المتذلل ، والصفر : الذهب .

عبرة الحوادث

ومن قصيدة له قالها بعد عودته من المنفى تفيض توجعاً لحالة البلاد بعد أن جثم الاحتلال على صدرها ، وقد تذكر عندما مر بقصر الجزيرة أيام إسماعيل حين كان فى أوج سلطانه ، وما انتهى إليه أمره من خلع وخسران ، وتذكر أخطاءه التى كان لها أثرها فى التمهيد للاحتلال ، فلم يترحم على عهده ، ونظم هذه القصيدة معتبراً ومذكراً ، وهى من آيات الشعر فى العظة والاعتبار ، وقال

هل بالحمى عن سرير الملك من يزع ؟ هيهات قد ذهب المتبوع والتبع !
هذى (الجزيرة) فانظر هل ترى أحداً يتأى به الخوف أو يدنو به الطمع ؟
أضحت خـلاء وكانت قبل منزلة للملك منهـا لوفد العز مرتبـع
فلا مجيب يرد القول عن نبأ ولا سميـع إذا ناديت يستمـع
كانت منازل أملاك إذا صدعوا بالأمر كادت قلوب الناس تنصدع
عاثوا بهـا حقبة حتى إذا نهضت طير الحوادث من أوكارها وقعوا
لو أنهم علموا مقدار ما فغرت يد الحوادث ما شادوا ولا رفعوا
دارت عليهم رحى الأيام فانشعبوا أيدى سبـا وتخلت عنهم الشيع
كانت لهم عصب يستدفعون بها كيد العدو فما ضروا ولا نفعوا



أين المعاقل بل أين الجحافل بل أين المنـاصل والخطية الشرع ؟
لاشىء يدفع كيد الدهر إن عصفت أحداثه أو بقى من شر ما يقع
زالوا فما بكت الدنيا لفرقتهم ولا تعطلت الأعيـاد والجمع

والدهر كالبحر لا ينفك ذا كدر وإنما صفوه بين الورى لمع
لو كان للمرء فكر فى عواقبه ما شاب أخلاقه حرص ولا طمع
وكيف يدرك مافى الغيب من حدث من لم يزل بغرور العيش ينخدع
دهر يغر وآمال تسر وأعـ ـمار تمر وأيام لها خدع
يسعى الفتى لأمور قد تضر به وليس يعلم ما يأتى وما يدع

***

يا أيها السادر المزور من صلف مهلا فإنك بالأيام منخدع
دع ما يريب وخذ فيما خلقت له لعل قلبك بالايمان ينتفع
إن الحياة لثوب سوف نخلعه وكل ثوب إذا مارث ينخلع

وظل البارودى بعد عودته من المنفى فى عزلة من الناس ، لا يجتمع إلا بالصفوة المختارة من الأدباء والشعراء والحافظين لعهده ، إلى أن كانت وفاته سنة ١٩٤٠ ، فخلف مجدا لا يبلى على الزمان .

***

اسماعيل صبري

١٨٥٤ - ١٩٢٣



شاعر بطبعه وسليقته ، وطنيُّ بفطرته وحسن سريرته ، أدرك عهد الاحتلال فى إبان قوته وسطوته ، فتحركت شاعريته ، تجاهد الاستعمار ، وتمجد المعانى الوطنية ، وتخلدها فى قصائد غرّ تشبه أن تكون تغاريد من نبع القلب الصافى وفيض الإحساس المرهف والذوق الرفيع .

كان شاعراً رقيقاً مجيداً ، عميق الوجدان ، مقلا فى شعره ، محتاطاً فى نشر ماتجود به قريحته ، كان علماً من أعلام الطبقة الأولى من شعراء العصر الحديث ، وثانيهم بعد البارودى .

ولد سنة ١٨٥٤ بمدينة القاهرة ، والتحق بمدرسة المبتديان سنة ١٨٦٦ ، ثم بمدرستى التجهيزية والإدارة (الحقوق) ، وأتم دراسته بمصر سنة ١٨٧٤ ، ثم ألحق بالبعثة المصرية إلى فرنسا ، ونال شهادة الليسانس فى الحقوق من كلية « اكس » سنة ١٨٧٨ ، ولما عاد إلى مصر التحق بالمناصب القضائية حتى عين وكيلا لوزارة الحقانية (العدل) سنة ١٨٩٩ ، واعتزل الخدمة فى سنة ١٩٠٧ .

ظهرت مواهبه الشعرية منذ نعومة أظفاره ، وظلت تنمو وتزدهر طول حياته ، وكانت شاعريته ووطنيته عنوان مجده وموضع فخاره .

كان معاصروه يلقبونه (شيخ الشعراء) ، واعترف له بذلك زملاؤه ،

شوقى وحافظ ومطران وعبد المطلب ونسيم وغيرهم ، وإنك لتلمح تقدير شوقى لزعامته من قوله فى رثائه :

أيام أمرح فى غبـارك ناشئاً نهج المهار على غبار خصاف(١)
أتعلّم الغايات كيف ترام في مضمار فضل أو مجـال قواف

ومن قول حافظ فى رثائه أيضاً

لقد كنت أغشاه فى داره وناديه فيهـا زها وازدهر
وأعرض شعرى على مسمع لطيف يحس نبوّ الوتر

تتجلى فى شعره القومى روح الحب الخالص للوطن ، والشجو الحزين على مآسيه ، والاستمساك بالعزة والكرامة ، والشمم والأباء ، ولقد عبّر بأرق القصائد عن شعور مواطنيه ، وترجم عن آمالهم وآلامهم .

كانت وطنية عميقة الجذور ، عاش حياته لم يزر إنجليزياً قط ، ولم يذهب يوما إلى الوكالة البريطانية ، فى حين أنها كانت مع الأسف مقصد الكبراء والعظماء فى ذلك العهد ، وطالما استماله اللورد كرومر إلى زيارته ليكسبه إلى صف المناصرين للاحتلال ، فاستعصم وأبى ، ولما قيل له لعلك لو فعلت كنت اليوم رئيساً للوزارة ، قال : وماذا تفيدنى رآسة الوزارة غير اغضاب ضميرى وإرضاء ذوى المطامع وأصدقاء الجاه(٢) .

كان صديقاً صدوقا للزعيم مصطفى كامل ، أيده فى جهاده منذ الساعة الأولى ولم يكن يكتم مناصرته إياه فى أى منصب تولاه .

كان محافظاً للاسكندريه سنة ١٨٩٦ — ١٨٩٩ ، وأراد مصطفى كامل أن

---

(١) المهار : جمع مهرة وخصاف فرس مشهور فى العرب .

(٢) ذكر هذه الواقعة الأستاذ احمد الزين فى مقدمته لديوان إسماعيل صبرى ص ٣٢ .

يلقى بها خطبة من خطبة الوطنية الكبرى ، فأوعزت إليه الحكومة أن يمنع إقامة الاجتماع الذى أعد لالقاء الخطبة ، بحجة المحافظة على الأمن والنظام ، فأبى صبرى على الحكومة ما أرادت ، ورخص باقامة الاجتماع ، وصارح الحكومة بأنه مسئول عن الأمن والنظام ، وألقى مصطفى كامل خطبته .

ولما عين وكيلا لوزارة الحقانية (العدل) فى نوفمبر سنة ١٨٩٩ ظل على مودته لمصطفى ، وكان في غالب الأيام يخرج من الوزارة ويعرج بدار اللواء المقابلة لها ليزور صاحب اللواء ويقضى معه الوقت الطويل ، ولم يمنعه منصبه من المجاهرة بصداقته له ومناصرته إياه فى الوقت الذى كان الكبراء من الموظفين وغيرهم يخشون عواقب الاتصال به ، وإلى ذلك يشير شوقى فى رثائة لاسماعيل صبرى إذا يقول :

ويْح الشباب وقد تخطر بينهم ... هل متعوا بتمسح وطواف ؟
لو عاش قدوتهم ورب (لوائهم) ... نكس (اللواء) لثابت وقاف
فلكم سقاه الودّ حين وداده ... جَرَبٌ لأهل الحكم والاشراف

دعوته إلى الدستور

وإنك لتجد فى شعر اسماعيل صبرى انسجاما مع سياسة مصطفى كامل وتمجيداً للوطنية ومناصرة للامة فى جهادها للحرية والاستقلال .

قال فى قصيدة وجهها إلى الخديو عباس حلمى الثانى يوم عيد جلوسه سنة ١٩٠٨ يدعو إلى الدستور .

سدد سهام الرأى (بالشورى) يحط ... بك منه فى ظُلم الحوادث فيلقُ
واسبق به واضرب به وأفتح به ... ما شئت من باب أمامك يُغلق

حادثة دنشواى

وقال فيها يصور حادثة دنشواى ويصف فظائع الإنجليز فيها والعفو الذى أصدره الخديو عن مسجونيها .

وأقلت عثرة قرية حكم الهوى في أهلها وقضى قضاء أخرقُ
إن أنّ فيها بائس مما به أو رنّ جاوبه هناك مطوّق[١]
وارحمتا لجُناتهم ماذا جنوا ؟ وقضاتهم[٢] ما عاقهم أن يتقوا ؟
ما زال يُقذى كل عين ما رأوا فيها ويؤذى كلّ سمع ما لقوا
حتى حكمت فجاء حكمك آية للناس طيّ صحيفة تتألق
نزلت ترفرف حول كاتب نصها زمراً ملائكةُ الرضى وتحلق
شكرتك مصرُ على سلامة بعضها شكراً يغرب فى الورى ويشرق
ذكرت لك الصفح الجميل ولم تزل ترمى إلى أمر أجل وترمق[٣]
قانون (دنشاواى) ذاك صحيفة تتلى فترتاع القلوب وتخفق
هل يرتجى عفو ويهدأ خاطر والموت حول نصوصها يترقرق ؟
ومضاجع القوم النيام أواهلٌ بمعذب يردى وآخر يرهق
لن تبلغ الجرحى شفاء كاملاً ما دام جارحها المهند يبرق
فاحكم بغير العنف واكسر سيفه فالحلم أجمل والمكارم أليق

---

(١) المطوق .. السجين.

(٢) قضاتهم أى قضاة المحكمة المخصوصة التى حكمت عليهم .

(٣) يريد الدستور .

رثاؤه لمصطفى كامل

وقد جزع لوفاة مصطفى كامل جزعاً شديداً ، وشيع جثمانه إلى مرقده الاخير (يوم ١١ فبراير سنة ١٩٠٨) ، ووقف على قبره يلقى قصيدته فى وداعه ، ولم يكد يلقى البيت الأول منها وهو :

أداعى الأسى فى مصر ويحك داعياً ۔ هددت القوى إذ قمت بالأمس ناعياً

حتى ظهر عليه التأثر الشديد والإعياء ، ولم يستطع أن يتم القصيدة ، وقد ألقاها فى حفلة تأبينه ، وتدل هذه القصيدة على مبلغ حبه له وإخلاصه لصداقته ، وإعجابه به ، وشدة حزنه عليه ، فجاءت آية فى بلاغة الرثاء ، ورقة التعبير عن الحزن والألم ، وكأن كل بيت فيها دمعة وفاء تذرفها عين على صديقه الحميم . قال :

أجل أنا من أرضاك خلا موافياً ۔ وبرضيك فى الباكين لو كنت واعيا
وقلبي ذاك المورد العذب لم يزل ۔ كما ذقت منه الحبّ والود صافيا
سِوى أنه يعتاده الحزن كلما ۔ رآك عن الحوض المهدَّد نائيا
ويعثر فى بعض الخطوب إذا مشى ۔ إلى بعض ما يهوى فيرجع داميا
وإن رامه سرب المسرات لم يجد ۔ محلا به من لاعج الهمّ خاليا
ألا عللانى بالتعازى وأقنعا ۔ فؤادى أن يرضى بهن تعازيا
وإلا أعينانى على النوح والبكا ۔ فشأنكما شأنى وما بكما بيا
وما نافعى أن تبكيا غير أننى ۔ أحبّ دموع البر والمرء وافيا

***

أيا (مصطفى) تالله نومك رابنا ۔ أمثلك يرضى أن ينام اللياليا؟

تكلم فإن القوم حولك أطرقوا وقلْ ياخطيب الحىّ رأيك عاليا
لقد أوشكت من طول صمت وهجرة تخالك أعواد المنابر فانيا
وتبكيك لولا أن فيها بقية تعللها من ذلك الصوت داويا
فهل ألفت مابين جفنك والكرى محالفةٌ أم قد أمنت الأعاديا ؟

***

فقدناك فقدان الكمىّ سلاحه وسارى الدياجى كوكب القطب هاديا
وبتنا وقد باتت رفاتك فى الثرى سقاها الحيا(١) نستبطئ الدمع هاميا
ولولا تراث من أمانيك عندنا كريمٌ بكينا إذ بكينا الأمانيا
طواك الردى طىَّ الكتاب تضمنت صحائفه من كل فخر معانيا
مضاءٌ إذا البيض انتمت لأصولها غضبنا إذا سمّاك قوم يمانيا
ورأى يجلى اليأس واليأس ضارب على الأفق ليلا فاحم اللون داجيا
إذا ماتقاضينا ولم تك بيننا ذكرناهما حتى نجيد التقاضيا
فليتك إذ أعييت كل مساجل قنعت فلم تعى الطبيب المداويا
وليتك إذ ناضلت عن مصر لم تفض مع الحبر قلباً بعلم الله غاليا

***

لقد ضاع إخلاص الطبيب وحذقه سدى فبكى الفخر الذى كان راجيا
ولم تنتهز تلك العقاقير فرصة ترى الناس فيها فضل (بقراط)باديا
نحييك سيفاً بات فى الترب مغمداً تقلّده فيما مضى الحق ماضيا

---

(١) المطر .

مواساته لجرحى الحرب

ولقد كان له شعر حماسى يملأ القلوب أملا وشجاعة .

قال من قصيدة له مخاطباً الأمير عمرطوسون يشكره على مواساته جرحى الحرب :

وكم تعهدت جرحى من أسود وغى   إن يكشر الدهر عن أحداثه كشروا
مستنجداً من بنى مصرٍ إلى شمم   إذا رأوا ثلمة فى حوضهم جبَرُوا
مستهمياً هامياً و (النيل) فى وجل   من أن تجود به أيمانكم حذر

الوحدة بين العنصريين

وقال داعياً إلى الوحدة الوطنية بين عنصرى الأمة :

عينَى فيك اليوم قبطيَّة   تروى الأسى عن مسلم موجَع
ويأخذ البر وآى الوفا   عن الكتاب الطيب المشْرع

ومن قصيدة له حين أشتد الخلاف بين المسلمين والأقباط سنة ١٩١١ يدعو إلى الوحدة الوطنية :

خففوا من صياحكم ليس فى مصـــر لأبناء مصر من أعداء
دين عيسى فيكم ودين أخيه أحمد يأمراننا بالإخاء
مصر أنتم ونحن إلا إذا قا مت بتفريقنا دواعى الشقاء
مصر ملكٌ لنا إذا تماسكنـــا وإلا فمصر للغـــرباء

تنديده بصنائع الاحتلال

وقال فى نوفمبر سنة ١٩٠٨ يندد بسياسة مصطفى فهمى حين سقطت وزارته وكان مواليا للاحتلال خاضعا له :

عجبت لهم قالوا سقطتَ ومن يكن   مكانك يأمنْ من سقوط ويسلم
فأنت امرؤ ألصقت نفسك بالثرى   وحرمت خوف الذل مالم يحرم
فلو أسقطوا من حيث أنت زجاجة   على الصخر لم تصدع ولم تتحطم(١)

فى الأباء وعزة النفس

ومن قوله فى الإباء وعزة النفس ، والزراية بالمتكبرين :

أيها التائه(٢) المدلّ علينا   ويك قل لى . من أنت ؟ إنى نسيت
لو فرشت الطريق درًّا لأخطو   فوقه نحو داركم ما رضيت
أنا أغنى من أن يقال فلان   وفلان تزاورا ما حييت !

وقال فى الاستمساك بالكرامة :

لكسرة من رغيف خبز   تؤدم بالملح والكرامة
أشهى إلى الحرّ من طعام   يُختم بالشهد والملامة

---

(١) أى أن مصطفى فهمى كان فى منزلة دانية لا يؤلمه السقوط منها ، بحيث لو أسقطوا زجاجة من ذلك المكان المنخفض لم تنكسر !

(٢) التائه : المتكبر من التيه بكسر التاء .

يستنكر تعدد الزوجات

وقال يذم تعدد الزوجات :

يامن تزوج باثنتين ألا اتئدْ   ألقيت نفسك ظالما فى الهاويةْ
ما العدل بين الضرتين بممكن   لو كنت تعدل ماأخذت الثانية !

التوحيد والحرية

وله فى تمجيد التوحيد والحرية كلمات بليغة وإن لم تكن شعرا إلا أنها تشبهه فى النغم والرنين وقوة الأثر ، وهى من الشعر المنثور البليغ . قال :

أحب التوحيد في ثلاثة : الله . والمبدأ . والمرأة .

وأحب الحرية فى ثلاثة :

حرية المرأة فى ظل زوجها

وحرية الرجل تحت راية الوطن

وحرية الوطن فى ظل الله .

تنديده بالظلم والاستعمار

قال فى قصيدة له يخاطب (الدواة) :

وإذا الظلم والظلام استعانا   يوم نحس بأجهل الجاهلينا
واستمدا من الشرور مدادا   فاجعليه فى قسمة الظالمينا

إلى أن قال :

وإذا كان فيك نقطة سوء   كونت من خيانة تكوينا
فاجعليها قسط الذين استباحوا   فى السياسات حرمة الأضعفينا !

تنديده بالمستعمرين

قال ينعى على إيطاليا عدوانها على طرابلس (ليبيا) سنة ١٩١١ ويندد بما فى فعلتها من الغدر ونقض العهود والمواثيق :

بعضَ هذا الجفاء والعدوان   راقبي الله أمـةَ الطليان !
قد ملأت الفضاء غدراً وجهلا   وتسنمت غارب الطغيان
وبعثت السفين ترمى طرابلـ   سِ بحرب مشبوبة النيران
تخرق البحر والمواثيق والعـ   ـهدَ جهارا وذمة الجيران
سيَّرتها أضغـان قـوم لقـوم   سَلِموا من دناءة الأضغان(١)
من رآها تجرى توهم أن الـ   ـقوم هموا للثأر للأوطـان
لا وربِّ الأسطول ما حمل الأسـ   ـطول جيشاً إلى حمى الحبشان(٢)
إن قوم الطليان أحرص من أن   يُفضحوا مرتين فى ميـدان

الامتيازات الأجنبية

وقال فى هذه القصيدة يشير إلى الامتيازات الأجنبية التى منحتها الدول الشرقية للأوروبين فقابلوها بالغدر والعقوق واتخذوها وسيلة للعدوان على هذه الدول :

ويحْهم مالصنعهم أبطر القـو   م فعقّوا ما كان من إحسان ؟
ولمـاذا تمخض السلم عن حر   ب لظاها يشوى الوجوه عوان ؟

---

(١) يريد بالذين سلموا من دناءة الأضغان العرب وهم المعتدى عليهم فى هذه الحرب .

(٢) يشير بهذا البيت والذى يليه إلى هزيمة الطغيان أمام الأحباش فى معركة عدوه المشهورة سنة ١٨٩٦ ويعيرهم بالسكوت عن الأخذ بثأرهم فى هذه المعركة .

منحٌ قد بذرن فى شر أيدٍ كن مذكن منبت الـكفران
هكذا فلتك المروءات فى عصـ ـر البهاليل من بنى الرومانِ !

القوة سياج الاستقلال

وقال فيها يدعو إلى التسلح بالقوة للدفاع عن الذمار وصد مطامع الاستعمار ويحذر أمم الشرق من غدر الدول الاستعمارية وعدوانها وتبييتها الشر تحت ستار الود والصداقة :

لا يثق بعضنا ببعض وهذا ما أعد الإنسان للإنسان
إن تسـلَّم على الغريب فسلم فى ظلال السيوف والمران(١)
ربما أصبح العناق صراعاً فى زمان الآداب والعرفان(٢)

التغنى بعظمة مصر

وله قصيدة خالدة يتغنى فيها بعظمة مصر ومفاخرها ، ويستحث مصر الحديثة على إحياء مجدها ، قالها سنة ١٩٠٩ على لسان فرعون مصر يخاطب قومه ويبعث فيهم روح العمل لبناء مجد الدولة قال :

لا القوم قومى ولا الأعوان أعوانى اذا ونى يوم تحصيل العلا وانى

إلى أن قال :

لا تقربوا (النيل) ان لم تعملوا عملا فمـاؤه العـذب لم يخلق لـكسلان

---

(١) يريد المران الرماح أى القوة المسلحة .

(٢) فى هذا البيت يتهكم بالدول الأوربية وما تنطوى عليه من الغدر ونقض العهود فى عصر المدنية والعلوم والآداب .

ردوا المجرَّة كدّا دون مورده　　أو فاطلبــوا غــيره ريّا لظمآن
وابنوا كما بنت الأجيال قبلــكم　　لا تتركوا بعدكم فخراً لإنسان
لا تتركوا مستحيلا فى استحالته　　حتى يميط لــكم عن وجه إمكان
مقــالة هبطت من عرش قائلها　　على منــاكب أبطال وشجعان
مادت لها الأرض من ذعر ودان لها　　مافى المقطم من صخر وصــوان
يبنون ماتقف الأجيال حائرة　　أمامه بين إعجاب وإذعان
من كل مالم يلد فــكر ولا فتحت　　على نظائره فى الــكون عينان
ويشبهون إذا طاروا إلى عمــــــل　　جنا تطير بأمر من (سليمان)

***

(أهرامهم) تلك حيّ الفنَّ متخذا　　من الصخور بروجا فوق كيوان
قد مر دهر عليها وهى ساخرة　　بما يضعضع من صرح وإيوان
لم يأخذ الليل منها والنهار سوى　　ما يأخذ النمل من أركان نهلان
جاءت اليها وفود الأرض قاطبة　　تسعى اشتياقا الى ما خلد الفانى
فصغرت كل موجود ضخامتُها　　وغض بنيانها من كل بنيان
وعاد منــكر فضل القوم معترفا　　يثنى على القوم فى سرٍّ وإعلان
تلك الهيا كل فى الأمصار شاهدة　　بأنهم أهل سبق . أهل إمعان
إذا أقام عليهم شاهدا حجر　　فى هيكل قامت الأخرى ببرهان
كأنما هى والأقوام خاشعة　　أمامها صحف من عالم ثانى
تستقبل العين فى أثنائها صور　　نصيحة الرمز دارت حول جدران
لو أنها أعطيت صوتا لــكان له　　صدى يروّع صم الإنس والجان

وختمها بقوله :

أين الأولى سجلوا فى الصخر سيرتهم   وصغروا كل ذى ملك وسلطان
بادوا وبادت على آثارهم دول   وأدرجوا طىّ أخبار وأكفان
وخلفوا بعدهم حربا مخلدة   فى الكون ما بين أحجار وأزمان
وزُحزحوا عن بقايا مجدهم وسطا   عليهم العلمُ ذاك الجاهل الجانى
ويل له هتك الأستار مقتحما   جلال أكرم آثار وأعيان
للجهل أرجح منه فى جهالته   إذا هما وزنا يوما بميزان

إلى شوقى فى منفاه

وكان على ود صميم مع شوقى ، وحينما نفى شوقى من مصر خلال الحرب العالمية الأولى ظل على صلته به ، وكان شوقى قد أرسل إليه من منفاه بالأندلس سنة ١٩١٧ ببيتين من قصيدة له مشهورة(١) قال فيهما :

ياسارى البرق يرمى عن جوانحنا   بعد الهدوء ويهمى من مآقينا(٢)
لما ترقرق فى دمع السماء دماً   هاج البكا فخضبنا الأرض باكينا !

فأجابه صبرى بهذه الأبيات :

ياوامض البرق كم نبهّت من شجن   فى أضلع ذهلت عن دائها حينا
فالماء فى مقل ، والنار فى مهج   قد حار بينهما أمر المحبينا
لولا تذكر أيام لنا سلفت   مابات يبكى دما فى الحى باكينا

(١) سيرد ذكرها فى الحديث عن شوقى .

(٢) يريد شوقى أن البرق قد اقتبس اشتعاله من نار جوانحه وتخيل أن مايهمى به البرق من المطر مشتق من دموعه .

ياآل ودى عودوا لا عدمتكم وشاهدوا ويحكم فعل النوى فينا
يانسمة ضمخت أذيالها سحرا أزهار أندلس هبّى بوادينا(١)

وقد عاش اسماعيل صبرى كريم الخلق ، صادقا عيوفا ، أبيا وفيا لوطنه وأصدقائه ، معتزا بكرامته ، صريحا محبا للحق ، بعيدا عن الزهو والخيلاء ، وظل على هذه الأخلاق الفاضلة الى أن توفى فى ٢١ مارس سنة ١٩٢٣ بعد مرض طويل ، وخلف كنوزا من الشعر والوطنية ، والفضائل النفسية ، أضفت على اسمه هالة من المجد والخلود .

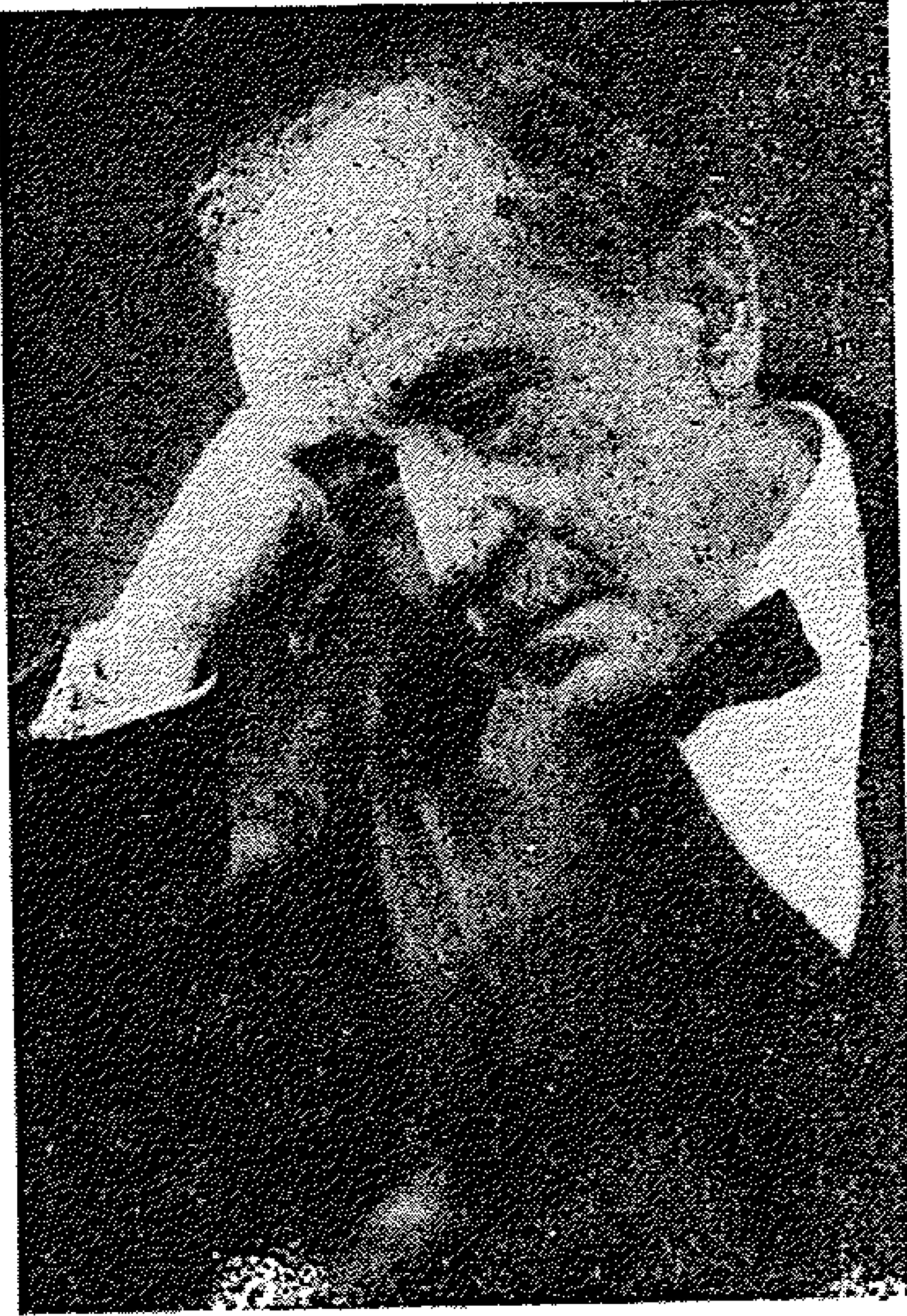
* * *

(١) يخاطب صبرى نسمة الأندلس التى عطرتها أزهاره ويعيش فى جوها شوقى ويناجيها أن تهب عليه فى مصر .

أحمد شوقى

شاعر الوطنية الأكبر

١٨٧٠ -- ١٩٣٢



بلغ الشعر الوطنى ذروته على لسان شوقى وحافظ ، فلقد حملا لواء النهضة الشعرية فى العصر الحديث ، وتغنيا بالوطنية ، وكان للحوادث الكبرى التى وقعت فى مصر والشرق صداها فى شعرهما ، وكلاهما كان له أثره وفضله فى تغذية الحركة الوطنية بعيون الشعر الوطنى ، سطع نجمهما فى عصر واحد ، وغردا فى جيل واحد ، وانتقلا إلى جوار ربهما فى عام واحد (١٩٣٢) ولم تمض على وفاة حافظ ثلاثة أشهر حتى لحق به شوقى فى الرفيق الأعلى .

سمى شوقى أمير الشعراء ، ولقب الأمير لم يعد يتفق والروح الديمقراطية ، ولم تعد الامارة تضفى على صاحبها منزلة محترمة ، هذا إلى أن شوقى أكبر من أن يمجد بهذا اللقب ، فهل نسميه (سيد الشعراء) ؟ إن كلمة السيادة لغير الأمة لم تعد أيضاً تتفق والأوضاع الديمقراطية ، فهل نسميه (زعيم الشعراء) ؟ إنه ولا ريب أقدر شعراء عصره ، ولم يكن ينازعه فى زعامة الشعر أحد من أنداده

ومعاصريه ، فلقد عقدوا له لواء الزعامة وبايعوه عليها في المهرجان الذى أقيم له بمصر سنة ١٩٢٧ وجمع أقطاب الشعراء من العالم العربى وخاطبه فيه صنوه حافظ بقوله :

أميرَ القوافى قد أتيتُ مبايعا وهذى وفود الشعر قد بايعت معى

على أن لقب (زعيم الشعراء) لا يكفى للتعريف به والتنويه بمكانته ، وخير لقب له أن يسمى (شاعر العربية الأكبر) وأن نسميه فى هذا الكتاب (شاعر الوطنية الأكبر) .

ولد أحمد شوقى فى ١٦ أكتوبر سنة ١٨٧٠ (١) وتعلم فى المدارس النظامية ، ودخل مدرسة الادارة (الحقوق) ، فى أوائل عهد الاحتلال ، وفى سنة ١٨٨٧ سافر إلى فرنسا لدراسة الحقوق والأدب ، وأتم دراسته سنة ١٨٩٣ .

أدرك شوقى الاحتلال الإنجليزى وهو شاب مهذب مثقف ، وعرف كيف عصف الاحتلال باستقلال البلاد ، وإذ كانت عبقريته الشعرية قد خلقت وولدت معه ولازمته منذ صباه ، فقد اقترنت بشعوره الوطنى الذى تولد فى نفسه بالفطرة ، وزاده توهجاً ورسوخا رؤيته الاحتلال الأجنبي يجثم على صدر البلاد ، فامتزجت شاعريته بوطنيته ، وكان لمصر وآلامها صدى بعيد وأثر عميق فى شعره ، وظل حبه للوطن يوجهه فى قصائده ويلهمه التغريد له والحنو عليه .

التحق منذ عودته الى مصر بديوان المعية الخديوية ، وعلت مكانته لدى الخديو عباس الثانى حتى سمى (شاعر الأمير) ولكن روحه الوطنية لم تتأثر كثيرا من صلته بالقصر ، هذا الى أن الخديو عباس كان فى أول عهده بالعرش يناوىء الاحتلال ، والاحتلال يناوئه ، حتى إذا جنح لمهادنة الاستعمار ، لم يكن

---

(١) عن التاريخ الثابت فى شهادة الليسانس التى نالها الفقيد من كلية الحقوق بباريس

لهذا التحول أثر كبير فى شعر شوقى ، اللهم الا هدأة وقتية فى الحرب المشبوبة بين الأمة والاحتلال ، على أن تأصل روح الوطنية فى نفسه جعله لا يجارى الخديو عباس فى انصرافه عن الحركة الوطنية ، ثم فى تنكره لها ، فبقى شعره ينهل من منبع الوطنيه الصافى .

وانفصل عن منصبه فى القصر بعد خلع الخديو عباس عن العرش فى ديسمبر سنة ١٩١٤ وتحرر من المنصب الحكومى، فزادته الحرية قوة وانتاجا وتحليقاً فى سماء الشعر والفن والخيال ، واستهدف لاضطهاد السلطة العسكرية البريطانية ، اذ قررت نفيه وتركت له اختيار البلد الذى ينفى اليه،فاختار أسبانيا (الأندلس) ، وبقى على عهده للوطن ، ثم عاد من منفاه فى فبراير سنة ١٩٢٠ ، والبلاد فى غليان الثورة ، فاستقبلت مصر شاعرها الملهم استقبالا حافلا رائعاً .

و يمتاز شعر شوقى بقوة البيان ، وروعة الموسيقى الشعرية ، وسعة الأفق ، والتعمق فى استيعاب الحوادث التاريخية ، قديمها وحديثها ، و لقد جارى فحول الشعراء المتقدمين ، وبذّهم فى كثير من قصائده ، وجدد بعض التجديد فى الشعر العربى بما اقتبسه عن شعراء الغرب ، وعن الثقافة الأوروبية ، وسار فى التجديد شوطاً بعيداً وخاصة بعد عودته من المنفى ، إذ وضع عدة مسرحيات شعرية بلغت مبلغاً عظيما من الفن والموسيقى والجمال ، كمصرع كليوباتره ، ومجنون ليلى ، وعنترة ، وغيرها ، وظل ينتج ويشدو ويبدع ، الى أن توفى فى ١٤ أكتوبر سنة ١٩٣٢ .

الوطنية فى شعر شوقى

فى قصائد شوقى يسطع نور الوطنية ، ويتأجج لهيبها ، وهو أغزر الشعراء مادة وأوسعهم انتاجا فى هذه الناحية ، ولقد ظل يستلهم روح الوطنية طول

حياته ، شابا وكهلا وشيخاً ، بل إن شعره الوطنى فى شيخوخته كان أقوى منه فى شبابه ، وقد يكون مرجع ذلك الى تجرده من الاتصال بالقصر بعد خلع الخديو عباس حلمى ، كما أسلفنا ، ثم الى نفية من مصر فى أوائل الحرب العالمية الأولى ، فأثار البعد عن الوطن شاعريته ، وجاد بأبدع قصائده فى الحنين الى مصر وحبه لها والهيام بها الى درجة التقديس ، ومرجع ذلك أيضا الى تأصل عبقرية الشعر فى نفسه ، فلم تضعفها السن ، ولم ينل منها الزمن وظلت قوية تتدفق حيوية ونشاطا.

والوطنية فى شعر شوقى هى فيض الفطرة والإلهام ، وليست من صنع الظروف أو التكلف ، ولذلك جاءت قوية جارفة ، عميقة رائعة .

فتأمل فى أول قصيدة له فى ديوانه وهى التى قالها فى المؤتمر الشرقى الدولى المنعقد بمدينة جنيف عام ١٨٩٤ ومطلعها

هَمَّتِ الفلكُ واحتواها الماء وحداها بمن تُقلّ الرَّجاء

تجدها آية فى شعر الملاحم أو الشعر التاريخى ، وتحس وأنت تقرؤها أنها قبس من نور الوطنية ، فهى سجل ناطق (لكبار الحوادث فى وادى النيل) ، وقد بلغ عدد أبياتها ثلثمائة بيت إلا قليلا (تسعين ومائتى بيت) ، عرض فيها عرضا أخاذا بديعا تاريخ مصر من أقدم العصور إلى عام نظمها ، أشاد بعظمتها ومجّد مفاخرها ، وحنى عليها فى كبواتها ، واستنزل السخط على كل من اعتدى عليها .

فانظر إلى قوله عن عظمة مصر :

قُلْ لبانٍ بنَى فشادَ فغالى لم يَجُزْ مصرَ فى الزمان بناء
ليس فى الممكنات أن تُنْقَلَ الأَجْبال[1] شُمًّا وأن تُنَالَ السماء

(١) الأجبال : جمع جبل .

ولما انتهى فى سرد الحوادث إلى الحملة الفرنسية سجل إخفاقها وارتدادها عن مصر ، قال :

وأتى النسر[1] ينهب الأرض نهباً   حوله قومه النسورُ ظِماء
يشتهى النيلَ أن يشيد عليه   دولةً عرضُها الثرى والسماء
حلُمتْ رومةٌ بها فى الليالى   ورآها القياصرُ الأقوياء
فأتت مصرَ رُسْلُهم تتوالى   وترامت سودانَها العلماء
ولو استشهد الفَرنسيسُ روما   لأَتَتْهُمْ من رومةَ الأَنباء
علمتْ كلُّ دولة قد تولَّتْ   أننا سمُّها وأنّا الوباء
قاهرُ العصر والممالكِ نابليونُ   ولَّتْ قوادُه الكبراء
جاء طيشاً وراح طيشاً ومن قبلُ   أطاشت أناسَها العلياء

وانظر كيف يصور فى البيتين الآتيين سكوت الأهرام وهى تواجه نابليون بأنه سكوت السخرية والاستهزاء وكأنها تتنبأ له بالهزيمة فى ختام معاركه ، قال :

سكتت عنه يوم عيَّرها الأهرام لكن سكوتها استهزاء
فهى تُوحِى إليه أن تلك (واترلو) فأين الجيوش أين اللواء ؟

وتأمل كيف يعبر عن قناة السويس بأنها نكبة على مصر قال :

جمع[2] الزاخرينْ كَرْهاً فلاكانا ولا كان ذلك الالتقاء
أحمرٌ عند أبيض للبرايا   حِصَّةُ القُطْرِ منهما سوداء

(١) يقصد نابليون

(٢) الإشارة هنا إلى سعيد الذى منح دلسبس امتياز القناة ، ويريد بالزاخرين البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر .

والقصيدة كلها على هذا الغرار فى الإجادة والإبداع ، ولقد نظمها وهو فى الرابعة والعشرين ، وكأنما رسم فيها منهجه فى الشعر ، فهو يقتبس من عبقريته الشعرية ، ومن روحه الوطنية معا ، وقد لازمه هذا الامتزاج فى شتى قصائده .

شوقى ومصطفى كامل

سارت نهضة الشعر فى مصر إلى جانب النهضة الوطنية التى هبت لمقاومة الاحتلال ، ومن هنا جاءت صلة الزعيم مصطفى كامل بشعراء عصره ، وكانت دعوته الوطنية تلقى صدى وتأييدا فى قصائدهم الغرّ ، بحيث يمكن القول بأن الشعر لم يتألق فى سماء مجده مثلما تألق فى عهد مصطفى كامل ومحمد فريد .

وقد ظهر التجاوب بين دعوة مصطفى كامل وشعر شوقى ، وزاد فى هذا التجاوب أن شوقى كان صديقاً حميما لمصطفى ، وكلاهما معجب بصاحبه أيما إعجاب ، ولا غرو فهما صنوان ، وفرسا رهان ، هذا فى ميدان الوطنية والجهاد ، وذلك فى دولة الشعر والبيان ، وكان شوقى يعتز بصداقته لمصطفى ومشاركته إياه فى تعهده الروح الوطنية وغرسها فى نفوس الجيل ، وإلى ذلك يشير فى قصيدته عن ذكرى مصطفى سنة ١٩٢٥ اذ يقول فيها مخاطبا الفقيد .

أَتَذْكُر قبلَ هذا الجيل جيلا … سهرنا عن معلِّمهم وناما ؟
مِهار الحقِّ بَغَضْنا اليهم … شكيمَ القيصريَّةِ واللجاما[١]
(لواؤكَ) كان يَسقيهم بجامٍ … وكان الشعرُ بين يدىَّ جاما
من الوطنيةِ استَبقوا رحيقاً … فَضَضْنا عن مُعتَّقِها الختاما

(١) مهار . جمع مهر ، والمراد بالمهار هنا الشباب ، والمراد بشكيم القيصرية ولجامها . بطش الاحتلال وجبروته .

وكان مصطفى يصف شوقى بأنه « الغدير الصافى فى القاف الغاب ، يسقى الأرض ولا يبصره الناظرون » ، وكان يخصص لقصائده أسمى مكان فى (اللواء) ، وفى ذلك يقول شوقى فى مرثاته الخالدة .

قد كنتَ تهتف فى الورى بقصائدى   وتجلّ فوق النيّرين مكانى

وزاره وهو على فراش مرضه الأخير ، فطلب اليه مصطفى أن يرثيه إذ أحس بدنو أجله ، وفى ذلك يقول شوقى :

وجعلتَ تسألنى الرثاء فهاكه   من أدمعى وسرائرى وجنانى

ويبدو الانسجام بين دعوة مصطفى كامل وشعر شوقى فى كثير من قصائده .

قصيدة شوقى فى وداع اللورد كرومر

فمن ذلك قصيدته المشهورة فى وداع اللورد كرومر سنة ١٩٠٧ حين اضطر الى الاستقالة على أثر حادثة دنشواى ، ففى أبياتها تتجلى الروح الوطنية والنقمة على الاحتلال ، قال

أيامُكم أم عهد اسماعيلا   أم أنت فرعونٌ يسوس النيلا ؟

أم حاكمٌ فى أرض مصر بأمره   لا سائلا أبداً ولا مسئولا

يا مالكاً رقّ الرقاب ببأسه   هلاّ اتخذت إلى القلوب سبيلا ؟

لما رحلتَ عن البلاد تشهّدت   فكأنك الداء العياء رحيلا

أوسَعْتنا يومَ الوداع إهانةً   أدبٌ لعمرك لا يصيبُ مثيلا[1]

(١) يشير إلى خطبة اللورد كرومر فى الحفلة التى أقامها صنائع الاحتلال بدار الأوبرا تكريماً له وأهان فيها المصريين .

إلى أن قال :

أنذرتنا رقـاً يدوم وذِلةَ   تبقى وحالا لا ترى تحويلا
أحسِبتَ أن الله دونك قدرةً   لا يملك التغيير والتبديلا ؟
الله يحـكم فى الملوك ولم تـكن   دولٌ تنازعه القوى لتدولا
وعونُ قبلك كان أعظَم سطوةً   وأعزّ بين العـالمين قبيلا

***

اليومَ أخلفت الوعودَ حـكومةٌ   كنا نظن عهودَها الانجيلا
دخلتْ على حـكم الوداد وشَرعه   مصراً فكانت كالسلال دخولا
هدمت معالمَها وهدت ركنها   وأضاعت استقلالها المأمولا

وقال :

قد مدَّ إسماعيل قبلك للورى   ظلَّ الحضارة فى البلاد ظليلا
إن قيس فى جود وفى سرف إلى   ما تنفقون اليوم عُدَّ بخيـلا
أو كان قد صرع (المفتشَ) مرةً   فلـكم صرعتَ بدنشواى قتيلا
لا تذكر الـكرباج فى أيامه   من بعد ما أنبتَّ فيه ذيولا

قصيدته فى ذكرى دنشواى

وقصيدته سنة ١٩٠٧ أيضاً عن (ذكرى دنشواى) ، بعد مرور عام على حادثتها ، فى سبيل طلب العفو عن سجنائها ، وفيها وصف مؤثر لهذه المأساة .

قال :

يادِنشوايَ على رُباكِ سلامُ   ذهبت بأُنسِ رُبوعِكِ الأيامُ

شهداءُ حُكمكِ(١) فى البلادِ تفرقوا ‏ ‏ هيهاتَ للشملِ الشتيتِ نظام
مرّت عليهم فى اللّحود أهلَّةٌ ‏ ‏ ومضى عليهم فى القيودِ العام
كيف الأراملُ فيكِ بعد رجالها ‏ ‏ وبأىِّ حالٍ أصبحَ الأيتام ؟
عشرون بيتاً أقفرتْ وانتابَها ‏ ‏ بعد البشاشة وحشة وظلام
ياليتَ شعرى فى البروجِ حمائمٌ ‏ ‏ أم فى البروج منيةٌ وحِمام ؟
(نيرونُ) لو أدركتَ عهدَ (كرومرٍ) ‏ ‏ لعرفتَ كيفَ تنفذ الأحكام !



نوحى حمائمَ دنشوایَ وروِّعى ‏ ‏ شعباً بوادى النيلِ ليس ينام
إن نامت الأحياء حالتْ بينَه ‏ ‏ سَحَراً وبين فراشهِ الأحلام
متوجعٌ يتمثلُ اليومَ الذى ‏ ‏ ضجتْ لشدةِ هوله الأقدام
السوطُ يعملُ والمشانقُ أربعٌ ‏ ‏ متوحداتٌ والجنودُ قيام
والمستشارُ(٢) إلى الفظائع ناظرٌ ‏ ‏ تدمى جلودٌ حولَه وعِظام
فى كلِّ ناحية وكلِّ محلة ‏ ‏ جزعاً من الملأ الأسيفِ زِحام
وعلى وجوهِ الثاكلين كآبة ‏ ‏ وعلى وجوهِ الثاكلاتِ رَغام

رثاؤه لمصطفى كامل

ولما توفى مصطفى كامل سنة ١٩٠٨ رثاه شوقى بقصيدته الخالدة التى تعد أكبر مرثاة فى تاريخ الأدب العربى ، ترجم فيها عن شعوره بالحزن والألم بآيات بينات تجلت فيها حكمة الشعر وقوة الوطنية وروعة البيان ، وقد

(١) أى حكم المحكمة المخصوصة فى قضية دنشواى .

(٢) يريد الكبتن «متشل» مستشار وزارة الداخلية وكان يشرف على تنفيذ الحكم .

نشرت يوم ٢٣ فبراير سنة١٩٠٨ عقب وفاة الزعيم بثلاثة عشر يوماً ، فأثرت في النفوس تأثيراً عميقاً ، وجددت أحزان الأمة ، وحفظناها وحفظها الشباب وقتئذ عن ظهر قلب ، لأنها عبرت عن شعورنا جميعاً في الرزء الفادح ، ننشرها كاملة لأنها قطعة من الشعر الوطني الخالد . قال في مطلعها :

المشرقانِ عليك ينتحبانِ قاصيهما في مأتم والداني

يا خادمَ الاسلام أجرر مجاهد في الله من خلد ومن رضوان

لما نعيتَ إلى الحجاز مشى الأسى في الزائرين ورُوِّع الحرمان

السكة الكبرى(١) حيال رباها منكوسة الأعلام والقضبان

لم تَألُها عند الشدائد خدمةً في الله والمختار والسلطان

يا ليت مكة والمدينة فازتا في المحفلين بصوتك الرنان

ليرى الأواخر يومَ ذاك ويسمعوا ماغاب من قس ومن سحبان(٢)

جار التراب وإنت أكرم راحل ماذا لقيتَ من الوجود الفاني ؟

وقال عن مرضه الذى أودى بحياته

أبكي صباك ولا أعاتب من جنى هذا عليه كرامةً للجاني(٣)

يتساءلون أبا لسلال قضيت أم بالقلب أم هل مت بالسرطان

الله يشهد أن موتك بالحجا والجد والإقدام والعرفان

وقال يشيد بأخلاق الفقيد

إن كان للأخلاق ركن قائم في هذه الدنيا فأنت الباني

(١) يريد سكة حديد الحجاز

(٢) قس وسحبان خطيبان من أبلغ خطباء العرب .

(٣) الجاني إشارة إلى مصطفى كامل أى أنه ضحي بحياته وشبابه في سبيل مصر .

بالله فتِّش عن فؤادك فى الثرى　　هل فيه آمالٌ وفيه أمانى
وجدانُكَ الحىّ المقيم على المدى　　ولَرُبَّ حىٍّ ميّتِ الوجدان

وقال فى فلسفة الحياة

الناسُ جارٍ فى الحياة لغاية　　ومضلَّل يجرى لغير عنان
والخلدُ فى الدنيا وليس بهيِّنٍ　　عليا المراتب لم تُتَحْ لجبان
فلو أن رسلَ الله قد جبنوا لما　　ماتوا على دين ولا إيمان
المجد والشرف الرفيع صحيفة　　جُعلت لها الأخلاق كالعنوان
وأحبُّ من طول الحياة بذلة　　قِصَرٌ يريك تقاصرَ الأقران
دقّاتُ قلب المرء قائلةٌ له　　إن الحيـاة دقائق وثوان
فارفع لنفسك بعد موتك ذكرها　　فالذكر للانسان عمرٌ ثانى
للمرء فى الدنيا وجم شؤونها　　ما شاء من ربح ومن خسران
فهى القضاء لراغب متطلع　　وهى المضيق لمؤثر السلوان

***

الناس غادٍ فى الشقاوة رائحٌ　　يشقى له الرحماء وهو الهانى
ومنعِّم لم يلـق إلاَّ لذة　　فى طيها شَجَنٌ من الأشجان
فاصبر على نُعْمَى الحياة وبؤسها　　نعمى الحيـاة وبؤسها سيان

وقال مخاطباً الزعيم

ياطاهرَ الغدوات والرَّوحات والـ　　خطرات والإسرارِ والإعلان
هل قام قبلك فى المدائن فاتح　　غازٍ بغـير مُهَنَّد وسنان ؟

يدعو إلى العلم الشريف وعنده ... أن العـــلوم دعائم العمران

وقال فى وصف الجنازة :

لَفّوكَ فى عَـلَمِ البلاد منكّـساً ... جَزَع الهـلالُ على فتى الفتيان

ما احمرّ من خجل ولا من ريبة ... لـكنما يبـكى بدمْع قانى (١)

يُزجُون نعشك فى السناء وفى السنا ... فكأنما فى نعشــك القمران

وكأنه نعش (الحسين) « بكربلا » ... يختــال بين بكى وبين حنــان

فى ذمــة الله الـكريم وبره ... ماضم من عرف ومن إحسان

ومشى جلال الموت وهو حقيقة ... وجلالك المصـــدوق يلتقيان

***

شَقّت لمنظرك الجيوبَ عقائلُ ... وبـكَـتكَ بالدمع والهتونِ غوانى

والخلْقُ حولك خاشعون كعهدهم ... إذ ينصتون لخطبة وبيـان

يتســاءلون بأى قلب تُرْتَقى ... بعـــدُ المنابرُ أم بأى لسان

فلو إن أوطاناً تُصَوَّر هيكلا ... دَفنوك بين جوانح الأوطان

أو كان يُحمَل فى الجوارح ميت ... حملوك فى الأسمـاع والأجفان

أو صيغ من غُرّ الفضائل والعُلى ... كَفَنٌ لبست أحاسن الأكفان

أو كان للذكر الحـكيم بقيــة ... لم تأت بعـــدُ رُثيتَ فى القرآن

وقال يصف الفقيد فى مرضه الأخير :

ولقد نظرتك والردى بك محدق ... والداء مـلء معـــالم الجثمان

يبغى ويَطْغَى والطبيب مضلل ... قَنِطٌ وساعات الرحيل دوانى

(١) قانى : أحمر .

ونَواظرُ العُواد عنـــك أمالها   دمعٌ تعـــالج كتمَه وتعـــانى
تُملى وتـكـتب والمشاغل جمـة   ويداك فى القرطاس ترتجفـان
فهَشَشْتَ لى حتى كأنك عائدى   وأنا الذى هـدّ السقام كيانى
ورأيتُ كيف تموت آسادالشَّرى   وعرفتُ كيف مصارع الشجعان
ووجدتُ فى ذاك الخيال عزائماً   ما للمنـــون بدكّهن يدان

***

وجعلتَ تسألنى الرثاء فهاكه   من أدمعى وسرائرى وجنـــانى
لولا مغالبة الشجون لخاطرِى   لنظمتُ فيـك يتيمة الأزمان
وأنا الذى أرثى الشموس إذا هوت   فتعود ســـيرتَها من الدوران

***

قد كنتَ تهتف فى الورى بقصائدى   وتُجلّ فوق النـيرات مكانى
ماذا دهانى يوم بِنْتَ فعقّنى   فيـك القريضُ وخاننى إمكانى
هَوِّنْ عليـك فلا شمات بميت   إن المنيـــة غاية الإنسان
من للحسود بميتـــة بُلِّغتها   عزّت على كسرى أنو شروان
عوفيت من حَرَبِ الحياة وحرْبها   فهل استرحت أم استراح الشانى

وقال فى ختام القصيدة يذكر فضل مصطفى على مصر :

يا صَبَّ مصر وياشهيدَ غرامها   هـــذا ثرى مصرٍ فنم بأمان
إخلع على مصر شبابك غالياً   والبس شباب الحور والولدان
فلعل مصراً من شبابك ترتدى   مجداً تتيه به على البـــلدان

فلو أن بالهرمين من عَزَماته بعض المضاء تحرّك الهرمان
علّمت شبان المدائن والقرى كيف الحياة تكون فى الشبان
مصر الأسيفة ريفها وصعيدها قبرٌ أبرُّ على عِظامِك حانى
أقسمتُ أنك فى التراب طهارةٌ مَلَكٌ يهاب سؤاله المَلَكان

شهيد الحق

وكان شوقى لا يفتأ يذكر مصطفى بعد وفاته :

فمن ذلك قصيدته التى نظمها سنة ١٩٢٥ لمناسبة ذكراه بعنوان (شهيد الحق) ، تناول فيها ما أصاب البلاد من انقسام وتشاحن وتناحر ، ثم انتقل من ذلك إلى ذكرى مصطفى كامل ، فوفاه حقه من التمجيد ، قال فى مطلعها :

إلامَ الخلْفُ بينكمو إلاما ؟ وهذه الضجةُ الكبرى علاما ؟
وفيمَ يكيد بعضكمُ لبعضٍ وتُبدون العداوة والخصاما ؟
وأين الفوز ؟ لا مصر استقرت على حالٍ ولا السودان داما

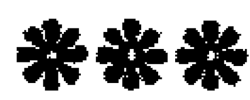
إلى أن قال :

وَلِينا الأمرَ حزباً بعد حزب فلم نَكُ مصلحين ولا كراما
جعلنا الحكم توليةً وعَزْلا ولم نَعْدُ الجزاء والانتقاما
وسُسْنا الأمر حين خلا إلينا بأهواء النفوس فما استقاما

وقال ذاكراً مناقب الفقيد :

شهيدَ الحقِّ قم تَرَه يتيماً بأرضٍ ضُيِّعتْ : فيها اليتامى

أقام على الشـــفاه بها غريباً ومرّ على القلوب فما أقاما(١)
سقِمتَ فلم تَبِت نفسٌ بخير كأن بهجة الوطن السقاما
ولم أر مثل نعشك إذ تهادى فغطّى الأرض وانتظم الأناما
تحمَّـــل همةً وأقلّ دِيناً وضمّ مروءةً وحوى زماما
وما أنساك فى العشرين لمـا طلعتَ حيالها قمـــراً تماماً
يُشارُ إليك فى النادى وتُرمَى بعينى من أحب ومن تعامى
إذا جئتَ المنابر كنت (قساً) إذا هو فى عكاظَ علا السناما
وأنت ألذُّ للحق اهـــتزازاً وألطف حين تنطقه ابتساما
وتحمل من أديم الحق وجهاً صراحاً ليس يتخـــذ اللثاما



أتذكـرُ قبل هذا الجيل جيلاً سهرنا عن معلِّهم وناما ؟
مِهارُ الحـــق بغَضْنا إليهم شكيمَ القيصرية واللجاما
لواؤك كان يسقيهم بجامٍ وكان الشعر بين يدىَّ جاما
من الوطنية استبقوا رحيقاً فَضَضْنا عن مَعتّقها الختاما
غرسنا كَرمها فزكا أصولا بكل قرارة وزكاء مُداما
جمعتهمو على نبرات صوت كنفخ الصّور حركت الرجاما(٢)
لكَ الخطبُ التى غص الأعادى بسوْرتها وساغت للنَّدامى(٣)

(١) أى أن الحق تنطق به الأفواه ولا يستقر فى القلوب
(٢) الرجام : القبور.
(٣) السورة : الحدةوالشدة: والندامى جمع نديم والمراد بهم والأنصار والأصدقاء.

فكانت في مرارتها زئيراً وكانت في حلاوتها بغاما(١)

***

بكَ الوطنية اعتدلت وكانت حديثاً من خرافةَ أو مناما

بنيتَ قضية الأوطان منها وصيَّرتَ (الجلاء) لها دِعاما

وله قصيدة في ذكراه سنة ١٩٢٦ قال :

لم يَمُت من له أثرْ وحياةٌ من السيِّرْ

أدعه غائباً وإن بعدت غاية السفرْ

آيب الفضل كلما آبت الشمس والقمر(٢)

رُبَّ نورٍ مُتَمِّم قد أتانا من الحفَر

إنما الميْت من مشى ميِّتَ الخبْر والخبر

من إذا عاش لم يُفِد وإذا مات لم يضر

ليس في الجاه والغنى منه ظلٌّ ولا ثمر

قَبُحَ العزُّ في القصور إذا ذَلَّت القُصُر

***

أعْوزَ الحقّ ذائدٌ وإلى (مصطفى) افتقر

وتمنّت حياضه هبّةَ الصارم الذكر

الذى يُنفذ المُدى والذى يركب الخطر

أيها القوم عَظِّموا واضع الأسّ والحجر

(١) البغام : صوت الظبي .

(٢) أي يعود للفقيد فضل وتتجدد ذكراه كلما آبت الشمس وعاد القمر .

أذكروا الخُطبةَ التى هى من آية الكبر
لم ير الناس قبلها منبراً تحت محتضر
لستُ أنسى لواءه وهو يمشى إلى الظَّفر
حَشَرَ الناسَ تحتَه زُمَراً إثْرُها زمر
وترى الحقَّ حولَه لاترى البيضَ والسُّمر(١)
كلما راح أو غدا نفخ الروح فى الصور

***

يا أخا النَّفْس فى الصبا لذةُ الروح فى الصِّغَر
وخليلا ذَخَرتُه لم يُقَوَّم بمدّخر
حال بينى وبينه فى فُجاءاته القدَر
كيف أجزِى مودَّةً لم يَشُبْ صفوَها كدر
غيرَ دمع أقوله قَلَّ فى الشأن أو كثُر
وفؤادٍ معلَّلٍ بالخيالات والذكر
لم ينم عنك ساعةً فى الأحاديث والسَّمر
قم تر القومَ كتلة مثل مَلمْومة الصخر
جَدّدوا أُلفةَ الهوى والإخاء الذى شطرِ
ليس للخُلف بينهم أو لأسبابه أثر
أَلَّفتهم روائحٌ غادياتٌ من الغِير

(١) البيض : السيوف والسمر الرماح .

وصَحوا من منوّم وأفاقوا من الخدر[1]
أقبلوا نحو حقِّهم ما لهم غـيره وطر
جعـلوه خليّـة شرعوا دونها الإبر
وتواصَـوْا بخطةٍ وتداعـوا لمؤتمر
وقصارى أولى النهى يتلاقَون فى الفكر
آذنونا بموقفٍ من جلال ومن خطر
نسمع الليثَ عنده دون آجامـه زأر
قل لهم فى نديّهم[2] مصر بالبـاب تنتظر

شوقى وفريد

لم تكن صلة شوقى بفريد كصلته بمصطفى ، وعندما تولى فريد زعامة الحركة الوطنية سنة ١٩٠٨ ، بعد وفاة الزعيم الأول ، كانت سياسة (الوفاق) بين الخديوى عباس الثانى والمعتمد البريطانى قد ثبتت قواعدها ، وتنكر عباس للحركة الوطنية ، ومع صلة شوقى بالقصر واشتداد الجفاء بين الخديوى وفريد ، فإنه لم يتعرض له بسوء فى أى قصيدة له ، وكان هذا منه نعم الوفاء للوطنية .

وبدا حب شوقى للحزب الوطنى وتأييده له من رثائه لعمر بك لطفى أحد أقطاب هذا الحزب ومؤسس التعاون فى مصر ، فقد نظم سنة ١٩١١ فى رثائه قصيدة بديعة قال فى مطلعها :

---

(١) الخدر الكسل .

(٢) يريد البرلمان

قِفُوا بالقُبــور نُسائلْ عمرْ ... متى كانت الأرضُ مَثْوَى القمرْ ؟

وفيها يقول :

« نِقَابَاتُكَ » الغُرُّ تبكى عليكَ ... ويبكى عليك النَّدىُّ الأغرّ(١)
ويبكى التعاونُ من سَنَّهُ ... عشيَّةَ ليس له من أثر
ويبكيكَ (حِزبٌ) تخيَّرتَه ... شريفُ المَرَامِ شريفُ الوَطَر
ويبكى الأولَى أنت عَلَّمْتَهُمْ ... وأنت غرستَ فكانوا الثمر

رثاؤه لفريد

ولما توفى فريد سنة ١٩١٩ رثاه بقصيدة من عيون شعره ، ظهر فيها تقديره للزعيم الشهيد ، قال :

كلُّ حَىٍّ على المنيــة غادى ... تتوالى الرِّكابُ والموتُ حادى(٢)
ذهبَ الأوَّلون قَرْناً فقرناً ... لم يَدُم حاضرٌ ولم يَبق بادى(٣)
هل ترى منهمو وتسمعُ عنهم ... غــير باقى مآثرٍ وأيادى ؟

***

كُرَةُ الأرض كم رَمَتْ صولجانا ... وطَوَتْ من ملاعب وجياد
والغُبــارُ الذى على صفْحَتَيْهــا ... دَورانُ الرحى على الأجساد
كلُّ قبرٍ من جانب القفر يبدو ... عــلَم الحق أو منــار المَعاد

(١) نادى المدارس العليا وكان عمر لطفى رئيسه .
(٢) الحادى هو الذى يغنى للقافلة فتنشط فى سيرها .
(٣) الحاضر ساكن الحضر ، والبادى ساكن البادية .

وزمام الركاب من كلِّ فَجٍّ ومحطُّ الرِّحالِ من كل وادى
تطلع الشمسُ حيث تطلع نضجاً وتُنحَّى كمِنْجَلِ الحصَّاد

إلى أن قال :

أسألتم حقيبةَ الموت ماذا تحتها من ذَخيرةٍ وعتاد ؟
إن فى طيها إمامَ صُفوف وحَواريِّ نيَّةٍ واعتقاد

لو تركتم لها الزمام لجاءت وحدَها بالشهيد دارَ الرشاد
انظروا هل تَروْن فى الجمع (مصرا) حاسراً قد تجلَّلت بسواد
تاجُ أحرارها غُلاماً وكهلاً راعها أن تراه فى الأصفاد
وسِّدوه الترابَ نِضْوَ سِفارٍ فى سبيل الحقوق نِضو سُهاد
وارْكِزوه إلى القيامة رُمْحاً كان للحشد والنَّدى والطِّراد
وأَقِرُّوه فى الصفائح عَضْباً لم يَدِنْ بالقرار فى الأغماد

وقال مشيراً إلى موته فى منفاه :

نازحَ الدار أقصرَ اليومَ بَيْنٌ وانتهت محنةٌ وكفَّت عوادى
وكفى الموت ما تخاف وترجو وشفى من أصادقٍ وأعادى
من دنا أو نأى فإن المنايا غايةُ القرب أو قُصارى البُعاد
سِرْ مع العمر حيث شئت تؤوبا وافقد العمر لا تؤبْ من رُقاد
ذلك الحقُّ لا الذى زعموه فى قديمٍ من الحديث مُعاد
وجرى لفظُه على ألْسُن النا س ومعناه فى صدور الصِّعاد
يتحلَّى به القوىُّ ولكن كتحلِّى القتال باسم الجهاد

***

هل ترى كالتراب أحسنَ عدلا وقياما على حقوق العبـــاد
نزل الأقوياء فيــه على الضعَّـــفَى وحـــلَّ الملوكُ بالزُّهاد
صفحاتٌ نقيــةٌ كقلوب الرســـل مغسولة من الأحقـــاد
قم إن اسْطعت من سريرك وانظر سِرَّ ذاك اللواء فى الأجناد
هل تراهم وأنت موفٍ عليهم غيرَ بُنيان ألفة واتحـــاد
أمةٌ هيئت وقـــومٌ لخير الـــدهر أو شرِّه على اســـتعداد
مصرُ تبكى عليكَ فى كل خِدرٍ وتصوغُ الرثاءَ فى كل ناد
لو تأملتهـــا لراعـــك منهـــا غُرَّةُ البِرِّ فى سواد الحداد
منتهى مابه البلادُ تُعزَّى رجلٌ مات فى سبيل البلاد
أمَّهاتٌ لا تحمل الثُّـــكل إلاَّ للنجيب الجرىء فى الأولاد
(كفريدٍ) وأين ثانى فريدٍ أىُّ ثانٍ لواحد الآحاد ؟
الرئيـــسِ الجوادِ فيما علمنا وبلونا وابنِ الرئيس الجواد
أكَلَتْ ماله الحقوقُ وأبلى جسمَه عائدٌ من الهم عادى
لك فى ذلك الضنى رِقَّةُ الرُّو ح وخَفْقُ الفؤاد فى العُوَّاد
عِلَّةٌ لم تَصِل فراشَكَ حتى وَطِئتْ فى القلوب والأكباد
صادفت قرحة يلائمها الصـــبر وتأبى عليه غـــيرَ الفساد
وَعَدَ الدهرُ أن يكون ضِمادا لك فيها فكان شر ضماد
وإذا الروح لم تنفِّسْ عن الجِسْـــم (فبقراط[1]) نافخٌ فى رَماد

(١) بقراط هو أبو الطب .

قصيدته فى ذكراه

وفى سنة ١٩٢٤ نظم قصيدة فى ذكراه الخامسة ، وهى من أبلغ شعره ومن أروع ما قيل فى تمجيد فريد ووطنيته وتضحياته ، قال :

نُجدِّد ذكرى عهدكم ونعيدُ وَنُدْنى خيالَ الأمس وهو بعيدُ
وللناس فى الماضى بصائرُ يهتدى عليهن غاوٍ أو يسير رشيد
إذا ألمَيْت لم يكرُم بأرض ثناؤه تحيَّر فيها الحىّ كيف يسود
ونحن قضاة الحق نرعى قديمه وإن لم يفتنا فى الحقوق جديد
ونعلم أنا فى البناء دعائم وأنتم أساسٌ فى البناء وطيد
فريدُ ضحايانا كثيرٌ وإنما مجال الضحايا أنت فيه فريد
فما خَلْفَ ما كابدتَ فى الحق غايةٌ ولا فوق ما قاسيت فيه مزيدُ
تغرَّبتَ عشراً أنت فيهن بائسٌ وأنت بآفاق البلاد شريد
تجوع ببلدان وتَعرَى بغيرها وترزح تحت الداء وهو عتيد
ألا فى سبيل الله والحقّ طارفٌ من المال لم تبخل به وتليد
وَجُودك بعد المال بالنفس صابرا إذا جزع المحضور وهو يجود

***

فلا زلت تمثالا من الحق خالصاً على سِرِّه نبنى العلا ونشيد
يعلِّم نشءَ الحىّ كيف هوى الحمى وكيف يحامى دونه ويذود

حبه وتقديسه للوطن

إن حب شوقى للوطن يتمشى فى معظم قصائده ، مما تراه فى ديوانه ، وقد اقتبسنا طرفا منها ، وله فوق ذلك أبيات بلغ فيها حبه للوطن درجة التقديس والعبادة مما يجعلها تسير مسرى الحكم والأمثال ، على تعاقب السنين والأجيال ، وتبعث فى نفوس المواطنين روح الإخلاص العميق للوطن والفناء فيه .

كقوله سنة ١٩٢٠ بعد عودته إلى مصر من منفاه :

وياوطنى لقيتُك بعد يأسٍ ... كأنى قد لقيتُ بك الشبابا
ولو أنى دُعيتُ(١) لكنتَ دينى ... عليه أقابل الحَتْم المجابا(٢)
أدير إليك قبل البَيْت وجهى ... إذا فُهتُ الشهادةً والمتابا

ففى هذه الأبيات يقدم شوقى الوطن على الدين ويدير وجهه إلى الوطن قبل الكعبة عندما يلقى ربه .

وقوله سنة ١٩٢٤ مخاطباً الشباب :

وَجْهُ الكنانة ليس يُغضب ربَّكم ... أن تجعلوه كوجهه معبودا
ولُّوا إليه فى الدروس وجوهكم ... وإذا فرغتم . فاعبدوه هجودا
إن الذى قَسمَ البلادَ حبا كمو ... بلداً كأوطان النجوم مجيدا
قد كان - والدنيا لُحودٌ كلها - ... للعبقرية والفنون مُهودا

---

(١) أى دعيت إلى الموت .

(٢) الحتم المجاب هو الموت .

وقوله وهو فى منفاه :

وطنى لو شغلتُ بالخلد عنه   نازعتنى إليه فى الخلد نفسى

أى أنه لو شغل عن الوطن بجنة الخلد وسكنها ، لبقيت نفسه تهفو إلى الوطن وتنزع إليه .

وقوله من قصيدته سنة ١٩٢٦ فى نكبة دمشق من الاستعمار الفرنسى :

وللأوطان فى دَم كل حُرٍّ   يدٌ سَلَفَتْ ودينٌ مستحقٌ

وللحرية الحمراء باب   بكل يد مضرَّجةٍ تُدقّ

وقوله :

لاتلوماها أليست حرة   وهوى الأوطان للأحرار دين

وقال سنة ١٩٠٤ :

أحبك مصر من أعماق قلبي   وحبك فى صميم القلب نام

وبلغ حبه لمصر أن جعلها كعبة أشعاره قال :

وإنى لغِرِّيد هذا البطاح   تَغذّى جَناها وسلسالهَا

تَرَى مصرَ كعبةَ أشعاره   وكلٌّ معلقة قالهَا

ثورة سنة ١٩١٩

قال من قصيدة له بعنوان (الحرية الحمراء) يمجد ثورة ١٩١٩ :

يومُ البطولة لو شهدتُ نهارَه   لنظمتُ للأجيال مالم يُنْظَمِ

غُبِنَتْ حقيقتُه وفات جمالُها   باعَ الخيالِ العبقرىّ الملهَمِ

لولا عوادى النفى أو عقبانه والنفىُ حالٌ من عذاب جهنم
لمعتْ ألوانَ الحوادث صورةً[1] مثَلت فيها صـــورة المستسلم
وحكيتُ فيها النيلَ كاظمَ غيظه وحكيتُه متغيِّظاً لم يكظم
دعَت البلادَ إلى الغمار فغامرت وطنيةٌ بمثقف ومعـــلّم
ثارت على الحامى العتيد وأقسمت بسواه جلَّ جلالُه لا تحتمى

***

يومَ النضالِ كسَتْكَ لونَ جمالها حرِّيةٌ صبغتْ أديمك بالدم

تعلقه بالجلاء

ويبدو فى شعره مبلغ تعلقه بالجلاء ، وإيمانه به ، وهذا ولا ريب من فيض الوطنية التى يستلهم منها شعره .

قال فى سنة ١٩٢٤ يخاطب الشباب الذين أفرج عنهم بعد الحكم عليهم فى قضية المؤامرة الكبرى :

لمَّا بنَى اللهُ القضيةَ[2] منهمو قامت على الحقِّ المبينِ عمُودا
جادوا بأيام الشبابِ وأوشكوا يتجاوزون إلى الحياةِ الجودا
طلبوا (الجلاء) على الجهادِ مَثُوبةً لم يطلبوا أجْرَ الجهاد زهيدا
واللهِ : ما دون الجلاءِ ويومِهِ يومٌ تُسمِّيه الكِنانةُ عيدا
وَجد السجينُ يداً تُحطِّمُ قيدَهُ من ذا يُحطِّمُ للبلاد قيوداً ؟

---

(١) يشير إلى أنه كان منفاه حين شبت الثورة .
(٢) يقصد القضية الوطنية .

وحدة وادى النيل

وقال فى يولية سنة ١٩٢٤ عن وحدة وادى النيل من قصيدة له فى استنكار حادث الاعتداء على المرحوم سعد زغلول ونجاته من محاولة اغتياله :

ولن نرضى أن تُقَدَّ القنـــاةُ وُيبْتَرَ من مصر سودانُها
فمصرُ الرياضُ وسودانُها عيون الرياض وخلجانُها
وما هو ماءٌ ولـكنه وريدُ الحيــاة وشِرْيانُها
تتمِّمُ مصرَ ينابيعُــهُ كما تمّمَ العينَ إنسانُهــا
وأهلوه منذ جرى عَــذْبُهُ عشيرةُ مصر وجيرانُهــا

مشروع ملنر

هو مشروع المعاهدة الذى انتهت إليه مفاوضات سعد ـ ملنر سنة ١٩٢٠ ويحمل فى طياته عناصر الحماية ، وكان ممن عارضوه المرحوم الدكتور عبد الحميد أبو هيف ، فلمــا توفى سنة ١٩٢٦ رثاه شوقى فى قصيدة أشار فيها إلى هذه المعارضة وأيدها ، قال :

بالأمس كانت لابن هيف غَضْبَةٌ للحق نذكرها يداً بيضـــاء
مشت البلاد إلى رسالة (ملنر) وتحفزت أرضاً لهــا وسمــاء
فلمحتُ أعرجَ فى زوايا الحق لم أعــلمْ عليـــه ذِمَّــةً عرجاء[1]
ارتدت العاهاتُ عن أخــلاقه لسمّوهنّ وحلّت الأعضـــاء

---

(١) أصيب المرحوم أبو هيف بمرض بترت فيه ساقه وكان يمشى على ساق صناعية .

لما رأى (التقرير) ينفث سمّه   سبق الحواة فأخرج الرقطاء[1]
هتك الحمايةَ والرجال وراءها   يتلمسون لها الستور رياء

تصريح ٢٨ فبراير

وقال عن تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢[2] .

ربحت من (التصريح) أن قيودها   قد صرن من ذهبٍ وكنَّ حديداً
أو ما ترون على (المنابع)[3] عُدَّةً   لا تنجلى وعلى (الضفاف) عديداً
يافتيةَ النيل السعيد خذوا المدى   واستأنفوا نَفَسَ الجهاد مديداً

يدعو إلى التضحية

ويهاجم الاستعمار

قال يدعو إلى الجد والتضحية :

والمرء ليس بصادقٍ فى قوله   حتى يؤيد قولَه بِفعَالِه
والشعب إن رام الحياة كبيرةً   خاضَ الغِمار دما إلى آماله

---

(١) الرقطاء . الحية .

(٢) هو التصريح الذى أعلنته بريطانيا فى ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ وأقرت فيه بانتهاء الحماية على مصر وبالاعتراف باستقلالها واحتفظت فيه بتولى أمور أربعة تعصف بجوهر الاستقلال وهى (١) تأمين مواصلات الإمبراطورية البريطانية فى مصر (٢) الدفاع عن مصر (٣) حماية المصالح الأجنبية فى مصر وحماية الأقليات (٤) السودان .

(٣) منابع النيل بالسودان . وعدة أى جنودا . والضفاف ضفاف قناة السويس .

ومن قصيدته سنة ١٩٢٦ فى نكبة دمشق من الاستعمار الفرنسى :

لَحَاها اللهُ أنباءٌ توالتْ   على سمع الولىّ بما يشُقُّ(١)
يفصّلها إلى الدنيا بريدٌ   ويُجْملها إلى الآفاق بَرْقُ
وللمستعمرين وإن ألانوا   قلوبٌ كالحجارة لا تَرِقُّ
رماك بطيشه ورمى فرنسا   أخو حربٍ به صَلَفٌ وحُمق
إذا ما جاءه طُلاَّب حقٌّ   يقول عصابةٌ خرجوا وشَقُّوا
دمُ الثوار تعرفه فرنسا   وتعلم أنه نورٌ وحقُّ

إلى أن قال :

نصحتُ ونحن مختلفون داراً   ولكن كُلُّنا فى الهمِّ شَرْق
ويجمعنا إذا اختلفت بلادٌ   بيانٌ غيرُ مُختلفٍ ونُطْقُ
وقفتم بين موت أو حياة   فإن رمتم نعيمَ الدهر فاشْقوا
وللأوطان فى دم كل حرٍّ   يدٌ سلفت ودَيْنٌ مستحقّ
ومن يَسقى ويَشْرَبُ بالمنايا   إذا الأحرار لم يُسْقَوا ويَسْقُوا ؟
ولا يبنى الممالكَ كالضحايا   ولا يُدْنِى الحقوق ولا يحقّ
ففى القتلى لأجيالٍ حياةٌ   وفى الأسرى فِدًى لهمُ وعتْقُ
وللحرية الحمراء بابٌ   بكل يدٍ مضرَّجة يُدَقُّ

(١) الولى أى المحب والصديق .

يشفق على الوطن

من قصيدة له فى استقبال عيد الفطر يشفق على مصر ويقول أن لا عيد حتى تتحقق أهدافها .

وطنى أسفتُ عليكَ فى عيد المَلاَ وبكيتُ من وَجْد ومن إشفاق
لا عيدَ لى حتى أراكَ بأمَّةٍ شمَّاء راوية من الأخلاق
ذهب الكرامُ الجامعون لأمرهمْ وبقيت فى خَلَفٍ بغير خلاق[1]
أيظلّ بعضُهم لبعض خاذلا ويقالُ شَعبٌ فى الحضارة راق ؟
وإذا أراد الله إشقاء القُرىَ جعلَ الهداةَ بها دُعاةَ شِقاق

يدعو إلى الأخلاق

إن بيته المشهور عن الأخلاق هو ديوان من الشعر تتجلى فيه الحكمة الأزلية فى أن الأخلاق هى أساس حياة الأمم وسبيلها إلى العظمة والمجد :

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

وقد أكد هذا المعنى الرائع فى غير موضع .

قال :

وإذا أصيب القومُ فى أخلاقهم فأقِمْ عليهم مأتماً وعويلا

وقال :

وما السلاحُ لقومٍ كلُّ عُدَّتهم حتى يكونوا من الأخلاق فى أُهب

(١) الخلاق : النصيب الوافر من الخير .

وقال أيضاً :

على الأخلاق خُطُّوا الملكَ وابنوا فليس وراءها للعز رُكْنُ

وقوله :

المجدُ والشرفُ الرفيعُ صحيفةٌ جُعلت لها الأخلاقُ كالعنوان

وقوله :

وإذا ما أصابَ بُنْيانَ قومٍ وَهْيُ خُلْقٍ فإنه وَهْيُ أُسِّ

وقوله :

كذا الناس بالأخلاق يَبْقَى صلاحُهم ويذهبُ عنهم أمرُهم حين تَذْهَبُ

وقوله :

ولقد يُقام من السيوف وليس مِنْ عَـثَرَاتِ أخلاقِ الشعوب قيامُ

ومن قصيدته (نهج البردة) :

صلاحُ أمْرِكَ للأخـلاق مَرْجِعُـه فقوِّم النفسَ بالأخـلاق تَسْتَقِمِ
والنفسُ من خيرها فى خـير عافية والنفس من شرها فى مرتعٍ وَخِمِ

وقوله :

وكان جنابُهم فيها مَهيبا وَللأَخلاق أجدرُ أن تُهابا

وقال فى هذا المعنى من قصيدة له سنة ١٩٢٠ :

وليس بعامر بنيانُ قومٍ إذا أخـلاقهم كانت خرابا

وقوله :

ولا المصائب إذ يُرمَى الرجالُ بها بقاتلاتٍ إذا الأخلاقُ لم تُصَبِ

يدعو إلى الوحدة الوطنية

من قصيدة له فى رثاء بطرس غالى سنة ١٩١٠ :

الحقُ أبلجُ كالصباح لناظرٍ لو أن قوماً حكَّموا الأحلاما
أعَهِدتَنا والقِبط إلا أمةً للأرض واحدةً تروم مراما
نُعْلِى تعاليم المسيح لأجلهم ويوقِّرون لأجلنا الإسلاما
الدينُ للديَّان جلَّ جلاله لو شاء ربك وحَّدَ الأقواما
ياقوم بانَ الرشدُ فاقْضوا ماجرى وخذوا الحقيقة وانبذوا الأوهاما
هذى ربوعُكُم وتلك ربوعنا متقابلين نعالج الأياما
هذه قبوركم وتلك قبورنا متجاورين جماجماً وعظاما
فبِحرْمة الموتى وواجب حقهم عيشوا كما يقضى الجوارُ كراما

وقال من قصيدة أخرى له فى هذا المعنى سنة ١٩١٠ :

تعالَوْا عسى نطوى الجفاء وعهدَه وننبذ أسباب الشقاق نواحيا
ألم تك (مصرُ) مَهْدَنا ثم لحدنا وبينهما كانت لكلٍ مغانيا
ألم تك من قبل (المسيح بن مريم) و (موسى) و (طه) تبعد النيل جاريا
فهلا تساقَيْنا على حُبه الهوى وهلاّ فديناه ضفافاً وواديا
وما زال منكم أهل ودّ ورحمة وفى المسلمين الخيرُ ما زال باقيا
فلا يَنْكم عن ذمة قتلُ (بطرس) فقِدْماً عرفنا القتل فى الناس فاشيا

القوة فى الاتحاد

صوت الشعوب من الزئير مجمعا   فإذا تفرق كان بعضَ نباح

يستحث الشباب على العلم والجهاد

قال مخاطباً الشباب فى قصيدة نظمها سنة ١٩٢٤ :

يا شباب الغد وأبناى الفدى   لكُمُ أكرِمْ وأعزِزْ بالفداء
هل يمد الله لى العيش عسى   أن أراكم فى الفريق السعداء
وأرى تاجكُم فوق السما   وأرى عرشكُم فوق ذُكاء
من رآكم قال مصر استرجعت   عزها فى عهد (خوفو) و (مناء)
أمة للخلد ما تبنى إذا   ما بنى الناسُ جميعا للعفاء
إنما مصر إليكم وبكم   وحقوق البر أولى بالقضاء
عصركم حر ومستقبلكم   فى يمين الله خير الأمناء
لا تقولوا حطّنا الدهر فما   هو إلاّ من خيال الشعراء
هل علمتم أمةً فى جهلها   ظهرت فى المجد حسناء الرداء
باطن الأمة من ظاهرها   إنما السائل من لون الإناء
فخذوا العلم على أعلامه   واطلبوا الحكمة عند الحكماء
واقرأوا تاريخكم واحتفظوا   بفصيح جاءكم من فصحاء

أنزل الله على ألسنهم   وحْيه فى أعصر الوحى الوضاء
واحكموا الدنيا بسلطان فما   خُلقت نضرتها للضعفاء
واطلبوا المجد على الأرض فإن   هى ضاقت فاطلبوه فى السماء !

يدعو إلى إنكار الذات

وقال مخاطباً الشباب فى قصيدة قالها سنة ١٩٢٤ .

قالوا أتنظم للشباب تحيّة   تبقى على جيد الزمان قصيدا
قلت الشباب أتم عقد مآثر   من أن أزيدهمو الثناء عقودا
قبلت جهودهم البلاد وقبّلتْ   تاجا على هاماتهم معقودا
خرجوا فما مدوا خناجرهم ولا   منّوا على أوطانهم مجهودا
خفى الأساس عن العيون تواضعا   من بعد ما رفع البناء مشيدا

حكمه وعظاته

تنساب فى شعر شوقى الحكم والعظات يخاطب بها مواطنيه ويبصرهم بعبر التاريخ وعظات الحوادث ، مما نذكر طرفاً منه .

جلال الخالدين

قال عن جلال الملوك وأنه إلى زوال ولا يبقى إلا جلال الخلود :

جـلالُ الملك أيامٌ وتمضى   ولا يمضى جـلال الخالدينا

الخلود للعمل الصالح

وقال سنة ١٩٢٣ عن الخلود وأنه للعمل الصالح :

من سَرَّهُ أن لا يموتَ فبالعُلَى   خَـلَدَ الرجال وبالفعال النَّابهِ
ما مات من حاز الثَّرَى آثارَه   واستولت الدنيا على آدابه

قل للمدلّ بمـا له وبجاهه وبما يُحلّ الناسُ من أنسابه
هذا الأديم يَصُدّ عن حُضّاره وينام ملء الجفن عن غُيّابه
إلا فتىً يمشى عليـه مجدّداً ديباجتيـه معمّرا لخرابه

العدل أساس الملك

وقال فى العدل :

والعدل فى الدولاب أسٌ ثابت يُفنى الزمانَ وينقذ الأجيالا

فلسفة الحياة

وقال من قصيدته فى رثاء مصطفى كامل :

دقّاتُ قلب المرء قائلة له إن الحياة دقائق وثوان

ومن قوله فى ذكرى كارنارفون مكتشف كنوز توت عنخ آمون :

فى الموت ما أعيا(١) وفى أسبابه كل امرىء رَهْنٌ بِطَىٍّ كتابه
إن نام عنك فكل طبٍّ نافع أو لم ينم فالطب من أذنابه

إلى أن قال منوهاً بفضل كارنارفون فى اكتشافاته الأثرية :

أفْضَى إلى خَتم الزمان ففَضّهُ وحَبَا إلى التاريخ فى محرابه
وطوى القرونَ القهقرى حتى أتى فرعونَ بين طَعامه وشرابه

(١) ما أعيا ، أى ما أعجز عن إدراك حقيقته . ورهن بطى كتابه ، أى باق فى الحياة حتى ينتهى أجله .

ومن قوله فى العظة والاعتبار حين سقطت أدرنة وكانت من أمهات المدن الإسلامية فى مقدونية وغلبها البلغار سنة ١٩١٢ :

يا أخت أندلس عليك سلامُ   هوت الخلافة عنك والإسلامُ

إلى أن قال يندد بسياسة الترك :

رفعوا على السيفِ البناءَ فلم يدم   ما للبناءِ على السيوف دوام
أبقى الممالكِ ما المعارفُ أُسّه   والعدلُ فيه حائطٌ ودعام
إنْ الغرورَ إذا تملكَ أمــةً   كالزهرِ يُخفى الموتَ وهو زؤام

لاحقّ للضعيف

وقال سنة ١٩٢٣ أثناء انعقاد مؤتمر لوزان مشيراً إلى صلف الإنجليز مع مصر لأنها لم يكن لها من القوة ما تسترد به حقها :

أتعــلم أنهم صلفوا وتاهوا   وصدّوا الباب عنا موصدينا ؟
ولو كنا نجرُّ هناك سيفا   وجدنا عنــدهم عطفاً ولينا
سيقضى (كرزن) بالأمر عنا   وحاجاتُ (الـكنانةِ) ما قضينا

وقال فى هذا المعنى :

ياطَــيرُ والأمثالُ تُضـ   ـرب للبيت الأمثــل
دُنياك من عاداتها   ألا تكــون لأعزل

الحكم للشعوب . لا للمستبدين

قال سنة ١٨٩٤ فى أول قصيدة له فى ديوانه ينبه الملوك إلى قوة الشعوب ويدعوهم إلى النزول على حكمها :

إن ملكتَ النفوس فابغ رضاها فلها ثورةٌ وفيها مضاء
يسكن الوحش للوثوب من الأسـر فكيف الخلائق العقلاء ؟
يحسب الظالمون أن سيسودو ن وأن لن يؤيد الضعفاء
والليالى جوائرٌ مثلما جا روا وللدهر مثلهم أهواء

وقال سنة ١٩٢٢ يبشر بحكم الشعوب وزوال حكم الفرد :

زمان الفرد يا فرعون وَلّى ودالت دولة المتجبرينا
وأصبحت الرعاة بكل أرض على حكم الرعية نازلينا

وقال سنة ١٩٢٣ يندد بالمستبدين :

المستبدّ يُطاق فى ناووسه لا تحت تاجيه وفوق وثابه[1]
والفرد يؤمن شره فى قبره كالسيف نام الشرُّ خلف قِرابه[2]

وقال فى هذا المعنى يخاطب توت عنخ آمون سنة ١٩٢٥ :

قسما بمن يحيى العظـا م ولا أزيدك من يمينْ
لو كان من سفر أيا بك أمس أو فتح مبين
لرأيت جيلا غير جيـلك بالجبابر لا يدين

---

(١) الناووس . القبر . والوثاب : السرير . (٢) قراب السيف : غمده .

ورأيتَ محكومين قــد نصبوا وردّوا الحاكمين[١]
رُوحُ الزمان وَنَظْمُــه وسبيــله فى الآخرين
إن الزمان وأهــله فرغا من الفرد اللعين

فاذا رأيت مشايخا أو فتية لك ساجدين
لاقِ الزمانَ تجــدهمو عن ركبه متخلّفين
هم فى الأواخر مولدا وعقولُهم فى الأولين

الشعب قد يُخْدَع

قال فى مسرحية (مصرع كليوباترة) على لسان (حابى) يخاطب (ديون)[٢] :

إسمَع الشعب ديونُ كيف يُوحون إليه
ملأ الجوَّ هُتافا بحيــاتىْ قاتلَيْه
أَثَّر البهتانُ فيــه وانْطلَى الزُّورُ عليه
يا لَهُ من بَبَّغاء عقــلُه فى أُذُنَيْه

الحياة الدستورية السليمة

قال عن الدستور :

شرُّ الحــكومة أن يساس بواحد فى الملك أقوامٌ عداد رماله

(١) نصبوا وردوا : أى ولوا وعزلوا الحاكمين .
(٢) حابى وديون: من أشخاص الرواية وكلاهما من أمناء مكتبة قصر كليوباترة .

وقال سنة ١٩٢٤ من قصيدة له عن (الأزهر) :

وتَفَيَّأوا الدستور تحتَ ظلالِه كَنَفاً أهشَّ من الرياض وأنضرا
لا تجعلوه هوىً وخُلْفاً بينكم ومَجَرَّ دنْيا للنفوس ومَتْجَرا
اليوم صَرَّحت الأمور فأظهرتْ ما كان من خَدع السياسة مضمرا
قد كان وجْهُ الرأى أن نبقى يداً ونرى وراء جنودها إنجلْترا
فإذا أتتنا بالصفوف كثيرةً جئنا بصفٍّ واحد لن يُكْسَرا

وقال سنة ١٩٢٦ من قصيدة له فى عيد الجهاد :

وبالدستور وهو لنا حياةٌ نرى فيه السلامةَ والفلاحا
أخذناه على المُهج الغَوالى ولم نأخذه نَيْلاً مُسْتَماحا
بَنَيْنا فيه من دَمْعٍ رُواقا ومن دم كلِّ نابتةٍ جَناحا

وقال سنة ١٩٢٧ عن الحياة الدستورية السليمة :

إذا سَلِمَ الدستور هانَ الذى مَضَى وهان من الأحداث ما كان آتيا
الأكل ذنب لليالى لأجله سَدَلْنا عليه صَفْحَنا والتَّناسيا

وقال سنة ١٩٢٦ حينما اجتمع المؤتمر الوطنى يوم ١٩ فبراير من تلك السنة وائتلفت فيه الأحزاب يحيي الدستور لمناسبة عودته بعد توحيد الصفوف :

صَرْحٌ(١) على الوادى المباركِ ضاحى متظاهرُ الأعلام والأوضاحِ
ضافى الجلالة كالعَتيق مفصَّلٌ ساحاتِ فضل فى رِحابِ سَماح

(١) يريد الدستور .

وكأن رَفْرَفَه رواق من ضُحًى   وكأن حائطَه عمود صَبَاحِ
الحقُّ خَلْف جناحٍ استذرى[1] به   ومراشِدُ السلطانِ خَلْفَ جَنَاحِ
هو هيكلُ الحرية القانى ، له   ما لِلهيا كلِ من فِدًى وأَضَاحِ
يُبْنَى كما تُبْنَى الخنادقُ فى الوغى   تحتَ النبالِ وصَوْبِها السَّحَّاحِ
يَنْهارُ الاستبدادُ حَوْلَ عِراصِهِ   مِثْل انهيارِ الشركِ حول (صلاحِ)[2]
ويكبُّ طاغوتُ الأمور لِوَجْهِهِ   متَحَطِّمَ الأصنامِ والأشباحِ

***

هو ما بَنَى الأعْزَالُ بالرَّاحات أو   هو ما بَنَى الشهداء بالأرواحِ
أخَذَتْهُ (مصرُ) بكل يومٍ قاتمٍ   وَرْدِ الكواكب أحمَرَ الإصْباحِ
هَبَّتْ سِماحًا بالحياةِ شَبابُها   والشِّيب بالأرْمَاقِ غيْرُ شِحَاحِ
وَمَشَتْ إلى الخَيْلِ الدوارعِ وانبرَتْ   للظَّافرِ الشاكِى بغير سِلَاحِ
وقفاتُ حقٍّ لم تَقِفْها أمةٌ   إلاَّ انْثَنَتْ آمالُها بِنجاحِ
وإذا الشُّعوبُ بَنَوْا حقيقة مُلْكِهِمْ   جعلوا المآتمَ حائط الأفراحِ

إلى أن قال فى توحيد الصفوف :

بُشرى إلى الوادى تَهُزُّ نَبَاتَهُ   هَزَّ الربيعِ مَنَاكبَ الأدواحِ
تسرى مُلَمَّحَةَ الحُجُول على الرُّبَى   وتَسِيلُ غُرَّتُها بكلِّ بِطَاحِ
التامت الأحزابُ بعد تَصَدُّعٍ   وتصافت الأقلامُ بعد تَلَاحِ

(١) استذرى : استظلّ .

(٢) صلاح : اسم لمكة .

سُحِبَتْ على الأحقاد أذيالُ الهوى ومَشى على الضغْن الودادُ الماحى
وجرَتْ أحاديثُ العتاب كأنها سَمَرٌ على الأوتاد والأقداح
ترْمى بطرْفِكَ فى المجامع لاترى غيرَ التعانُق واشتباك الراح

إلى أن قال يصف تعطيل الدستور عام ١٩٢٥ :

احتَلَّ حِصن الحق غيرُ جنوده وتكالَبتْ أيدٍ على المفتاح
ضَجَّت عل أبطالها ثُكناته واستوحَشت لِكُماتها النزّاح
هُجِرَت أرائكُه وعُطِّلَ عُودُه وخلا من الغادين والرواح
وعلاهُ نَسْجُ العنكبوت فزاده كالغارِ من شرفٍ وسمتِ صلاح

وقال ينصح الشباب :

قُلْ للبنين مقال صدق واقتصد ذرعُ الشباب يضيقُ بالنصّاح
أنتمْ بنو اليوم العصيبِ نشأتمو فى قصف أنواءٍ وعصف رِياح
ورأيتمو الوطَنَ المؤلف صخرةً فى الحادثات وسَيْلها المجتاحِ
وشهدتمو صَدْعَ الصفوفِ وما جَنَى من أمر مُفْتِناتٍ ونَهىٍ وَقاح
صوتُ الشعوب من الزئير مجمَّعاً فإذا تفَرَّق كان بعضَ نُباح
أظمتكمو الأيامُ ثم سقتكمو رَنَقاً من الإحسانِ غيرَ قَراح
وإذا مُنِحتَ الخيرَ من مُتكلِّفٍ طهَرتْ عليه سجيَّةُ المناح
تركتكُمو مثلَ المَهيضِ جناحُه لافى الحبال ولا طريقُ سَراح
مَنْ صَيَّرَ الأغلالَ زُهْرَ قلائدٍ وكسا القيودَ محاسنَ الأوضاح
إن التى تبغونَ دون منالها طولُ اجتهادٍ واضطرادُ كِفاح

سيروا إليها بالأناةِ طويلةً   إن الأناةَ سبيلُ كل فلاح
وخذوا بناء المُلكِ عن دُستوركم   إن الشِّرَاعَ مُثقِّفُ الملاَّح

ومن قصيدة له سنة ١٩٢٦ حين اجتمع برلمان الائتلاف :

الحق أبلجُ والكنانة حُرَّةٌ   والعزُّ للدستور والإكبارُ
الأمر شورى لايعيثُ مسلَّط   فيه ولا يطغَى به جبَّار
عهدٌ من الشورى الظليلة نُضِّرت   آصاله واخضلَّت الأسحار
تجنى البلاد بها ثمارَ جهودها   ولكل جهد فى الحياةِ ثمار
بنيان آباء مشوا بسلاحهم   وبنين لم يجدوا السلاح فثاروا
فيه من التل المدرَّج حائطٌ   ومن المشانق والسجون جدار
أبت التقيد بالهوى وتقيدت   بالحق أو بالواجب الأحرار
فى مجلس لا مالُ مصر غنيمة   فيه ولا سلطانُ مصر صَغَار
ما للرجال سوى المراشد منهجٌ   فيه ولا غير الصلاح شعار
يتعاونون كأهل دارٍ زلزلت   حتى تقر وتطمئن الدار
يجرون بالرفق الأمور وفلكها   والريح دون الفلك والإعصارُ
ومع المجدّد بالأناة سلامةٌ   ومع المجدّد بالجماح عِثارُ

يدعو إلى انتخاب الأكفاء الشرفاء

ومن قصيدة له سنة ١٩٢٢ قال فى مطلعها :

أعدَّت الراحةُ الكبرى لمن تَعبا   وفاز بالحق من لم يَأْلُهُ طلبا

إلى أن قال مشيراً إلى الانتخابات البرلمانية :

دارُ النيابة قد صُفَّتْ أرائكُها لا تُجلسوا فوقها الأحجار والخشبا
اليومَ يا قَوْمُ إذْ تبنون مجْلِسكم تبنون للعَقِبِ الأيامَ والحقبا

ومن قصيدته سنة ١٩٢٤ عن (الأزهر) :

دار النيابة هَيِّئَت درجاتُها فلْيَرْقَ فى الدَّرج النوائبُ والذُّرَا
الصارخون إذا أسىء إلى الحِمَى والذَّائدون إذا أغِيرَ على الشَّرَى
لا الجاهلون العاجزون ولا الأُلى يمشون فى ذَهَب القيود تَبَخْتُرا

رُوَّاد الوطنية

قال سنة ١٩٢٥ من قصيدة له فى رثاء المرحوم عبد اللطيف الصوفانى :

ألستَ من فئة سهامٍ سَنُّوا المحاماة والرِّماء
فتَاهُم بالشباب ضحَّى ما أعظم الذِّبحَ والفداء
ومات أبطالهم جياعا فى غير أوطانهم ظماء
ولو أرادوا متاع دنيا لأدركوا الحكم والثراء
قضيةُ الحق منذ قامت لم تألُ أركانَها بناء
تحذو على مصطفى وتبنى جيلا من الحق أقوياء
شرعتمو للشباب دِينا كدينهم بيِّناً سواء
لما أتيتم به جعلتم رأسَ تعاليمه (الجلاء)
جمعتمُ مصر ثم سرتم فكنتم الجمع واللواء .

وما عرفتم لغير مصر وغير أحبابها ولاء
لم تمسحوا للعميد رأسا ولا نفضتم له حذاء

وقال من قصيدة يرثى فيها المرحوم أمين الرافعى :

قيل غالٍ فى الرأى قلتُ هَبُوه قد يكون الغلوّ رأيا أصيلا
وقديما بنى الغلوّ نفوسا وقديما بنى الغلوّ عقولا
قد فقدنا به بقيَّة رَهْطٍ أيقظوا النيل واديا ونزيلا
حرَّكوه وكان بالأمس كالكهف حزونا وكالرقيم سهولا
يا أمين الحقوق أدَّيت حتى لم تَخُنْ مصرَ فى الحقوق فتيلا
ولو اسْطَعْتَ زدتَ مصر من الحقّ على نيلها المبارك نيلا
لستُ أنساك قابعا بين درجيك مكبًّا عليهما مشغولا
قد تواريت فى الخشوع فخالوك ضئيلا وما خلقتَ ضئيلا
سائل(الشعب)عنك(العَلَم) الخفاق أو سائل (اللواء) الظليلا
تُنشِد الناسَ فى (القضية) لحناً كالحواريّ رتّل الإنجيلا
ماضيا فى الجهاد لم تتأخر تَزِن الصفَّ أو تقيم الرَّعيلا
ما تبالى مضيتَ وحدك تحمى حَوْذَةَ الحق أم مضيتَ قبيلا

يدعو إلى النهضة الاقتصادية

قال سنة ١٩٢٠ من قصيدة له فى الاحتفال بإنشاء بنك مصر يدعو إلى الاكتتاب فى رأس مال البنك وينوه بفضل المال فى نهضة الأمم :

قف بالممالك وانظر دولة المال واذكر رجالا أدالوها بإجمال

إلى أن قال :

يا طالبا لمعــالى الملك مجتهــداً   خذها من العلم أو خذها من المال
بالعلم والمال يبنى الناس ملـكهم   لم يُبنُ ملكٌ على جهل وإقلال

سراة مصر عهدنا كم إذا بُسطت   يد الدعاء سراعا غــير بُخّال
تبين الصدق من بين الأمور لـكم   فامضوا إلى الماء لا تلووا على الآل
لا يذهب الدهر بين الترهات بكم   وبين زهر من الأحــلام قتال
هاتوا الرجال وهاتوا المال واحتشدوا   رأيا لرأى ومثقــالا بمثقال
هذا هو الحجر الدرىّ بينـكمو   فابنوا بناء قريش بيتها العــالى
آمال مصر إليها عالمـا طمحت   هــل تبخلون على مصر بآمال
فابنوا على بركات الله واغتنموا   ما هيأ الله من حظٍّ وإقبال

وقال فى قصيدة أخرى :

الملك بالمــال والرجال   لم يُبن ملك بغــير مال

يحيي النهضة النسوية

كان مؤيداً ونصيراً لنهضة المرأة ، ألقى هذه القصيدة سنة ١٩٢٤ فى جمع حافل من السيدات المصريات بمسرح حديقة الأزبكية ، وجعل عنوانها فى ديوانه (مصر تجدد مجدها بنسائها المتجددات) قال :

قُم حَيِّ هــذى النيِّراتِ   حيِّ الحسَانَ الخـيِّرات
واخفِضْ جبينك هَيبــةً   للخُــرَّد المتخفّرات(١)

(١) الخرد : العذارى ، والمتخفرات : المستحييات ، والخفر هو الحياء .

زَيْن المقاصرِ والحجَا ل وزيْن محرَاب الصلاة
هـذا مَقَامُ الأُمَّهَا تِ فهل قَدَرتَ الأُمهات ؟
لا تلغُ(١) فيه ولا تَقُلْ غـير الفَواصِلِ محكَمَات
وإذا خطبتَ فلا تـكن خطْباً على مِصرَ الفتاة
اذكرْ لهـا اليابانَ لا أُمَمَ الهوى المتهتِّـكات
ماذا لقيتَ من الحَضا رة يا أُخيَّ التُرَّهات
لم تُلقَ غير الرق من عُسرٍ على الشرقى عاتِ

***

خُـذْ بالكِتاب وبالحَدِيـ ثَ سيرة السلَف الثِقَاة
وارجع إلى سُنن الخليـ قة واتَّبِعْ نُظُمَ الحياة
هـذا رسـولُ الله لم يُنقِصْ حُقُوقَ المؤمنات
العـلمْ كان شريعةً لنسـائه المُتَفقِّهـات
رُضْنَ التجارة والسـيا سةَ والشؤونَ الأُخريات
ولقـد علمتَ بنـاته لُجحُ العـلوم الزاخرات
كانت سكينةُ(٢) تملأُ الـ دنيـا وتهـزأُ بالرواة
روت الحديثَ وفسرتْ آى الـكتاب البينات
وحضارةُ الإسـلام تنـ طقُ عن مكان المسلمات
بغـدادُ دار العالمـا ت ومنزلُ المتأدبات

(١) لاتلغ : لا تقل باطلا .
(٢) سكينة : بنت الحسين رضى الله عنهما .

ودِمشقُ تحت أميـــةٍ أمّ الجوارى(١) النابغاتِ
ورياضُ أندلسٍ نَمَيْـ ـنَ الهاتفاتِ الشاعرات
أدْعُ الرجالَ لينظُروا كيف اتحاد الغـانيات
والنَفْع كيف أخذْنَ فى أســبابه متعاونات
لمـــا رأيْنَ ندى الرِّجا لِ تفاخُراً أو حُبَّ ذات
ورأيْنَ عِنْدَهُمو الصناَ ئِعَ والفُنُونَ مُضيَّعاتِ
والبر عندَ الأغنيــا ءِ من الشؤون المُهْمَلاَتِ

أقبلن يَبْنِينَ المَآ ثِرَ للنجاح مُوَفَّقَاتِ
للصالحاتِ عقائلِ الـ ـوَادِى هوىً فى الصالحات
الله أنبتهنَّ فى طاعاته خَيرَ النَّباتِ
فأتين أطيبَ ما أتى زَهَرُ المناقِبِ والصفاَتِ
لم يكبِ أنْ أحْسَنَّ حـ ـتى زِدْنَ حضَّ المحسنات
يمشِينَ فى سُوقِ الثوا بِ مُساوِماتِ رابحاتِ
يَلْبَسْنَ ذُلَّ السائلا تِ وما ذكَرْنَ البائسات
فوجُوهُهُنَّ وماؤُها سِتْرٌ على المُتَجَمِّلاَتِ
مصرُ تُجدِّدُ مَجْدَها بنسائِهاَ المتَجدِّدَاتِ

النافراتِ مِنْ الُجمُو دِ كأنه شَبَحُ المَمَاتِ
هل بَيْنَهُنَّ جوَامِداً فَرْقٌ وبينَ المُومياَتِ
لمـا حضَنَّ لنـا القضـ ـيةَ كُنَّ خيرَ الحاضِناَتِ

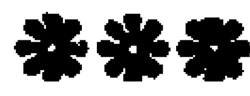
---
(١) الفتيات .

غَذَّيْنَهَا في مَهْدِهَا بِلِبَانِهِنَّ الطاهراتِ
وسبَقْنَ فيها المُعْلَمِيـنَ إلى الكَرِيهَةِ مُعْلَمَاتِ (١)
يَنْفُثْنَ في الفِتْيَانِ من رُوحِ الشجاعة والثباتِ
يَهْوَيْنَ تقبيلَ المُهَنَّـدِ أو مُعَانَقَةَ القناة
ويَرَيْنَ حتى في الكَرَى قُبَلَ الرِّجَالِ مُحَرَّماتِ

يحي الصحافة

قال سنة ١٩٢٠ من قصيدة له في احتفال أقامته نقابة الصحفيين :

لكل زمان مضى آيةٌ وآية هـذا الزمان الصُّحُفْ
لسان البلاد ونبض العباد وكهف الحقوق وحرب الجَنَفْ (٢)
تسير مسير الضحى في البلاد إذا العلم مزَّق فيها السَّدف
وتمشي تعلِّم في أمَّةٍ كثيرةِ من لا يخطُّ الألف



فيا فتية الصحف صبراً إذا نبا الرزقُ فيها بكم واختلف
فإن السعادة غيرُ الظهور وغير الثراء وغير التَّرَف
ولكنها في نواحي الضمير إذا هو باللؤم لم يكتنف
ورُوموا النبوغَ فمن ناله تلقى من الحظ أسنى التحف

...

(١) المعلمون : بفتح اللام : الفرسان لهم علامة في الحرب لبطولتهم .
(٢) الجور والظلم .

حمدنا بلاءكمُ فى النضال وأمس حمدنا بلاء السلف
ومن نسى الفضل للسابقين فما عرف الفضل فيما عرف
أليس إليهم صلاحُ البناء إذا ما الأساس سَما بالغُرَف

يندد بمن يخذل الوطنية

فى سنة ١٩٠٤ خطب مصطفى رياض باشا فى حفلة تأسيس مدرسة محمد على الصناعية بالإسكندرية خطبة امتدح فيها اللورد كرومر كما امتدح الاحتلال البريطانى .

وقد أثارت هذه الخطبة سخط الرأى العام واستنكرها المواطنون ، وكان شوقى صوت الشعر الناطق باستنكار الخطبة وصاحبها ، قال :

كبيرَ السابقين من الكرام برغْمى أن أنالك بالملام
مقامك فوق مازعموا ولكن رأيت الحق فوقك والمقام

إلى أن قال :

غمرتَ القوم (١) إطراءً وحمداً وهم غمروك بالنعم الجسام
رأوا بالامس أنفَك فى الثريا فكيف اليوم أصبح فى الرَّغام
خطبتَ فكنت خطباً لاخطيبا أضيف إلى مصائبنا العظام
لهجت بالاحتلال وما أتاه وجرحك منه لو أحسست دام
وهل تركت لك السبعون عقلا لعرفان الحلال من الحرام ؟

---

(١) يريد المحتلين .

يندد بقاضى دنشواى

كان أحمد فتحى زغلول أحد قضاة محكمة دنشواى الذين أصدروا ذلك بالمحتفل به والحكم الجائر فى تلك المأساة سنة ١٩٠٦ ، وقد رقى بعد ذلك وكيلا لوزارة الحقانية (العدل) وأقيمت له حفلة تكريم فى فندق شبرد دعى إليها شوقى فرفض الدعوة وأرسل فى ظرف مغلق هذه الأبيات التى عبر فيها أبلغ تعبير عن تنديده بالمحتفل به وبالمحتفلين :

إذا ماجمعتم أمركم وهممتمو بتقديم شيء للوكيل ثمين
خذوا حبل مشنوق بغير جريرة وسروال مجلود وقيد سجين
ولا تعرضوا شعرى عليه فحسبه من الشعر حكم خطّه بيمين
ولا تقرأوه فى «شبرد» بل اقرأوا على ملأ فى دنشواى حزين

الحنين إلى الوطن

زاد حب شوقى للوطن وتعلقه به فى منفاه بالأندلس ، وقد كان نفيه بأمر السلطة العسكرية البريطانية خلال الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٥ ، وبقى فى منفاه بعيداً عن الوطن نحو خمسة أعوام إلا قليلا ، فازداد شعوراً بلوعة الحزن على فراقه ، واستثار النفى الوطنية الكامنة فى نفسه ، وأججت الغربة نارها ، فانطلق يشدو بالحنين إلى الوطن .

حسبك منه سينيته الأندلسية ، تلك القصيدة الخالدة التى نظمها سنة ١٩١٩ يعارض فيها سينية البحترى ، قال فى مطلعها :

اختلافُ النهار والليل يُنسِى أذكرا لى الصِّبا وأيامَ أنسى

وسَلَا (مصرَ) هل سلا القلبُ عنها أو أسا جُرحَهُ الزمانُ المؤسِّى
كلما مرّت الليالى عليه رَقّ والعهدُ فى الليالى تقَسِّى

إلى أن قال :

ياابنةَ اليمّ(١) ماأبوكِ بخيلٌ ماله مولعاً بمنعٍ وحبس
أحرامٌ على بلابله الدَوْ حُ حلالٌ للطير من كل جنس ؟
كلُّ دار أحقّ بالأهل إلاّ فى خبيثٍ من المذاهب رِجْس(٢)
نفَسى مِرْجَلٌ وقلبي شِراعٌ بهما فى الدموع سيرى وأرسِى
واجعلى وجهك (الفنَار) ومجرا كِ يدَ(الثغر)بين(رمل)و (مكْس)
وطنى لو شُغِلتُ بالخُلد عنه نازعتنى إليه فى الخلد نفسى
شهِد اللهُ لم يغبِ عن جفونى شخصُهُ ساعةً ولم يَخْلُ حِسّى

والقصيدة من أروع مانظم شوقى

وله فى هذا المعنى قصيدة أخرى رائعة نظمها فى منفاه يعارض فيها نونية ابن زيدون .

قال :

يانائحَ (الطّلْح) أشباهٌ عوَادِينا نَشْجَى لواديك أم نَأسَى لوادينا(٣)؟

(١) يقصد السفينة .

(٢) يقصد مذهب الاستعمار الذى يضطهد الوطنيين و ينفيهم و يمنعهم من التعبير عن آرائهم والإعراب عن آمالهم .

(٣) الطلح واد بالأندلس ، بضاحية أشبيلية ، يخاطب حمام هذا الوادى ويتمثله شبيها به فى لوعته وغربته ، وعوادينا أى عوادى الدهر ومصائبه .

ماذا تقصُّ علينا غيرَ أن يداً قصَّتْ جناحك جالت فى حواشينا ؟
رمى بنا البين(١) أيْكاً غيْر سامِرنا أخا الغريب ، وظلاً غير نادينا
ثم انتقل من خطاب الطائر الحزين إلى بكاء الأندلس قال :
آهاً لنا ! نازِحَيْ أيْكٍ بأندلس وإن حلَلْنا رفيفاً من روابينا(٢)
رسمٌ وقفنا على رسم الوفاء له نجيش بالدمع والإجلالُ يَثنينا
إلى أن قال فى الحنين إلى مصر :
لكنَّ (مصرَ) وإن أغضتْ على مِقَةٍ(٣)
عينٌ من الخُلدِ بالكافور تَسقينا
على جوانبها رفَّت تمائمنا
وحول حافاتها قامت رواقينا(٤)
ملاعِبٌ مَرِحَتْ فيها مآرِبُنا
وأربُعٌ أنِستْ فيها أمانينا
ومطلَعٌ لِسعودٍ من أواخرِنا
ومغْرِبٌ لجدودٍ من أوالينا
بِنَّا(٥) فلم نَخْلُ من رَوْحٍ يُرَاوِحُنا
من برِّ مصرَ وريْحانٍ يُغادينا

(١) البين : البعد ، والأيك : الشجر الكثير الملتف .
(٢) الرفيف : الخصيب .
(٣) المقة : المحبة .
(٤) الرواقى : جمع راقية وهى مايرقى به الصبى درءاً للسحر .
(٥) بنا : أى بعدنا .

كأمِّ موسَى علـى اسمِ الله تـكفُلنا
وباسمه ذهبتْ فى اليَمِّ تُلقِينا(١)
ومصر كالـكَرْمِ ذى الاحسان فاكهةٌ
لحـاضرين وأكوابُ لبَادينـا

...

يا ساريَ البرق يَرمى عن جوانحنا بعد الهدوء ويَهْمِى عن مآقينا
لمـا ترقرق فى دمع السماء دماً هاج البكا فخضَبْنا الأرض باكينا

إلى أن قال يخاطب مواطنيه :

إلى الذين وجدنا وُدَّ غيرِهم دنْياً وودَّهمو الصافى هو الدِّينا
يا من نَغَار عليهم من ضمائرنا ومن مَصُون هواهم فى تَناَجينا
ناب الَحنِينُ إليكم فى خواطرنا فى النائبات فلم يأخذ بأيْدِينا

إلى أن قال يشيد فى منفاه بعظمة مصر :

لم تنزل الشمسُ ميزاناً ولا صعدت فى ملـكِها الضخم عرشاً مثل وادينا
ألم تُؤلّهْ على حافاَتِه ورأتْ عليه آباءها الغُرَّ الميامينا ؟
وهذه الأرض من سَهْلٍ ومن جبلٍ قبل (القياصرِ) دِنَّاهاَ (فراعينا)
ولم يضَع حَجَراً بانٍ على حجرٍ فى الأرض إلاَّ على آثار بانينا
كأن (أهرامَ) مصرٍ حائطٌ نهَضَتْ به يدُ الدهر لا بنيانُ فانينا

---

(١) شبه مصر حين اضطرت إلى نفيه بأم موسى عليه السلام حين ألقته فى اليم صبيا وسألت اللهأن يكفله .

إلى أن قال فى تحية مصر وتشوقه إليها من منفاه :

أرض الأبوةِ والميـــلاد طيبها   مَرُّ الصِّبا فى ذيولٍ من تصابينا
كانت محجّلةً فيها مواقِفُنا   غُرًّا مُسَلْسَلَةَ المَجْرى قوافينا
فآب من كُرَةِ الأيامِ لاعِبُنا   وثابَ من سِنَة الأحلام لاهِينا
ولم نَدَعْ لليالى صافيا فَدَعَتْ   بأن نَغصَّ فقال الدهر آمينا
لو استطعنا لَخضْنا الجوّ صاعقةً   والبرَّ نارَ وغًى والبحر غِسْلينا(١)
سَعْياً إلى مصر نقضى حقَّ ذاكرنا   فيها إذا نسى الوافى وباكينا

وقال يذكر والدته بحلوان وقد توفيت قبيل عودته :

كنزٌ (بحلوان) عند الله نطلبه   خيرَ الودائع من خير المؤدينا
لو غاب كل عزيز عنه غيبتنا   لم يأته الشوق إلاَّ من نواحينا
إذا حَمَلْنا لمصرٍ أوله شجنا   لم ندر أى هوى الأُمّين شاجينا

وقال أيضاً سنة ١٩١٧ فى منفاه يهتف بمصر وساكنيها :

يا ساكنى مِصْرَ إنَّا لا نزال على   عهد الوفاء وإن غبنا مقيمينا
هلاّ بعثتم لنا من ماء نيلكم   شيئاً نبل به أحشاء صادينا(٢)
كل المناهل بعد النيل آسنة   ما أبعد النيل إلاَّ عن أمانينا

وقد بعث شوقى بهذه الأبيات إلى صديقه وصنوه حافظ إبراهيم فأجابه حافظ بالأبيات الآتية :

عجبت للنيـــل يدرى أن بلبله   صادٍ ويسقى رُباَ مصر ويسقينا

---

(١) الغسلين : الصديد .
(٢) الصادى : الظمآن .

تالله ما طاب للأصحاب مورده ولا ارتضوا بعدكم من عيشهم لينا
لم تنأ عنه وإن فارقت شاطئه وقد نأينا وإن كنا مقيمينا

يشيد بعظمة مصر

لقد ملك حب مصر مشاعره فكان يتغنى بعظمتها ويشيد بمفاخرها ، وتفيض قصائده بهذا المعنى السامى .

قال فى تحية مصر والنيل والهرم من قصيدة نظمها سنة ١٩١٤ يحيى بها الطائرين العثمانيين سالم وكمال حين قدومهما إلى مصر على متن طائرتهما عن طريق العريش وسيناء :

يا راكب الريح حىِّ النيل والهرَما وعظّم السفحَ من سيناء والحرما
وقِفْ على أثرٍ مرّ الزمانُ به فكانَ أثبتَ من أطوادِهِ قِمما
واخفِض جناحَكَ فى الأرضِ التى حملت
موسى رضيعاً وعيسى الطهرِ مُنفطِما
وأخرجَتْ حكمةَ الأجيالِ خالدةً وبيَّنتْ للعبادِ السيفَ والقلما
هذا فضاء تُلمُّ الريح خاشعةً به ويمشى عليه الدهر مُحتشِما

وقال من قصيدة له فى أبى الهول :

أبَا الهوْلِ طالَ عليكَ العُصُرْ وبلِّغتَ فى الأرض أقصى العمرْ
فيالِدَةَ الدَّهرِ (١) لا الدَّهر شبَّ ولا أنت جاوزت حَدَّ الصِّغَر
إلامَ ركوبكَ مَتْنَ الرما لِ لِطَيِّ الأصيل وجَوْب السَّحَرْ

(١) أى يا أخا الدهر وقرينه تكأنه والدهر توأمان .

تُســافر منتقــلا فى القــرو ن فأين تُلقى غُبــار الســفر ؟
أبينْكَ عَهْــدٌ وبين الجبـــا لِ تزولان فى المَوْعِد المنتظَر [١] ؟
أبا الهــول أنتَ نديم الزما نِ نجىُّ الأوان سمير العُصُر
ظليــلَ الحضارة فى الأوَّلِيـ نَ رَفيعَ البناء جليلَ الأثر

وختمها بقوله :

تحرَّكْ أبا الهَول هـذا الزما ن تحركَ ما فيه حتى الحجر

وقال عن الأهرام من قصيدة له سنة ١٩٢٢ :

قِفْ ناجِ أهـرامَ الجـلال ونادِ هل من بُناتك مجلس أو نادٍ
نشـكو ونفزع فيـه بين عيونهم إن الأُبوَّة مفزع الأولاد
ونبثُّهم عبثَ الهــوى بتراثهم من كلِّ مُلْقٍ للهوى بقيـاد
ونبين كيف تفرقَ الأخوانُ فى وقت البَــلاء تفرقَ الأضداد [٢]
إن المغالط فى الحقيقة نفسَه باغٍ على النفس الضعيفة عادِ

* * *

قل للأعاحيب الثــلاث [٣] مقالة من هاتف بمكانهن وشــاد
لله أنت فمــا رأيتُ على الصفا هـذا الجلال ولا على الأوتاد

---

(١) يوم القيامة .
(٢) يشير إلى الانقسام الذى حدث سنة ١٩٢١ بين سعد وعدلى وأنصارهما وتصدعت بسببه الوحدة الوطنية .
(٣) يريد الأهرام الثلاثة .

لك كالمعابد رَوعةٌ قدسية وعليك روحانية العبّاد
أُسّستِ من أحلامهم بقواعد ورفِعتِ من أخلاقِهم بعماد
قمْ قبِّل الأحجار والأيدى التى أخذت لها عهداً من الآباد
وخذ النبوغ من الكنانة إنها مهد الشموس ومسقط الآراد(١)

وقال يشيد بعظمة الأهرام من قصيدته (على قبر نابليون) :

قم إلى الأهرام واخشعْ واطرِحْ خيلة الصيّد(٢) وزهوَ الفاتحينْ
وتمهلّ إنما تمشى إلى حَرَم الدهر ومحرابِ القرون
هو كالصخرة عند القبط أو كالحطيم الطُّهر عند المسلمين
وتسنَّمْ منبراً من حَجَرٍ لم يكن قبلك حظَّ الخاطبين
وادع أجيالا تولت يسمعوا لك وابعث فى الأوالى حاشرين
وأعدها كلمات أربعاً(٣) قد أحاطت بالقرون الأربعين
قد عرضت الدهر والجيشَ معاً غاية قصَّر عنها الفاتحون
عِظَةٌ قومى بها أولى وإن بَعدَ العهد فهل يعتبرون ؟

قصر أنس الوجود

وقال سنة ١٩١٠ عن قصر (أنس الوجود) بأسوان وكيف يغمره النيل وقت الفيضان ، من قصيدة يخاطب فيها الكولونل تيودور روزفلت رئيس

---

(١) الآراد جمع رأد . يريد رأد الضحى : وقت ارتفاع الشمس .
(٢) الملوك .
(٣) يشير إلى الكلمة التى قالها نابليون لجنوده قبيل معركة الأهرام سنة ١٧٩٨ يستحثهم على القتال : « إن أربعين قرنا تنظر إليكم من فوق قمم هذه الأهرام »

الولايات المتحدة الأسبق ، وكان قد ألقى خطبة ينتقص فيها من قدر المصريين فرد عليه شوقى بهذه القصيدة :

أيّها المُنْتَحِي (بأسوانَ) داراً — كالثّريّا تريد أن تنقضّا
اخلع النعلَ واخفض الطرفَ واخشعْ — لا تحاول من آيةِ الدّهرِ غَضّا
قفْ بتلك (القصورِ) فى اليمّ غرْقَى — مُمسِكاً بعضها من الذُّعر بعضا
كعذارى أخفَيْنَ فى الماءِ بَضّا — سابحاتٍ به وأبدينَ بَضّا
مشرفاتٍ على الزوالِ وكانتْ — مشرفاتٍ على الكواكبِ نَهْضا
شابَ من حولها الزمانُ وشابتْ — وشباب الفنونِ ما زال غَضّا
صَنعةٌ تدهِش العقولَ وفنٌّ — كان إتقانه على القوم فَرْضا
ياقصوراً نظرتُها وهى تَقْضى(١) — فسكبت الدموعَ والحقُّ يُقضَى
أنتِ سطرٌ ومجد مصرَ كتابٌ — كيف سامَ البِلى كتابَك فَضّا
وأنا المُحْتَفى بتاريخ مصر — مَن يَصُنْ مجدَ قومهِ صانَ عِرْضا

وقال فى يناير سنة ١٩٢٣ بعد اكتشاف كنوز توت عنخ آمون يذكر عظمة مصر الخالدة :

قفى يا أخت (يوشع(٢)) خبرينا — أحاديث القرون الغابرينا
فمثلك من روى الأخبار طرا — ومن نسب القبائل أجمعينا

إلى أن قال يشيد بحضارة قدماء المصريين وكيف بلغوا الشأو العظيم من المجد :

(١) تقضى : أى تفنى .
(٢) الخطاب للشمس .

مشتْ بمنارهم فى الأرض (روما) ومن أنوارهم قَبست (أثينا)
ملوكُ الدهر بالوادى أقاموا عَلَى (وادى الملوك) مُحَجَّبينا
تعالى الله كان السحر فيهم أليسوا للحجارةِ مُنْطِقينا ؟
غَدوا يبنون ما يبْقى وراحوا وراء الآبداتِ مُخـلَّدينا
إذا عَمـدوا لمأثرةٍ أعـدُّوا لهـا الإتقانَ والخلق المتينا
وليس الخـلد مرتبـةً تلقَّى وتُؤْخذ من شفاه الجاهلينا
ولـكن مُنتَهى هِمَمٍ كبار إذا ذهبتْ مصادِرُها بقينا
وسرُّ العبقرية حين يسرى فينتظم الصـنائع والفنونا
وآثارُ الرجال إذا تناهتْ إلى التاريخ خـير الحاكمينا
وأخذُك من فم الدنيا ثناء وتركُكَ فى مسامعها طنينا

وقال مخاطباً توت عنخ آمون :

ســلامُ يوم وارتك المنايا بواديها ويومَ ظهـرتَ فينا
خرجت من القبور خروج عيسى عليـك جـلالةٌ فى العالمينا

ومن قصيدة أخرى له عن توت عنخ آمون وقد تخيله قد بعث بعد أربعين قرنا ورأى الاحتلال جاثما على صدر البلاد فحزن لما رآه وآثر العودة إلى قبره ؛ والقصيدة من أروع ما جادت به قريحة شوقى فى الإشادة بأمجاد مصر وفى المعانى الوطنية ، قال فى مطلعها مخاطبا توت عنخ آمون :

قمْ سابق (الساعة) واسبق وعْدَها الأرضُ ضاقت عنكَ فاصدعْ غِمدها
واملأْ رماحا غورَها ونَجْدَها وافتح أصول النيل واستردَّها

شلَّالَهـا وعذْبَها وعِدَّها[١] واصرف إلينا جزْرها ومدها

إلى أن قال :

سافرَ أربعين قرنا عدَّها حتى أتى الدارَ فألْفَى عندها

انجلترا وجيشها ولوردَها مسْلُولة الهندىِّ تحمى (هِنْدَها)[٢]

قامت على (السودان) تبنى سدَّها وركَّزت دون (القناة) بَنْدَها[٣]

* * *

فقال والحسرةُ ما أشـدَّها ليتَ جدار القَبْر ما تَدَهْدَها[٤]

وليتَ عينى لم تفارق رَقْدَها قُمْ نَبِّنِى يا (بنتئور)[٥] مادَها

* * *

مصرُ الفتاةُ بلَغَت أشدَّها وأثبتَ الدم الزكىُّ رُشْدَهاَ

ولعبتْ على الحبال وَحْدَهاَ وجَرَّبتْ إرخاءها وشَدَّها

* * *

يا ربٌّ قوِّ يدَها وشدَّها وافتحْ لها السُّبْلَ ولا تسدَّها

وقِسْ لـكل خطوة ما بعْدَها وعن صغيرات الأمور حُدَّها

واصرف إلى جد الشؤون جدَّها ولا تضع على الضحايا جهدها

واكبحْ هوى الأنفس واكسر حقدها واجمعْ على الأمِّ الرؤوم ولْدَها

(١) العد : الماء الجارى .

(٢) الهندى : السيف ، وهنداها أى الهند .

(٣) البند : العلم .

(٤) تدهده : انقض .

(٥) بنتئور : شاعر مصرى قديم .

وادى الملوك

وقال سنة ١٩٢٥ فى هذا المعنى يذكر توت عنخ آمون وحضارة عصره بعد أن اكتشفت كنوزه فى (وادى الملوك) :

درجتْ على (الكنز) القرونْ وأتت على الدَّنّ(١) السنون
يا ابن الثواقب من (رعٍ) وابن الزواهر من (أمون(٢))
نسبٌ عريق فى الضحى بذَّ القبائل والبطون
أرأيت كيف يثوب من غَمْر القضاء المغرَقون
وتدول آثار القرو ن على رحى الزمن الطحون
حبُّ الخلود بنى لكم خُلُقاً به تتفردون
لم يأخذ المتقدمو ن به ولا المتأخرون
حتى تسابقتم إلى الإحسان فيما تعملون
لم تتركوه فى الجليل ولا الحقير من الشئون
هذا القيامُ فقل لنا اليومُ الأخيرُ متى يكون ؟
البعث غاية زائلٍ فانٍ وأنتم خالدون
السبقُ من عاداتكم أترى القيامة تسبقون ؟
أنتم أساطين الحضارة والبناة المحسنون
المتقنون وإنما يُجزَى الخلودَ المتقنون

(١) الدن : باطية الخمر .

(٢) رع وأمون من آلهة مصر القديمة .

يتغنى بالنيل

نظم هذه القصيدة الرائعة يتغنى فيها بالنيل ، فصور الحياة للوادى وأهله ، وأبدع فى وصف روعته وجماله وجلاله ، ثم انتقل إلى قدماء المصريين ومفاخرهم ، وهى القصيدة التى تغنيها أم كلثوم فتزيدها بهاء وجمالا :

من أىّ عهْد فى القُرى تتَدفّقُ   وبأىّ كفٍّ فى المدائن تُغدِقُ
ومن السماء نزلتَ أم فُجّرتَ من   عُلْيا الجِنان جداولاً تَتَرقرق
وبأىّ عَينٍ أم بأيّة مُزْنَةَ   أم أىِّ طُوفانٍ تفيض وتَفْهَق
وبأىِّ نَوْلٍ أنت ناسجُ بُردةٍ   للضَّفتين جديدُها لا يخلُق
تَسْودُّ ديباجاً إذا فارقتها   فإذا حضرت اخْضَوْضر الإستبرقُ(١)
أتت الدهورُ عليكَ مهدُك مترعٌ   وَحِياضك الشُرُق الشهيَّة دُفق(٢)
تَسْقى وتُطعِمُ لا إناؤك ضائِقٌ   بالواردين ولإِخوانك يَنفُق(٣)
والماء تسكُبه فيُسبْك عسجداً   والأَرضُ تُغرقها فيحيا المُغرَق
تُعيِي متابعك العقولَ ويستوى   مُتَخبِّطٌ فى علمها ومحقِّق

إلى أن قال :

دينُ الأوائِل فيك دينُ مرُوءةٍ   لم لا يُؤَلّه من يَقُوتُ ويرزُق
لو أن مخلوقاً يُؤَلّه لم تكن   لِسواك مرتبةُ الأُلوهة تخلَق

---

(١) الديباج والاستبرق : ثوب الحرير .
(٢) الشرق : الغرق .
(٣) ينفق يفنى أو يقل .

جعلوا الهوى لك والوقارَ عبادةً إن العبـادةَ خَشيـةٌ وتعـلُّق
دانوا ببحرٍ بالمكارم زاخرٍ عَذْبِ المشارع مَدُّه لايُلْحق
متقيِّدٍ بعهوده ووعوده يجرى على سَنَن الوفاء ويصدُق
يتقبَّل الوادى الحيـاةَ كريمةً من راحتيك عميمةً تتدَفَّق

إلى أن قال يصف مهرجان وفاء النيل عند قدماء المصريين وكيف كانت « عروس النيل » تقدم قرباناً له كل عام :

والمجد عند الغانيـاتِ رغيبةٌ يُبغى كما يُبغى الجمال ويُعشَق
إن زوّجوكَ بهنّ فهى عقيدة ومن العقائد مايَلبُّ ويَحْمَق(١)
ماأجملَ الإيمان لولا ضَلَّةٌ فى كلِّ دينٍ بالهدايةِ تَلْصَق
زُفَّت إلى مَلكِ الملوك يحثُّها دينٌ ويَدْفعها هوًى وتَشوُّق
ولربما حسدتْ عليك مكانَها تِرْبٌ تمسَّح بالعروس وتُحْدِقُ(٢)
مجلوة فى الفُلكِ يَحْدو فلكَها بالشاطئَيْن مُزغردٌ ومُصفِّق
فى مِهْرَجانٍ هزَّت الدنيـا به أعطافَها واختَال فيه المشْرِق
فرعونُ تحتَ لوائه وبناُته يَجْرى بهنّ على السفينِ الزورق
حتى إذا بلغتْ مواكبُها المدَى وجرى لغايته القضـاءُ الأَسْبَق
وكسا سماء المِهْرَجانِ جلالةً سيفُ المنيَّةِ وهو صَلْتٌ يَبرُق

---

(١) يلب ، أى يصير لبيبا .

(٢) الترب من ولد مع الإنسان . الجمع أتراب وأكثر ما تستعمل فى المؤنث . يقال هذه ترب فلانة .

وتلفّتت فى اليمّ كلُّ سَفينةٍ   وانثال بالوادى الجموعُ وحدّقوا
ألقتْ إليكَ بنفسها ونفيسها   وأتتكَ شيِّقةً حواها شـيِّق
خلعتْ عليكَ حياءَها وحياتَها   أأعزُّ من هذين شَىْءٌ يُنفَق؟
وإذا تَناهى الحبُّ واتفقَ الفِدَى   فالروح فى بابِ الضحيَّة أَلْيقُ

إلى أن قال يذكر النيل وأنه مصدر الحياة والحضارة لمصر والوادى :

أصلُ الحضارةِ فى صعيدكَ ثابتُ   ونَباتُها حَسَنٌ عليك مُخلّق(١)
ولِدتْ فكنتَ المهدَ ثم ترعرعتْ   فأظلّها منكَ الحَفِىُّ المُشفِق
ملأتْ ديارَك حكمةً مأثورها   فى الصَّخر والبردِى الكريم منبَّق(٢)
وبنت بيوتَ العلم باذخةَ الذُّرى   يسعى لهن مغرِّبٌ ومشرِّق
واستحدثت ديناً فكان فضائلا   وبناءَ أخلاقٍ يطول ويَشهَق(٣)
مَهَدَ السبيلَ لكل دينٍ بعده   كالمسك ريَّاه بأخـرى تُفتَق
يدعو إلى برّ ويرفع صالحاً   ويَعـاف ماهو للمروءة مخلِق

وقال في ختامها :

يانيل أنت بطيب مانعت (الهدى)   وبِمدْحةِ (التوراة) أحرى وأخلق
وإليك يُهدى الحمدَ خلْقٌ حازهم   كَنَفٌ على مرّ الدهور مُرهَّق(٤)

---

(١) مخلق : متطيب .

(٢) منبق : مصطف .

(٣) يشهق من شهق الجبل ارتفع .

(٤) المرهق : كثير غشيان الناس والأضياف .

وعليك تُجلى من مصونات النهى   خودٌ عرائس خدرهن المُهْرَق(١)
الدرّ في لَبَاتهن منظّم   والطيب في حَبَراتهن مرقرق
لى فيكَ مدحٌ ليس فيه تكلفٌ   أملاه حبٌ ليس فيه تَمَلق

وفى الحق أنه لم يوصف النيل فى عظمته وجلاله وماضيه وحاضره وخلوده بأبدع مما وصفه شوقى فى هذه القصيدة .

نشيد النيل

ووضع نشيداً جميلا للنيل يتغنى به الشباب والمواطنون قال :

النيلُ العَذْبُ هو الكَوْثَرْ   والجنّة شاطئُهُ الأخضر
ريّانُ الصفحة والمَنْظرْ   ما أبهى الخلد وما أنضر

***

البحر الفيّاضُ القُدُسُ   الساقى الناس وما غرسوا
وهو المِنْوالُ لما لبسوا   والمُنْعِمُ بالقطن الأنورْ

***

جعلَ الإحسانَ له شَرْعا   لم يُخْلِ الوادىَ مِنْ مرْعَى
فترى زرعاً يَتْلو زرعاً   وهنا يجْنَى وهنا يُبْذَر

***

جارٍ ويرى ليس بجار   لأناةٍ فيه ووقارٍ
يَنْصَبُّ كتَلٍ منْهار   ويَضِجُّ فتحسَبه يَزْأرْ

***

(١) المهرق : الصحيفة .

حَبَشِيُّ اللـــون كجيرته   من منبعـــه وبحـــيرته
صَبَغَ الشَّطَّين بسُـــمْرته   لونا كالمسك وكالعنـــبر

النشيد الوطنى

وفى سنة ١٩٢٠ وضع نشيداً وطنيا أقرته اللجنة التى ألفت فى هذا العام لترقية الأغانى الوطنية قال :

بنى مصرٍ مكانكمو تَهَيَّا   فهيَّا مهِّدوا للملك هيّا
خذوا شمس النهارِ له حليًّا   ألم تَك تاجَ أولكم مليّا

***

على الأخلاق خُطُّوا الملك وابنوا   فليس وراءها للعِزِّ رُكنُ
أليس لكم بوادى النيل عدْنُ   وكوثرها الذى يجرى شهيّا

***

لنـــا وطنٌ بأنفسنا نَقيه   وبالدنيا العريضـــة نفتديه
إذا ما سيلت الأرواحُ فيه   بذلنـــاها كأن لم نعطِ شيّا

***

لنا الهرم الذى صحب الزمانا   ومن حِدْثانه أخذ الأمانا
ونحن بنو السَّنا العالى نَمانا   أوائلُ عَلَّموا الأمم الرقيّا

***

تطاول عهدُهم عزّا وفخرا   فلما آل للتاريخ ذُخرا
نشأنا نشأة فى المجد أخرى   جعلنا الحق مظهرها العليا

***

جعلنا مصر ملة ذى الجلال وألفنا الصليب مع الهلال
وأقبلنا كصفّ من عوالٍ يشـد السمهرىُّ السمهريا

***

تقوم على البنـاية محسنينا ونعهد بالتمـام إلى بنينـا
نموت فداكِ مصر كما حيينا ويبقى وجهك المَفْدِىُّ حيّا

نشيد الكشافة

نحن الكشافة فى الوادى جبريلُ الروحُ لنا حادى
يارَبِّ بعِيسَى والهـادى وبموسى خُذْ بيد الوَطَنِ

***

كشافـةُ مصر وصِبْيتها ومَنَاةُ الدار ومنيتهـا
وجَمالُ الأرض وحِليتها وطـلائع أفراح المُدُنِ

***

نبتدر الخـير ونَسْتبقُ ما يَرْضَى الخالقُ والخلْقُ
بالنفس وخالقهـا نثق ونزيد وثوقا فى المحن

***

فى السهل نرِفّ رياحينا ونجـوب الصخر شياطينا
نبنى الأبدان وتبنينـا والهمة فى الجسم المرن

***

ونخلى الخلق وما اعتقدوا ولوجـــه الخالق نجتهـد
نأسو الجرحى أنّى وجدوا ونداوى من جَرحَ الزمن

***

فى الصدق نشأنا والـكرم والعفـةِ عن مَسّ الُحرَم
ورعاية طفل أو هَرِم والذود عن الغيد الحصن

***

ونوافى الصارخ فى اللجج والنار الساطعـــة الوهج
لانسأله ثمنَ المهـج وكفى بالواجب من ثمن

***

ربٍّ فـكثِّرنا عــددا وابذل لأبوتنـا المــددا
هيىء لهم ولنا رشـدا ياربٍّ وخذ بيد الوطن

نشيد الشباب

اليـومَ نسود بأيدينــا ونعيــدُ محاسنَ ماضينـا
ونشيد العــزَّ بأيدينا وطنٌ نَفــديه ويَفْدِينـا

***

وطنٌ بالحــق نؤيِّده وبعــين الله نشيِّــدُه
ونحسِّــنه ونُزَيِّنــه بمـآثرنا ومساعينــا

***

سرُّ التاريخ وعنصرهُ وسريرُ الدهر ومِنْبَره
وجِنان الخلد وكَوْثره وكفى الآباء رياحينا

***

نتخذ الشمس له تاجا وضحاها عَرْشا وهَّاجا
وسماء السُّؤدد أبراجا وكذلك كان أوالينا

***

العَصْرُ يراكم والأممُ والكرنكُ يلحَظُ والهرمُ
ابنى الأوطان ألا هِمَمٌ كبناء الأول يَبْنينا

***

سَعياً أبداً سعيا أبدا لأثيل المجد وللعَلْيا
ولنجعل مصر هى الدنيا ولنجعل مصر هى الدنيا

وظل شوقى يتغنى بالوطنية ويغرد للمواطنين والناطقين بالضاد جميعا ألحان الحرية ويسمعهم أسمى معانى الإنسانية حتى أدركته الوفاة سنة ١٩٣٢ ، وظل شعره بعد وفاته وسيظل على الدوام رمزاً للحكمة والحرية والخلود .

* * *

حافظ ابراهيم
شاعر النيل
١٨٧٢ - ١٩٣٢م



هو صِنْو شوقى فى إحياء دولة الشعر ، ولئن تميز شوقى بالزعامة كما أسلفنا فى الحديث عن شوقى ، فإن حافظا يمتاز عنه بأن نشأته وحياته كانت شعبية ، فى حين كانت نشأة شوقى وحياته أرستقراطية ، فكان حافظ أقرب إلى روح الشعب ومشاعره ، وأقدر على تصوير آلامه التى شاركه فيها ، واكتوى بلهيبها ، فكان لذلك أبلغ فى التعبير عنها ، وكانت عباراته أسهل وأقرب إلى إدراك معانيها من عبارات شوقى ، لأنه كان يحس إحساساً قوياً أنه يخاطب الشعب فى مجموع مثقفيه وقارئيه .

ولد حافظ إبراهيم سنة **١٨٧٢** من أب مصرى وأم من أسرة تركية ، كان أبوه إبراهيم أفندى فهمى مهندساً يشرف على قناطر ديروط حيث ولد حافظ ، وتوفى وحافظ فى الرابعة من عمره ، فكفله خاله محمد أفندى نيازى وعاش فى كنفه عيشة الطبقات المتوسطة التى كانت أقرب إلى الضيق منه إلى اليسار ، فأحس حافظ منذ صباه بما تعانيه الطبقات الشعبية من جهد ورقة حال ، ولما ظهرت مواهبه الشعرية كان الترجمان الصادق الأمين لهذه الطبقات .

تلقى التعليم الابتدائى وجزءاً من التعليم الثانوى ، ولكنه لم يتمه ،

وانتقل مع خاله إلى طنطا وكان مهندس تنظيم بها وانقطع حافظ وقتاً ما عن متابعة التعليم، واتجهت نفسه إلى الأدب والشعر .

واشتغل وقتاً وجيزا بالمحاماة بطنطا، ولكنه لم يستمر فيها إذ لم يجد من نفسه ميلا إليها لما كانت تقتضيه من دأب على العمل المتواصل وهو لم يكن يميل إلى التقيد بمثل هذا الدأب، بل كان كالطير ينطلق مغرداً بين مختلف الأشجار والأغصان .

ولقد فكر فى أن يكون ضابطا بالجيش إذ كانت الحياة العسكرية مما يستثير فى نفسه روح الشعر والخيال، أو لعله أراد أن يقلد البارودى فى نشأته العسكرية، فالتحق بالمدرسة الحربية بالقاهرة، وتخرج منها سنة ١٨٩١ ضابطا برتبة ملازم ثان، وكان إذ ذاك فى سن العشرين تقريباً، وانتظم فى حملة السودان بقيادة اللورد كتشنر سردار الجيش المصرى وقتئذ، ولما انتهت الحملة بانفراد الإنجليز بحكم السودان عافت نفسه البقاء فى ربوعه، فالتمس إحالته إلى المعاش وأجيب طلبه وعاد إلى مصر، وغشى مجالس الشعراء والأدباء والعلماء، وأفاض فيها من شعره وأدبه، فتألقت شاعريته، وعرف له معاصروه فضله ومكانته فى عالم الأدب والشعر، وإذ كان الشعر لا يدرّ عليه ما يحفظ مكانته من الوجهة المادية فقد عينه أحمد حشمت وزير المعارف فى سنة ١٩١١ رئيساً للقسم الأدبى فى دار الكتب المصرية، وظل بها إلى فبراير سنة ١٩٣٢ إذ أحيل إلى المعاش لبلوغه السن القانونية، وتوفى يوم ٢١ يوليه سنة ١٩٣٢ .

كان حافظ شاعراً بطبعه، ظهرت مواهبه الشعرية وهو فى السادسة عشرة من عمره، لم يتلقها عن معلم أو أديب، ولا تعلمها فى المدارس التى انتظم بها، بل كانت وحى الإلهام والسليقة، فكان يقول الشعر وهو فى هذه السن المبكرة، ويأخذ نفسه بالمطالعات الشعرية ويحفظ قصائد فحول الشعراء

المتقدمين ، واشتدت به الرغبة إلى محاكاتهم فى جيد الشعر ، فواتته سليقته الشعرية وساعدته على تحقيق رغبته ، وبذَّ مع الزمن أولئك الشعراء ، وبلغ الذروة فى عالم الشعر والأدب .

وحافظ يمتاز فى شعره بقوة البلاغة وإشراق الديباجة وطلاوة الأسلوب والروح الخطابية ، ولقد أنصفه شوقى إذ قال فى رثائه :

يا حافظ الفصحى وحارسَ مجدها وإمامَ من نَجَلت من البُلغاء(١)
ما زلت تهتف بالقديم وفضله حتى حميت أمانةَ القُدماء
خلّفت في الدنيا بيانا خالدا وتركت أجيالا من الأبناء
وغدا سيذكرك الزمان ولم يزل للدهر إنصاف وحسنُ جزاء

أضفت الوطنية على شعر حافظ هالة من العظمة والمجد ، فقد كان بلا مراء خير ترجمان للشعب فى أحاسيسه وآماله ، وخير مواس له فى مآسيه وآلامه ، وتغنى بمصر والنيل فى قصائده الغرّ ، ولعلّ بقاءه فى السودان عدة سنين ، ومشاهدته غدر الإنجليز هناك ، وتدابيرهم فى تحقيق أغراضهم الاستعمارية ، قد زاده سخطا على الاستعمار واستمساكا بوحدة وادى النيل ، وتجلّت هذه المواهب فى شعره فى شتى المناسبات حتى سمى بحق « شاعر النيل » ، وهو إلى جانب ذلك شاعر الوطنية والاجتماع والأخلاق . كان لا يفتأ يدعو قومه إلى التسلح بالأخلاق فى جهادهم للحرية ، إذ يرى الأخلاق قوام الجهاد الصحيح ، وبلغت دعوته إلى الأخلاق حدّ التقريع فى مخاطبته لبنى وطنه ومجابهتهم بالحق الصريح .

وحافظ وإن كانت ثقافته شرقية إلاّ أنه قد تعلّم الفرنسية على كبر ،

---

(١) نجلت : أى ولدت .

واقتبس من الآداب الفرنسية ما استطاع أن يقتبسه ، وساعده ذكاؤه وألمعيته على محاكاة الشعر الغربى أحياناً ، وكان يميل إلى التجديد فى شعره ، وفى ذلك يقول :

آن يا شعر أن تَفُكَّ قيودا ‏ قيّدتنا بها دعاة المحال
فارفعوا هذه الكمائم عنا ‏ ودعونا نشم ريح الشمال

ولقد نجح حافظ فى أن يرتفع بشعره فى كثير من المواطن إلى التجديد واقتباس المعانى والأفكار والأساليب الحديثة ، فزاد شعره طلاوة ورنيناً موسيقياً حبّباه إلى النفوس وجعلا بعض قصائده أشبه بالأغانى والتغاريد .

الوطنية فى شعر حافظ

تتجلى الروح الوطنيه ويتألق نورها فى شعر حافظ ، ولقد وجدت الحركة الوطنية فى قصائده البديعة قوة تستمد منها الحماسة والصمود فى الجهاد ، والثورة على الاحتلال .

كان شعره معيناً لا ينضب من الكفاح الوطنى ، وكان حبه للوطن يملك عليه شغاف قلبه ، ويلهمه الذود عن حريته واستقلاله ، ولقد عبّر عن هذه العاطفة الملتهبة بقوله من قصيدة له سنة ١٩٠٠ :

مَتَى أرَى النِّيلَ لا تَحْلُو موارِدُه ‏ لغير مُرْتَهِبٍ للهِ مُرْتَقِبِ
فقد غَدَت مِصرُ فى حالٍ إذا ذُكِرَتْ ‏ جادَتْ جفونى لها باللُّؤْلُؤِ الرَّطِب
كأنّنى عندَ ذكرى ما ألَمَّ بها ‏ قرْمٌ تَرَدَّدَ بين المَوْت والهرَبِ(١)

(١) القرم : أى الرجل الشجاع .

إذا نَطَقْتُ فقاعُ السِّجْنِ متَّكأٌ　　وإنْ سَكَتُّ فإنَّ النَّفْسَ لَم تَطِبِ
أيَشْتَكي الفَقْرَ غادِينا ورَائِحُنا　　ونحن نَمْشِي على أرضٍ منَ الذَّهَبِ ؟!

وقوله في قصيدة له سنة ١٩٠٩ :

لعمرك ما أرقتُ لغير مصر　　ومالى دونها أمل يرام
ذكرتُ جلالَها أيام كانت　　تصول بها الفراعنة العظام
وأيامَ الرجالُ بها رجالٌ　　وأيامَ الزمانُ لها غلام

وقوله من قصيدة له سنة ١٩١٠ :

كَمْ ذا يُكابِدُ عاشقٌ ويُلاقى　　فى حُبِّ مصرَ كثيرَةِ العُشَّاقِ
إنِّى لَأَحْمِلُ فى هوَاكِ صَبَابَةً　　يا مصرُ قد خَرجَتْ عن الأطواق(١)
لَهِفى عليكِ مَتَى أراكِ طليقةً　　يَحْمِى كريمَ حِماكِ شَعْبٌ رَاقى
كَلِفٌ بمَحْمود الخِلال متَيَّمٌ　　بالبَذْل بين يَدَيْك والإنْفاق

وقوله من قصيدة له سنة ١٩١٩ نظمها فى (ملجأ الحرية) :

فتَعاهَدْنا على دَفْعِ الأذَى　　برُكوبِ الحَزْم حتّى نَظفَرا
وتَواصَيْنا بصَبْرٍ بَيْننا　　فَغدَونا قوَّةً لا تُزْدَرَى
أَنْشَرَتْ فى مصرَ شَعْباً صالحاً　　كان قَبْلَ اليَوْم مُنْفكَّ العُرا(٢)
كم مُحِبٍّ هائِمٍ فى حُبِّها　　ذادَ عَنْ أجْفانِه سَرْحَ الكَرَى(٣)
وشَابٍ وكُهولٍ أقْسَموا　　أنْ يَشِيدُوا مَجْدَها فوْقَ الذُّرَا(٤)

(١) الأطواق جمع طوق : أى الجهد والطاقة .
(٢) أنشرت : أحيت .
(٣) الكرى : النوم .
(٤) الذرا : جمع ذروة وهى المكان المرتفع .

حافظ ومصطفى كامل

عاصر حافظ مصطفى كامل . وكان صديقاً له معجباً بجهاده . رغم صداقته وصلته بخصومه السياسيين . وكان مصطفى شديد الإعجاب بشعره وأدبه . وعندما ظهر الجزء الأول من ديوانه سنة ١٩٠١ قرظه فى « اللواء »(١) تقريظاً يدل على عظم تقديره لشاعر النيل وأسهب فى الثناء عليه سنة ١٩٠٣ حين عرّب كتاب (البؤساء) لفيكتور هيجو .

قصيـــدة حافظ

فى حفلة مدرسة مصطفى كامل

ويبدو إعجاب حافظ بمصطفى وجهاده فى قصيدته التى ألقاها يوم ٢٩ نوفمبر سنة ١٩٠٦ في احتفال مدرسة مصطفى كامل تعليقاً على خطبة مصطفى . قال فى مطلعها :

سِمعنا حديثاً(٢) كقطرْ الندى   فجدَّد فى النفس ما جـــددا
وأضحى لآمالنـــا منعِـــشاً   وأمسى لآلامنـــا مُرْقِدا

وقال يستثير فى النفوس روح الأمل والحيـاة وهى الدعوة المحببة إلى الفقيد :

فدنياكَ يا شرقُ لا تجزعنْ   إذا اليوم وَلَّى فراقبْ غـــدا
فـكم محنةٍ أعقبتْ محنةً   وولَّت سِراعاً كرجْع الصدى

---

(١) عدد ٩ أكتوبر سنة ١٩٠١ .

(٢) يقصد خطبة مصطفى كامل فى الحفلة .

فلا يُيْئِسَنَّكَ قِيلُ العــداة وإن كان قيلا كَحَزِّ المُدى(١)
أتودَع فيك كنوزُ العــلوم ويمشى لك الغرب مسترفدا(٢)
وتُبعثُ فى أرضك الأنبياء ويأتى لك الغرب مسترشـــدا
وتقضى عليكَ قضاة الضلال طِوالَ الليالى بأن ترقُدا ؟
أتشْقى بعهـــد سما بالعــلوم فأضحى للضعيف بها أيِّدا(٣)
إذا شـــاء بَزَّ للسُّها سِرَّه وأدرك من جَرْيه المقصِدا(٤)
وإن شاء أدنى إليه النجوم فناجى المَجَرَّةَ والفـرقَدا(٥)
وإن شاء زعزع شُمّ الجبـال فخرت لأقـــدامه سُجَّــدا
وإن شاء شاهـــد فى ذرَّةٍ عوالم لم تَحْيَ فيها سُـــدى
وُمانٌ تُسَخَّر فيـــه الرياح ويَغْدو الجماد به منشِدا(٦)
وتعْنو الطبيعـــةُ للعارفين بمعنى الوجود وسِرٍّ الهُدَى
إذا ما أهابوا أجابَ الحديدُ وقام البخارُ له مُسْعِـــدا(٧)
وطارتْ إليهم من الكهرباء بروقٌ على السِّلك تَطوِى المدَى

***

(١) المدى بالضم جمع مدية : وهى السكين .

(٢) مسترفدا : أى يطلب الرفد وهو العطاء .

(٣) الأيد ، بتشديد الياء : القوى ، من الأيد بمعنى القوة .

(٤) بزه سلبه ، والسها الكوكب المعروف ، أى إذا شاء ذو العلم سلب من السهى سره وأظهره للناس .

(٥) المجرة والفرقد : نجوم فى السماء .

(٦) يشير إلى الطيران والفونوغراف .

(٧) مسعدا : أى معينا .

أَيَجْمل من بعد هذا وذاك بأن نَسْتكين وأن نَجْمُدا ؟
وها أمة (الصُّفر) قد مَهَّدَت لنا النهجَ فاستبقوا الموردا(١)

وقال فيها مخاطبا الشباب :

فيا أيها الناشئون اعملوا على خير مصر وكونوا يدا
سُتظهِر فيكم ذوات الغيوب(٢) رجالاً تكون لمصر الفِدا
فياليت شعرىَ من منكمُ إذا هى نادت يلبّي الندا ؟

وقال فى ختامها مخاطبا مصطفى كامل :

لكَ الله يا (مصطفى) من فتىً كثير الأيادى كثير العدا
إذا ما حمدتُكَ بين الرجال فأنت الخليقُ بأن تُحمْدا
سيحصِى عليك سجلُّ الزمان ثناءً يُخلِّد ما خُلِّدا
ويهتف باسمك أبناؤنا إذا آنَ للزرع أن يُحصَدا

والقصيدة من أبلغ شعر حافظ . وتأمل فى البيت الأخير منها تجد حافظا يقر لمصطفى بأنه الموجد للحركة الوطنية ، وأنه الجدير بأن تعرف الأمة له هذا الفضل عند ما تجنى ثمار هذه الحركة . وقد ظل على هذا الرأى بعد وفاة الفقيد وبعد ظهور زعامة سعد زغلول للحركة الوطنية سنة ١٩١٩ . وجهر به فى رثائه للمرحوم محمد فريد فى ديسمبر سنة ١٩١٩ ، إذا قال مناجيا روح فريد :

قلْ (لصبِّ النيل(٣)) إن لاقيتَه فى جوار الدائم الفرد الصَّمدْ

(١) أمة الصفر : أى اليابان .
(٢) ذوات الغيوب : أى الأقدار التى فى عالم الغيب .
(٣) يريد مصطفى كامل .

إن مِصراً لا تَنى عن قصدها رغمَ ما تلقى وإن طال الأمــدْ
جئتُ عنهـا أحمِلُ البشرى إلى (أول البانين) فى هـذا البـلدْ
فاســـترحْ واهنأ ونمْ فى غِبطةٍ قد بذرتَ الحبَّ والشعبُ حَصَدْ

فحافظ يعترف هنا أيضاً لمصطفى بأنه أول البانين فى صرح الحركة الوطنية، وبأنه بذر الحب وأن الشعب حصد وجنى ثمار مابذر . ورأى حافظ سنة ١٩١٩ هو تأييد وتوكيد لرأيه سنة ١٩٠٦ .

قصيدة حافظ فى حادثة دنشواى

لقيت حادثة دنشواى(١) صداها فى شعر حافظ ، فنشر فى ٢ يوليه سنة ١٩٠٦ — أى بعد صدور الحكم فيها بخمسة أيام — قصيدته المشهورة عن الحادثة . ندد فيها بسياسة الاحتلال ، وسبق بها شوقى بعام ، إذ أن شوقى لم يقل قصيدته عن الحادثة إلا بعد عام من وقوعها .

قال حافظ فى مطلع قصيدته مخاطبا المحتلين :

أيهـا القـائمون بالأمر فينـــا ! هــل نسيتم وَلاءنا والودادا ؟ !
خَفِّضــوا جيشكم وناموا هنيئا وابتغوا صيدكم وجوبوا البـلادا
وإذا أعْوَزَتْـكُمُ ذاتُ طوْقٍ(٢) بين تلك الرُّبا فصيدوا العبـادا
إنمـا نحن والحمـام ســواءٌ لم تُغادرْ أطواقُنا الأجيـــادا(٣)

---

(١) راجع تفصيلها فى كتابنا (مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية)
(٢) ذات طوق : أى الحمامة .
(٣) الأطواق هنا سلاسل الاسر والاستعباد والأجياد الأعناق ، جمع جيد .

لا تظنّوا بنـا العقوق ولـكن   أرشدونا إذا ضللنا الرّشـادا
لا تقِيدوا من أمّةٍ بقتيـلٍ   صادت الشمسُ نفسَه حين صادا(١)

وقال يصف الحادثة وفظائع المحاكمة والتنفيذ :

جاء جُهّالنـا بأمرٍ وجئتم   ضِعْف ضعفيه قسـوةً واشتدادا
أحسِنوا القتل إن ضننتمْ بعفوٍ   أقِصاصاً أردتم أم كيـادا ؟
أحسنوا القتل إن ضننتم بعفوٍ   أنفـوساً أصبْتم أم جمـادا ؟

***

ليت شعرى أتلك (محكمة التفـ   ـتيش) عادت أم عهْد (نيرون) عادا ؟
كيف يحـلو من القوىّ التّشفّى   من ضعيفٍ ألقى إليـه القيـادا ؟
إنّهـا مُثْـلةٌ تشفُّ عن الغيـ   ـظ ولسـنا لغيْظكم أندادا
أكْرِمونا بأرْضنـا حيث كنْتم   إنّما يُكرم الجـوادُ الجـوادا
إنّ عشرين حِجّةً بعـد خمسٍ   علّمتنـا السُّكون مهما تمادى
أمّةُ النيل أكْبرت أن تُعادى   مَنْ رماها وأشْفقت أن تُعـادَى
ليس فيهـا إلاّ كلامٌ وإلاّ   حسْرةٌ بعـد حسرةٍ تتهادى

وقال مخاطبا المدعى العمومى فى القضية :

أيّهـا المدّعى العمومىُّ (٢) مهلاً   بعضَ هـذا فقد بلغت المرادا

---

(١) أى لاتأخذوا الامة بقتيل ثبت أنه مات بضربة الشمس ، وهو الكابتن بول .. وأقاد الحاكم القاتل بالقتيل أى قتله به قودا .

(٢) إبراهيم الهلباوى .

قد ضمنّا لك القضاء بمصرٍ وضمنّا لنجلك الإســعادا
فإذا ماجلسْت للحكم فاذكرْ عهد (مصرٍ) فقد شفيت الفؤادا
لاجرى النيلُ فى نواحيكِ يا (مصـــرُ) ولا جادكِ الحيا حيث جادا(١)
أنتِ أنبَتِّ ذلك النَّبْتَ يا (مصـــر) فأضحى عليك شوكاً قتادا
أنت أنبتِّ ناعقاً قام بالأمـ ـس فأدْمَى القلوبَ والأكْبادا

***

إيهِ يامِدْرَهَ القضاء ويامَنْ ساد فى غَفْلَةَ الزّمان وشادا
أنتَ جلاَّدُنا فلاتَنْس أنّا قد لبسنا على يديك الحدادا

والقصيدة كما ترى من أروع ما قال حافظ ، وفيها تصوير لتلك الحادثة الفظيعة التى أظهرت مبلغ الظلم البريطانى ومبلغ هوان المصرى فى نظر الاحتلال ، ولقد حمل حافظ بأسلوبه اللاذع القوى على هذا الظلم حملات اهتزت لها أركانه ، كما حمل على الضعف الذى كان من أسباب استفحال هذا الظلم . فـكانت هذه الحملة دعوة صادقة إلى اطراح الضعف والأخذ بأسباب النهوض والقوة فى محاربة الاحتلال .

قصيدته فى استقبال اللورد كرومر

بعد حادثة دنشواى

وعاد يصف فظائع الاحتلال فى حادثة دنشواى فى قصيدة له قالها فى اكتوبر سنة ١٩٠٦ لمناسبة عودة اللورد كرومر المعتمد البريطانى من أجازته وكان صاحب الحول والطول وقتئذ فى البلاد .

(١) الحيا : المطر .

(قصرَ الدُّبارة[١]) هل أتاك حديثُنا — فالشرقُ رُيعَ له وَضجَّ المغربُ
أهلاً بساكنك الكريم ومَرحباً — بعد التحيه إننى أتعتَّب
نَقَلَتْ لنا الأسلاكُ عنك رسالةً — باتَتْ لها أحشاؤنا تتهلّب

إلى أن قال :

إنْ ضاقَ صدر النيل عمّا هالَه — يوم الحَمام فإن صدرك أرحب[٢]
أو كلما باح الحزين بأنَّةٍ — أمسَت إلى معنى التعَصّب تُنسب[٣]
رِفقاً عميدَ الدولتين بأمة — ضاق الرجاء بها وضاق المذهب
رِفقاً عميدَ الدولتين بأمة — ليست بغير ولائها تتعذب
إن أرهقوا صيَّادكم فلعلهم — للقوت لا للمسلمين تعصبوا
ولربما ضَنَّ الفقيرُ بقوته — وسخا بمهجته على من يَغصِب
فى (دنشواى) وأنت عنا غائب — لَعِب القضاء بنا وعزَّ المهرَب
حَسِبوا النفوسَ من الحمام بديلةً — فتسابقوا فى صيدهن وصوَّبوا
نُكبوا وأقفرت المنازل بعدَهم — لو كنتَ حاضرَ أمرِهم لم يُنكبوا !
خَلَّيتَهم والقاسطون[٤] بمرصدٍ — وسِياطُهم وحبالُهم تتأهب
جُلدوا ولو منَّيتَهم لتعلقوا — بحبال من شنقوا ولم يتهيَّبوا
شنُقوا ولو منحوا الخيار لأهلَّوا — بلظى سياط الجالدين ورحَّبوا[٥]

---

(١) يريد دار المعتمد البريطانى .

(٢) يوم الحمام أى يوم صيد الحمام فى حادثة دنشواى .

(٣) يشير إلى مازعم اللورد كرومر من أن التعصب الدينى هو سبب حادثة دنشواى.

(٤) القاسطون الظالمون .

(٥) أهلوا ورحبوا أى قالوا أهلا ومرحبا .

يتحاسدون على الممات وكأسُه بين الشفاهِ وطعمهُ لا يَعذُب
موتان : هذا عاجلٌ متنمِّرٌ يرنو وهذا آجلٌ يترقَّب
والمستشار(١) مكاثِرٌ برجاله ومعاجزٌ ومناجزٌ ومحـــزِّب
يختال فى أنحائها متبسماً والدمع حول ركابه يتصبب
طاحوا بأربعة فأردوا خامسا هو خير مايرجو العميد ويطْلب
حبٌ يحاولُ غرسه فى أنفس يُجنَى بغرسها الثنـــاء الطيب
كن كيف شئتَ ولاتــكلْ أرواحنا للمستشار فإن عدلك أخصـــب
وأفِضْ على (بُندٍ)(٢) إذاولى القضا رفقاً يهش له القضاء ويطرَب

قصيدته فى شكوى مصر من الاحتلال

قالها فى يناير سنة ١٩٠٧ :

لقد كان فينا الظلمُ فوضى فهُذِّبَت حواشـــيه حتى بات ظلماً منظما
تَمُنُّ(٣) علينااليوم أن أخصب الثرى وأن أصبح المصرىُّ حُراً منعما
أعِدْ عهد (إسماعيل) جَلْداً وسخرة فإنى رأيتُ المَنَّ أنكى وآلما
عمِلتم على عِزِّ الجمـــاد وذُلّنا فأغليتمُ طيناً وأرخصتُم دما

(١) يريد الكبتن متشل مستشار وزارة الداخلية . وكان يشرف على تنفيذ الحكم ومعاجز من عاجزت الرجل إذا أتيت بمايجعلة عاجزا . وحزب أى جمع أعوانه وأحزابه فبعضهم يتولى الشنق وبعضهم يتولى الجلد .

(٢) المستر بوند وكيل محكمة الاستئناف واحد قضاه المخصوصة التى حاكمت المتهمين فى حادثة دنشواى وكان القاضى الموجه للاسئلة فى هذه المحاكمة ونمت أسئلته على سوء نيته وميله إلى الإنتقام ولتشفى .

(٣) يخاطب المعتمد البريطانى .

إذا أخصبتُ أرضٌ وأجدب أهلها   فلا أطلعتْ نبتاً ولا جادها السَّما
نَهَشٌ إلى الدينار حتى إذا مشى   به ربه للســوق ألفاهُ درهما
فلا تحسبوا فى وَفرة المال — لم تُفدْ   متاعاً ولم تعصم من الفقر — مَغنما
فإن كثير المال — والخفضُ وارفٌ   قليلٌ إذا حلَّ الغلاء وخيَّما[1]

قصيدته فى استقالة اللورد كرومر

فَتى الشعر هذا موطن الصدق والهُدى   فلا تكذب التاريخ إن كنتَ منشدا
لقــد حان توديعُ العميد وإنة   حقيق بتشييع المحبّين والعِدا
فودّعْ لنا الطودَ الذى كان شامخا   وشيِّع لنا البحرَ الذى كان مُزبِدا

إلى أن قال

يناديكَ قد أزريت بالعلم والحجا   ولم تُبقِ للتعليم يا (لورد) مَعهدا
وأنك أخصبتَ البلادَ تعمُّدا   وأجدبت فى مصر العقول تعمُّدا
قضيتَ على أمّ اللغــات وإنه   قضاء علينا أو سبيلٌ إلى الردى[2]
ووافيْتَ والقطران فى ظل رايةٍ   فمازلت (بالسودان) حتى تمردا
فطاح كما طاحت (مصوَّع) بعده   وضاعت مساعينا بأطماعكم سدى
حَجَبْتَ ضياء الصحف عن ظلُماته   ولم تستقل حتى حجبْتَ (المؤيدا)[3]
وأودعتَ تقرير الوداع مغامزاً   رأينا جفَاء الطبع فيها مُجسَّدا

(١) الخفض سعة العيش . يريد أن كثرة المال مع غلاء الأسعار لا تغنى شيئا
(٢) أم اللغات أى اللغه العربية . يشير إلى محاربة الاحتلال للغة العربية وجعل دراسة العلوم فى أكثر المدارس باللغة الإنجليزيه .
(٣) حجبت المؤيد أى منعته من دخول السودان .

غمرتَ بها دينَ النبي وإننا لنغضبُ إن أغضبتَ فى القبر (أحمدا)

***

يناديك أين النابغون بعهدكم وأى بناء شامخ قد تجددا ؟
فما عهد إسماعيل والعيشُ ضيّقٌ بأجدب من عهد لكم سال عسْجدا
يناديكَ ولَّيتَ الوزارة هيئةً من الصُّم لم تَسمعْ لأصواتنا صدى
فليس بها عند التشاور من فتًى أبيٍّ إذا ما أصدر الأمر أوردا
بربك ماذا صدَّنا ولوى بنا عن القصد إن كان السبيل ممهدا ؟
أشرت برأيٍ فى كتابك لم يكن سديداً ولكن كان سهماً مسدداً
وحاولت إعطاء الغريبِ مكانةً تجر علينا الويلَ والذُّلَّ سرمدا
فياويل مصرٍ يوم تشقى بندوةٍ يبيتُ بها ذاك الغريب مسوَّدا(١)

***

ألم يكفنا أنا سُلبنا ضياعَنا على حين لم نبلغ من الفطنة المدى
وزاحمَنَا فى العيش كل ممارسٍ خبير وكنا جاهلين ورُقَّدا
وما الشركات السود فى كل بلدة سوى شَركٍ يُلقِى به من تَصيَّدا

قصيدته فى استقبال السير جورست

استقال اللورد كرومر أو أقيل من منصبه فى أبريل سنة ١٩٠٧ على أثر حادثة دنشواى ، وخلفه فى منصبه السير إلدون جورست ، فاستقبله حافظ بقصيدة

(١) يشير إلى مشروع اللورد كرومر فى إنشاء مجلس تشريعى مختلط .

عبر فيها عن شكوى مصر من الاحتلال وآثامه ، قال فيها فى أسلوب التهكم والسخرية :

أذيقونا الرَّجاء فقد ظَمِئْنا — بعهْدِ المصلحين — إلى الورودِ
ومُنُّوا بالوجود فقد جهلنا — بفضل وجودكم — معنى الوُجود
إذا أعلوْلَى الصياح فلا تلمنا فإنَّ الناس فى جُهْدٍ جهيد !(١)
على قدْر الأذى والظلم يعلو صياح المشفقين من المزيد !
جِراحٌ فى النفوس نَغَرْنَ نَغْرًا وكُنَّ قد اندملن على صديد(٢)
إذا ما هاجهنَّ أَسًى جديدٌ هتكْنَ سرائر القلب الجليد

إلى أن قال :

فما جئنا نطاولكم بجاهٍ يطولكم ولا ركْنٍ شديد
ولكنَّا نطالبكمْ بحقٍّ أضرَّ بأهله نقضُ العهود

وعاد إلى ذكر حادثة دنشواى وكيف كانت مبعث اليقظة والحياة للحركة الوطنية :

رمانا صاحب التَّقرير ظلماً بكفران العوارف والكنود(٣)
وأقسم لا يجيب لنا نداءا ولو جئنا بقرآن مجيد
وبَشَّرَ أهل مصرٍ باحتلالٍ يدوم عليهم أبد الأبيد
وأنبت فى النفوس لكم جفاء تعهَّدَه بمُنْهَلّ الصُّدود

---

(١) اعلولى أى علا .

(٢) نغر الجرح سال دمه ، واندمل التأم .

(٣) صاحب التقرير هو اللورد كرومر .

فأثمرَ وحشةً بلغت مَداها وزكّاها بأربعةِ شهودِ(١)
قتيلُ الشمس أورثَنا حياةً وأيقظ هاجعَ القوْمِ الرُّقود(٢)
فليت (كرومراً) قد دام فينا يُطوِّق بالسلاسل كلَّ جيد
ويُتحِفُ (مصرَ) آناً بعْدَ آنٍ بمجْلودٍ ومقْتولٍ شهيد
لِينزع هذه الأكفان عنا ونُبعَثَ فى العَوالم مِن جَديد

رثاؤه لمصطفى كامل

فى يوم ١١ فبراير سنة ١٩٠٨ حين شيعت مصر جنازة مصطفى كامل وقف حافظ على قبره وأنشد قصيدته الرائعة فى رثائه قال :

أيا قبرُ هذا الضيف آمالُ أمة فكبِّرْ وهلل والقَ ضيفكَ جاثياً
عزيزٌ علينا أن نرى فيك مصطفى شهيدَ العُلا فى زهرة العمر ذاوياً
أيا قبر لو أنا فقدناه وحده لكان التأسى من جوى الحزن شافياً(٣)
ولكن فقدنا كل شىء بفقده وهيهات ان يأتى به الدهر ثانيا
فيا سائلى أين المروءة والوفا وأين الحِجا والرأىُ ؟ ويْحك هاهيا !
هنيئاً لهم(٤) فليأمنوا كل صائح فقد أُسكت الصوتُ الذى كان عاليا
ومات الذى أحيا الشعورَ وساقَه إلى المجد فاستحيا النفوس البواليا

***

(١) يريد بالشهود الأربعه من أعدموا فى قضية دنشواى وهم أربعة .

(٢) قتيل الشمس هو الكابتن بول الضابط الإنجليزى الذى مات فى حادثة دنشواى بضربة الشمس ، يريد أن ما أصاب الناس من التنكيل بسبب هذا القتيل جعلهم ينورون للمطالبه بالحرية .

(٣) التأسى بمعنى الصبر .

(٤) يريد الإنجليز .

مدحتكَ لما كنتَ حيًّا فلم أُجِدْ   وإنى أُجِيدُ اليومَ فيك المراثيا
عليكَ(١) وإلا مالذا الحزنِ شاملًا   وفيك وإلاَّ مالذا الشعبِ باكيا
يموت المداوى للنفوس ولا يُرَى   لما فيه من داء النفوس مُداويا
وكنا نياماً حينما كنت ساهداً(٢)   فأسهدتنا حُزناً وأمسيتَ غافياً

***

شهيدَ العلا لا زال صوتك بيننا   يَرِنُّ كما قد كان بالأمس داويا
يُهيبُ بنا : هــذا بناء أقمتُه   فلا تهدموا بالله ما كنتُ بانيا
يصيح بنا : لا تُشعِروا النــاس أننى   قَضَيْتُ وأن الحىَّ قد بات خاليا
يناشِدنا بالله ألاَّ تَفرَّقــوا   وكونوا رجالاً لا تَسرُّوا الأعاديا
فرُوحى من هذا المقام مطِلةٌ   تُشارفكم(٣) عنى وإن كنت باليا
فلا تحزنوها بالخلاف فإننى   أخاف عليكم فى الخلاف الدواهيا

***

أجلْ أيها الداعى إلى الخير إننا   على العهد ما دمنا فنَمْ أنت هانيا
بناؤك محفوظٌ وطيفكَ ماثلٌ   وصوتكَ مسموعٌ وإن كنتَ نائيا
عَهدناك لا تبكى وتُنكر أن يُرَى   أخو البأس فى بعض المواطن باكيا
فرَخِّص لنا اليومَ البكاء وفى غد   ترانا كما تهوى جبالا رواسيا
فيانيل إن لم تجرِ بعد وفاته   دماً أحمراً لا كنتَ يا نيل جاريا

(١) عليك : أى عليك الحزن .
(٢) ساهدا : ساهرا .
(٣) تشارفكم أى تنظر إليكم من علو .

ويا (مِصر) إن لم تحفظى ذكرَ عهده إلى الحشر لا زال انحلالك باقيا
ويا أهلَ (مصرٍ) إن جهلتم مصابكم ثِقوا أن نجم السعد قد غارَ هاويا

***

ثلاثون عاماً(١) بل ثلاثون درَّةً بجيد الليالى ســاطعاتٍ زواهيا
ستشهد فى التاريخ أنك لم تــكن فتًى مفرداً بل كنتَ جيشاً مغازيا

قصيدته فى حفلة الأربعين

وله فى رثاء مصطفى قصيدة أخرى ألقاها فى حفلة الأربعين قال :

نَثَروا عليك نوادىَ الأزهار(٢) وأتيتُ أنثرُ بينهم أشــعارى
زَيْنَ الشباب وزَيْنَ طلاَّب العلا هل أنتَ بالمهج الحزينة دارى ؟
غادرتَنا والحــادثاتُ بمرْصد والعيشُ عيشُ مذلَّة وإســارِ
ما كان أحوجنا إليك إذا عَدَا عادٍ وصاح الصائحون : بدار
أين الخطيبُ وأين خلاَّبُ النُّهى ؟ طــال انتظار السمع والأبصار
بالله مالك لا تجيب مناديا ماذا أصابك يا أبا المغوار ؟
قمْ وامحُ ما خَطّتْ يمين (كرومرٍ) جهْلاً بدين الواحــد القهار
قد كنتَ تغضب للكنانة كلما هَمَّتْ وهَمَّ رجاؤها بِعثــار
غضب التَّقىِّ لربِّه وكتابهِ أو غَضْبَة (الفاروق للمختار)(٣)
قد ضاق جسمك عن مداك فلم يُطِق صبراً عليك وأنْبَ شُعْلةُ نار

---

(١) إشارة إلى عمر الفقيد و هو رقم تقريبي لأنه توفى فى الرابعة والثلاثين من عمره .
(٢) نوادى الأزهار : أى الرطبة المبللة بالندى .
(٣) الفاروق : عمر بن الخطاب ، والمختار : النبي عليه الصلاة والسلام .

أودى به ذاك الجهادُ وهدَّه عزمٌ يهـــدُّ جــلائل الأخطار
لعِبَتْ يمينك باليراع فأعجزت لعب الفوارس بالقنا الخطّار(١)
وجريْتَ للعلياء تبغى شأوها بدرتْ إليه غوائل الأقدار ؟

***

عزَّ القرارُ علىَّ ليلةَ نعيــه وشهدتُ موكبه فقرَّ قرارى(٢)
وتسابقت فيــه النعاةُ فطائرٌ بالكهرباء وطـائرٌ ببخـار
شاهدتُ يومَ الحشر يومَ وفاته وعلمت منه مراتبَ الأقــدار
ورأيت كيف تفى الشعوب رجالَهَا حقَّ الولاء وواجب الإكبار
تسعون ألفاً حول نعشك خُشَّعٌ يمشون تحت (لوائك) السيَّار
خطُّوا بأدمعهم على وجه الثرى للحزن أسطاراً عـلى أســطار
آناً يُوالون الضجيجَ كأنهم ركبُ الحجيج بكعبة الزُّوَّار
وتخالُهم آناً لفرط خشــوعهم عنــد المُصلَّى ينصتون لقارى
غلب الخشوع عليهم فدموعهم تجرى بلا كَلَح(٣) ولا استنثار
قد كنت تحت دموعهم وزفيرهم ما بين ســيل دافق وشَرار
أسعى فيأخــذنى اللهيب فأنثنى فيصـدنى متـدفق التيــار
لو لم ألُذْ بالنعش أو بظــلاله لقضيتُ بين مراجـلٍ وبحـار

***

---

(١) القنا : الرماح .
(٢) أى استقرت نفسه بعد أن شهد وفاء الأمة للفقيد فى موكب الجنازة .
(٣) الكلح العبوس أى تجرى الدموع بطبيعتها بلاعبوس .

كم ذات خدرٍ يوم طاف بك الردى هتكتْ عليك حرائرَ الأستار
سفرتْ تودع أمّةً محمولةً في النعش لا خبراً من الأخبار
أمِنَتْ عيون الناظرين فمزّقتْ وجهَ الخِمار فلم تَلُذْ بخمار(١)
قد قام ما بين العيون وبينها سِتْرٌ من الأحزان والأكدار

***

أُدْرجتَ في العَلَم الذي أصْفَيْتَه منك الودادَ فكان خيرَ شعار
عَلَمان(٢) من فوق الرؤس كلاهما في طيّه سِرٌّ من الأسرار
ناداهما داعى الفراق فأمْسيا يتعانقان على شفير هارى
تالله ما جزع المحب ولا بكى لِنَوىً مروّعةٍ وبعد مزار
جزع (الهلال) عليك يوم تركتَه ما بين حَرٍّ أسىً وحَرٍّ أوار(٣)
متلفتا متحيِّراً متخيِّرا رجلا يناضل عنه يوم فخار
إن الثلاثين التى بك فاخرت باتتْ تُقاس بأطول الأعمار
ضمّتْ إلى التاريخ بضعَ صحائف بيضاء مثل صحائف الأبرار
شبّهتُهنّ بنقطة عِطرية وسعتْ محصَّل روضةٍ مِعطار(٤)
خلّفتها كالمشْق يحذو حَذْوها راجى الوصول ومقتفى الآثار
ماذا على السارى وهُنّ(٥) منائرٌ لو سار بين مجاهل وقفار

* * *

(١) الخمار : الحجاب .
(٢) يريد بالعلمين الفقيد فهو علم الوطنية والثانى علم الوطن .
(٣) الأسى : الحزن ، والأوار : الظمأ والتعطش ، أى التعطش إلى الفقيد .
(٤) الروضة المعطار : هى الكثيرة الأزهار والرياحين .
(٥) هن إشارة إلى الثلاثين عاما : أى ماذا على السارى فى المجاهل والقفار إذا اهتدى بنور هذه الأعلام .

ما زلتَ تختارُ المواقفَ وَعْـرة   حتى وقفت لذلك الجبَّـار(١)
وهدمت سوراً قد أجاد بناءه   فرعون(٢) ذو الأوتاد والأنهـار
ووصلت بين شكاتنا ومشايخ   فى (البرلمـان) أجلةً أخيار
كشفوا الغطاء عن العيون فأبصروا   ما فى الكنانة من أذى وضِرار
نَبذوا كلام (اللورد) حين تبينوا   حَنَقَ المغيظ ولهجة الثرثار
ورماهُم بمجـلدين(٣) رَمَوْهُما   فى رتبـة الأصفار لا الأسـفار

***

واهاً على تلك المواقف إنها   كانت مواقف ليثِ غابٍ ضارى
لم يَلْوِه عنها الوعيـدُ ولا ثَنى   من عزمه قولُ المريب : حذار
فاهنأ بمنزلكَ الجـديد ونَمْ به   فى غِبطةٍ وانعم بخير جِوار
واستقبل الأجرَ الكبير جزاء ما   ضَحَّيتَ للأوطان من أوطار
نِعْمَ الجـزاء ونعم ما بلَّغتَه   فى منزلَيك(٤) ونعم عقبى الدار

قصيدته فى الذكرى الاولى للفقيد

وله قصيدة ثالثة ألقاها عند قبره يوم ١١ فبراير سنة ١٩٠٩ فى الاحتفال باحياء ذكراه الاولى ، وهى من أبلغ روائع الشعر العربى ، قال :

طوفو بأركان هذا القبر واستلِموا(٥)   واقضوا هنالك ماتقضى به الذممُ

(١) اللورد كرومر .
(٢) شبه كرومر بفرعون .
(٣) يريد بالمجلدين كتاب مصر الحديثة للورد كرومر .
(٤) أى الدنيا والآخرة .
(٥) استلم القبر : قبله أو لمسه بيده .

هنا جنانٌ تعـــالى الله بارئه ضاقت بآماله الاقــدارّ والهمم
هنا فَمٌ وبنــانٌ لاح بينهما فى الشرق فجرٌ تحيٌّ ضوءه الامم
هنا فَمٌ وَبنانٌ طالمــا نَثَرا نثْراً تسيرُ به الامثال والحِكَمَ
هنا الـكميُّ(١) الذى شادتْ عزائمهُ لطالب الحق رُكناً ليس ينهدم
هنا الشهيدُ هنا ربٌّ اللواء هنا حامى الذّمار هنا الشهْمُ الذى علموا

***

ياأيها النائم الهــانى بمضجَعه ليهْنك النوم لاهَمٌّ ولا سقَمَ
باتت تسائلنا فى كل نازلة عنكَ المنابرُ والقرطاس والقلم
تركتَ فينا فراغاً ليس يَشغَله إلا أبىٌّ ذكىٌّ القلب مضطرِم
منفَّر النوم(٢) سبّاقٌ لغايته آثاره عَمَمٌ آمالــه أمَمُ

***

إنى أرى وفؤادى ليس يكذبنى روحاً يحفُّ بها الإكبارُ والعِظَمُ
أرى جلالاً أرى نوراً أرى مَلَـكاً أرى مُحيّا يحيِّينــا ويبتسم
الله أكبرُ هذا الوجهُ أعرفهُ هذا فتى النيل هذا المُفْرد العَلَمَ
غضُّوا العيــونَ وحيّوه تحيتَه من القلوب إذا لم تُسعِد(٣) الـكلِم
وأقسِموا أن تذودوا عن مبادئه فنحن فى موقف يحلو به القسم

***

(١) الشجاع .
(٢) منفر النوم أى مسهد .
(٣) أسعده : أعانه .

لَبيكَ نحن الأولى حركتَ أنفسَهم لما سكَنْتَ ولما غالك العَدَمُ
جئنا نؤدى حساباً عن موافقنا ونستمدُّ ونستعْدِى[١] ونحتـــكم
قيل اسكتوا فسكتنا ثم أنطقنا عسفُ الجفاة[٢] وأعلى صوتنا الألم
قد اتُّهِمْنا ولما نَطْلُبْ جللًا إن الضعيفَ على الحالين مُتهم
قالوا لقد ظَلموا بالحقِّ انفسَهمْ والله يَعــــلمُ ان الظالمين هُمُ
إذا سكتْنا تَناجوْا : تلك عادَتهمْ إن نَطقنا تَنادَوْا : فِتْنَةٌ عَمَم

***

قد مَرَّ عامٌ بِنا والأمرُ يَحزُبنا[٣] آناً وآونةً نتنـــــابنا النِّقم
فالناس في شدَّةٍ والدَّهر فى كلبٍ[٤] والعَيْشُ قد حارَ فيه الحاذِقُ الفِهِم
وللسياسةِ فينـــــا كلَّ آونةٍ لوْنٌ جديدٌ وعهد ليس يُحتَرم
بينا نرى جمرَها تخشى مَلامسهُ إذا به عند لَمسِ المصطَلي فَحَمُ
تصغى لأَصواتنا طوراً لتخدَعنا وتارةً يزْدَهيها الــكِبَرُ والصَّمم
فمن ملايَنةٍ استارُها خــــدعٌ إلى مصالبــــةٍ استارُها وَهَم

***

ماذا يريدون[٥] ؟ لاقرّت عيونهم إن الــكنانة لايُطوى لها عَلَم

---

(١) نستمد : نطاب المدد ونستعدى : نستنصر .

(٢) يريد بالجناة المحتلين الجناة .

(٣) حزبه الأمر : اشتد عليه .

(٤) الــكلب الشدة .

(٥) يريد المحتلين .

كم امة رغبتْ فيها فما رسخت   لها — على حولها(١) — فى ارضها قدم
ما كان ربك ربُّ البيت تاركها   وهى التى بحبالٍ منـــــه تعتصم

***

لبيك أنا على ما كنت تعهده   حتى نسود وحتى تشهد الأمم
فيعلَمَ النيل أنا خيرُ من وَرَدوا   ويستطيل اختيالاً ذلك الهرم

إلى أن قال :

يأيها النشء سيروا فى طريقته   وثابروا : رضى الأعداء أو نقموا
فكلكم (مصطفى) لوسار سيرتَه   وكلكم (كامل) لوجازه(٢) السَّأم
قد كان لاوانياً يوماً ولا وكِلاً(٣)   يستقبل الخطب بَسَّاماً ويقتحم
وأنت ياقبر قد جئنا على ظمأٍ   فجد لنا بجوابٍ جادك الدِّيَمُ(٤)
أين الشباب الذى أُودعتَ نضرته   أين الخلال — رعاك الله — والشيم ؟
وما صنعت بآمالٍ لنا طُويت   ياقبر فيكَ وعفَّى رسمها القِدم ؟
ألا جوابٌ يروّى من جوانحنا ؟   مااللقبور إذا ما نوديت تَجِمُ(٥) ؟
نَمْ أنت يكفيك ماعانيت من تعب   فنحن فى يقظة والشمل ملتئم
هذا (لواؤك) خفّاقٌ يظللنا   وذاك شخصك فى الأكباد مُرتسم

---

(١) الحول : القوة .
(٢) جازه : أى جاوزه .
(٣) الوكل : العاجز الذى يكل الأمر إلى غيره .
(٤) الديم جمع ديمة السحاب .
(٥) وجم يجم سكت عن الكلام .

تحية العام الهجرى

أعد الشباب فى سنة ١٩٠٩ (١٣٢٧ هجرية) احتفالا كبيراً بالعام الهجرى الجديد تولى الطلبة تنظيمه برعاية نادى المدارس العليا ، وكان احتفالا رائعا أقيم بدار التمثيل العربى مساء الجمعة غاية ذى الحجة سنة ١٣٢٦ (٢٢ يناير سنة ١٩٠٩) برآسة أحمد بك لطفى ، وألقى فيه حافظ قصيدته المشهورة فى تحية العام الجديد . قال فى مطلعها :

أطلَّ على الأكوان والخلق تنظرُ ... هلالٌ رآه المسلمون فكبَّروا
تجلّى لهم فى صورةٍ زاد حسنها ... على الدهر حُسنا أنها تتكرر
وبَشّرهم مِن وجهه وجبينه ... وغُرته والناظرين مُبشّر
وأذكرهم يوماً(١) اغرَّ محجلا ... به تُوِّج التاريخ والسعدُ مُسفر
وهاجر فيه خيرُ داعٍ إلى الهدى ... يَحُف به من قوة الله عسكر
يُماشيه جبريلٌ وتسعى وراءه ... ملائكةٌ ترعى خُطاه وتخفر
بيُسراه برهان من الله ساطعٌ ... هدى وبيُمناه الكتاب المطهر
فكان على أبواب (مكة) رَكْبهُ ... وفى (يثربٍ(٢)) أنواره تتفجّر
مضى العام ميمونَ الشهور مباركا ... تعدَّدَ آثارٌ له وتسطَّر
مضى غيرَ مذموم فان يذكروا له ... هناتٍ فطبع الدهر يصفو ويكدرُ
وإن قيل اوْدى بالألوف اجابهم ... مجيب لقد احيا الملايين فانظروا
إذا قيس إحسان امرئٌ باساءةٍ ... فأربى عليها فالإساءة تغفر

(١) يريد يوم هجرة الرسول عليه الصلاة والسلام من مكة إلى المدينة .
(٢) المدينة المنورة .

ففية اقام النائمون وقد اتت عليهم كأهل الكهف فى النوم اعصر
وفى عالم الإسلام فى كلِّ بقعة له اثر باقٍ وذكرٌ معطر

وبعد أن سرد الحوادث فى مختلف البلادالإسلامية طوال العام المنصرم، عرج على الحركة الوطنية فى مصر فحياها أحسن تحية وكان ترجمان الشعر والأدب فى تمجيدها وتأييدها، قال :

وفيه سرَتْ فى مصر روحٌ جديدةٌ مباركة من غيرة تتسعر
خبَتْ زمنا حتى توهمتُ أنها تجافت عن الإيراء لولا (كرومر)(١)
تصدّى فأوراها وهيهات ان يرى سبيلا إلى إخمادها وهى تزفر
مضى زمن التّنويم يا نيل وانقضى ففى مصر ايقاظٌ على مصر تَسهر
وقد كان « مرفين » الدهاء مخدراً فأصبح فى اعصابنا يتخدر
شعرنا بحاجات الحياة فإن وَنت عزائمنا عن نيلها كيف نُعذَر ؟
شعرنا وأحسنا وباتت نفوسنا من العيش إلا فى ذرا العز تسحر
إذا الله أحيا أمَّــة لن يردَّها إلى الموت قهَّار ولا متجــبر

وحيا الشباب بقوله :

جالَ الغد المــأمول إنا بحاجة إلى قادةٍ تَبنى وشعبٍ يعمِّر
رجال الغــد المأمول إنا بحاجة إلى مصلح يدعو وداع يذكِّر
رجال الغد المأمول إنا بحاجة إلى عالم يدرى وعــلمٍ يقرِّر

(١) خبت . خمدت ، وتجافت : تباعدت . وإيراء النار . إشعالها . وكرومر هو المعتمد البريطانى فى ذلك الحين والحاكم المطلق فى مصر وقتئذ ، يريد أن فظائع كرومر قد اشعلت روح الــكراهية للاحتلال .

رجال الغد المأمول إنا بحاجة ... إلى حكمة تملى وكف تحرر
رجال الغد المأمول إنا بحاجة ... إليكم فسدوا النقصَ فينا وشمروا
رجال الغد المأمول لا تتركوا غداً ... يمر مرور الأمس والعيش أغبرُ
رجال الغد المأمول إن بلادكم ... تناشدكم بالله أن تتذكروا
عليكم حقوقٌ للبلاد أجلُّها ... تعهدُ روضِ العلم فالروض مقفر
قصارى مُنى أوطانِكم أن ترى لكم ... يداً تبتنى مجداً ورأساً يفكر

فكونوا رجالا عاملين أعزة ... وصونوا حمى أوطانِكم وتحرروا

وعرج على حركة المطالبة بالدستور ، قال :

وياطالبي (الدستور) لا تسكنوا ولا ... تبيتوا على يأس ولا تتضجروا
أعدوا له صدر المكان فإننى ... أراه على أبوابكم يتخطَّرُ
ولا تنطقوا إلا صواباً فإننى ... أخاف عليكم أن يقال تهوَّروا
فما ضاع حق لم ينم عنه أهله ... ولا ناله فى العالمين مقصِّرُ

لقد ظفر الأتراك عدلا بسؤلهم(١) ... ونحن على الآثار لا شك نظفَر
هم لهم العام القديم مقدِّرُ ... ونحن لنا العام الجديد مقدر

وقد قوبلت القصيدة بالتصفيق والإعجاب والحماسة البالغة من الحاضرين ، وكان إلقاؤه رائعا أخاذا ، ولبث فى إلقائه ساعة من الزمان كاملة .

وفى ١٢ يناير سنة ١٩١٠ أقام الشباب أيضا احتفالا فخما بعيد رأس السنة الهجرية(١٣٢٨) بمسرح (البيلوت باسك) بشارع عماد الدين ، والقى فيه حافظ

(١) يريد إعلان الدستور فى تركيا عام ١٩٠٨ .

قصيدة من أبلغ شعره ، قال فى مطلعها يحيى هلال العام الجديد :

لى فيكَ حين بَدَا سناكَ وأشْرَقا ... املٌ سألتُ اللهَ ان يتحققا

ثم ذكر العام الذى مضى وما اصاب مصر فيه من كوارث ، قال :

اشْرقْ علينا بالسّعود ولا تكنْ ... كأُخيك مشئومَ المنازل اخرقا

إلى ان قال ينعى حرية الصحافة ويذكر ما اصابها من الضغط والاضطهاد :

ورمى على ارض الـكنانة جِرمَه ... بالنّازلات السُّود حتى ارهقا

حَصَدتْ مناجلُه غِراسَ رجائنا ... ولو انها أبقتْ عليــــه لأوْرقا

فتقيَّدت فيه (الصحافةُ) عنوةً ... ومشى الهوى بين الرعية مُطلقا

وأتى يساوم فى (القناة) خديعةً ... ولو انها تمت لتَمَّ بها الشقّا[١]

إن البلية ان تُباع وتُشترى ... مصرٌ وما فيهـا وان لا تنطِقا

كانت تواسينا على آلامنا ... صحفٌ إذا نزل البلاء واطبقا

فإذا دعوتُ الدمع فاستعصى بَكتْ ... عنا اسًى حتى تغصَّ وتشرقا

كانت لنا يوم الشدائد اسهماً ... نرْمى بها وسوابقا[٢] يوم اللقا

كانت صِماما للنفوس إذا غلتْ ... فيها الهمومُ وأوشكت ان تزهقا

كم نفست عن صدر حرٍّ واجد[٣] ... لولا الصمامُ من الأسى لتمزقا

مالى انوح على الصحافة جازعاً ... ماذا ألمَّ بهـــا وماذا احدَقا

قصوا حواشيها وظنوا انهم ... امِنوا صواعقها فكانت أصعقا

---

(١) يشير إلى مشروع مد امتياز قناة السويس ، وقد ظهر فى أواخر سنة ١٩٠٩ ورفضته الجمعية العمومية ، فى أبريل سنة ١٩١٠ .

(٢) السوابق من صفات الخيل ، أى كانت لنا عدة فى الجهاد .

(٣) الواجد : الحزين .

وأتوْا بحاذقهم(١) يكيد لهـا بما يَثنى عزائمها فـكانت أحذقا

وقال يخاطب الشباب ويهيب بهم أن يعملوا ليردوا إلى مصر مجدها واستقلالها :

أهلا بنابتة البلاد ومرحباً جدَّدْتمُ العهد الذى قد أخلقا
لا تيأسوا أن تستردوا مجدكم فلربَّ مغلوبٍ هوى ثم ارتقى
مدتْ له الآمال من أفلاكها خيطَ الرجاء إلى العلا فتسلقا
فتجشَّموا للمجد كل عظيمةٍ إنى رأيت المجد صَعب المرتقى
من رام وصل الشمس حاك خيوطَها سـبباً إلى آماله وتعلقا

***

عارٌ على ابن النيل سباق الورى مهما تقلب دهره أن يُسبقا
أوَ كلما قالوا تجمع شملهم لعب الشقاق بجمعنا فتفرقا
فتدفقوا حُججاً وحوطوا نيلكم فلكم أفاض عليكم وتدفقا
حملوا علينا بالزمان وصرْفه فتأنقوا فى سلبنا وتأنقا(٢)
هزُّوا مغاربها فهابت بأسهم يا ويلكم إن لم تهزوا المشرقا(٣)
فتعلموا فالعلم مفتاح العلا لم يُبق بابا للسعادة مغلقا
ثم استمدوا منه كل قواكم إن القوىَّ بكل أرض يُتَّقى

---

(١) يريد بطرس غالى رئيس الوزراء، ولكن الحق أن تبعة ذلك يتحملها الوزراء جميعا لا بطرس غالى وحده .

(٢) أى حاربنا المحتلون بأحداث الزمان ونوائبه . وتأنق فى الأمر : أى بالغ فيه .

(٣) يشير إلى الإنجليز ، أى أنهم مدوا سلطانهم فى دول الغرب . ويدعو المصريين إلى أن يجعلوا لمصر هذه المكانة فى الشرق .

وابنوا حوالىْ حوضكم من يقظةٍ ... سوراً وخطوا من حذارٍ خندقا
وزِنوا الكلام وسدِّدوه فإنهم ... خَبَأوا لكم فى كل حرفٍ مزلقا
وامشوا على حذرٍ فإن طريقكم ... وعرٌ أطاف به الهلاكُ وحلقا
نصبوا لكم فيه الفخاخ وأرصدوا ... للسالكين بكل فج موبقا(١)
الموت فى غشيانه وطروقه ... والموت كل الموت ألا يطرقا(٢)
فتحينوا فرصَ الحياة كثيرة ... وتعجلوها بالعزائم والرقى
أو فاخلقوها قادرين فإنما ... فرص الحياة خليقة أن تخلقا

مسألة قناة السويس

فى أواخر سنة ١٩٠٩ وأوائل سنة ١٩١٠ شغلت الرأى العام مسألة كبرى تتصل بحياة البلاد الاقتصادية والسياسية ، وهى مشروع مدّ الامتياز الممنوح لشركة قناة السويس أربعين عاما أخرى ، وقد أثار هذا المشروع سخط الأمة واحتجاجها وطالبت بوقفه وبعرضه على « الجمعية العمومية » قبل البت فيه .

حركت هذه المسألة الهامة روح الشعر فى نفس حافظ ، فنظم فى نوفمبر سنة ١٩٠٩ قصيدة من بليغ شعره القومى ، وصف فيها الحالة السيئة التى وصلت إليها البلاد ، وأيد الحركة الوطنية فى مطالبها ، وعبر أصدق تعبير عن آلامها وآمالها ، قال فى مطلعها :

لقد نصلَ الدُّجى فمتى تنامُ ... أهمٌّ ذادَ نومكَ أم هُيام(٣)

(١) الفج : الطريق ، الموبق : الهلاك .
(٢) أي إذا كان فى الإقدام موت فإن فى الاستسلام موتاً أكبر .
(٣) الدجى : ظلام الليل .

إلى أن قال :

أيجمل بالأديب أديب مصر بكاء الطفل أرهقه الفِطامُ
ويصرفه الهوى عن ذكر مصر ومصرٌ في يد الباغى تُضام
عدمتُ يراعتى إن كان مابى هوى بين الضلوع له ضِرام
وما أنا والغرامَ وشابَ رأسى وغال شبابى الخطبُ الجسام
وربَّانِىَ الذى ربىَّ (لبيداً) فعلمنى الذى جهل الأنام(١)
لعمرك ما أرِقتُ لغير مصرٍ ومالى دونها أمل يرام
ذكرت جلالها أيام كانت تصول بها الفراعنة العظام
وأيام الرجالُ بها رجالٌ وأيام الزمانُ لها غلام
فأقلق مضجعى ما بات فيها وباتت مصر فيه فهل أُلام ؟

وأهاب بالشعب أن يدع التواكل والتخاذل والانقسام قال :

أرى شعبا بمدْرَجة العوادى تمخَّخ عظمَه داءٌ عُقام(٢)
إذا مامرّ بالبأساء عام أطل عليه بالبأساء عام
سرى داء التواكل فيه حتى تخطَّف رزقَه ذاك الزحام(٣)
قد استعصى على الحكماء منا كما استعصى على الطب الجُذام
هلاك الفرد منشؤه توانٍ وموت الشعب منشؤه انقسام
وإنا قد وَنَيْنا وانقسمنا فلا سعىٌ هناك ولاوئام

(١) لبيد ، هو الشاعر العربي صاحب المعلقة التي أولها :
عفت الديار محلها فرسومها
(٢) المدرجة : الطريق . والعوادى: النوائب . وتمخخ العظم : إذا أخرج مخه .
(٣) أي مزاحمة الأجانب للمصريين .

فساء مُقامُنا فى أرض مصر ... وطاب لغيرنا فيها المُقام
فلا عجبٌ إذا مُلكت علينا ... مذاهبنا وأكثرنا نيام

وناجى الأمير حسين كامل وكان رئيساً لمجلس شورى القوانين أن يبث روح الحياة والتضامن فى نفوس أعضاء مجلس الشورى والجمعية العمومية ، وناشدهم ألا يثقوا بوعود الاحتلال ، قال :

(حسينُ . حسينُ) أنت لنا فنبِّهْ ... رجالا عن طِلاب الحق ناموا
وكن — بأبيك — لابن أخيك عَوْناً ... فأنت بكفه نِعْمَ الحسام
أفِضْ فى قاعة الشورى وئاما ... فقد أودى بنا وبها الخصام
وعلِّمهم مصادمة الأعادى ... فمثلك لا يُروِّعه الصدام
ففى (حزب اليمين) لديك قومٌ ... وإن قلوا فإنهم كرام
وفى (حزب الشمال) لديك أُسْدٌ ... كُماةٌ لا يطيب لها انهزام
فكونوا للبلاد ولا يَفتكُمْ ... من النهزات والفرص اغتنام
فما سادوا بمعجزة علينا ... ولكنْ فى صفوفهم انضمام
فلا تثقوا بوعد القوم يوما ... فإن سَحاب ساستهم جَهام(١)
وخافوهم إذا لانوا فإنى ... أرى السُّوَّاس ليس لهم ذِمام(٢)
فكم ضحك (العميد) على لحانا ... وغر سراتنا منه ابتسام

ونادى بالدستور وندد بمشروع مد امتياز القناة ، قال :

ليس العِلْمُ يُمسكنا وحيداً ... إذا لم ينصر العلَمَ اعتزام

(١) السحاب الجهام : الذى لا ماء فيه .
(٢) الذمام : الذمة والعهد .

وإن لم يدرك (الدستورُ) مصراً　　فما لحياتها ابدا قِوام
حَموْنا وِردَ النيل عذْباً　　وقالوا : انه موت زؤام
وما الموت الزؤام اذا عقلْنا　　سوى (الشركات) حلَّ لها الحرام
لقد سعدت بغفلتنا فراحت　　بثروتنا واولها (التزام)

***

فياويلَ (القناة) اذا احتواها　　بنو (التاميز) وانحسر اللثام
لقد بقيت من الدنيا حُطاماً　　بأيدينا وقد عَزَّ الحطام
وقد كنا جعلناها زِماما　　فوالهْفى اذا قُطِع الزمام !

***

فيا (قصر الدبارة) لست أدرى　　احربٌ فى جرابك أم سلام ؟
أجِبْنا هل يُراد بنا وراء　　فنقْضِى أم يراد بنا أمام ؟
ويا (حزب اليمين) اليك عنا　　لقد طاشت نبالك والسهام
ويا (حزب الشمال) عليك منا　　ومن ابناء نجدتك السلام

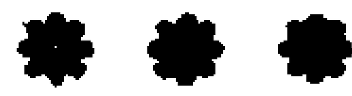
وقد اضطرت الوزارة تحت ضغط الراى العام إلى عرض المشروع على الجمعية العمومية التى قررت رفضه ، وبذلك حبط المشروع .

تنديده بالكولونل روزفلت

جاء الكولونل تيودور روزفلت الرئيس الأسبق لجمهورية الولايات المتحدة إلى مصر عن طريق السودان فى مارس سنة ١٩١٠ ، وألقى بالخرطوم خطبة سياسية مجد فيها الاحتلال البريطانى ، ودعا إلى الخضوع لحكمه ، ولما

وصل إلى القاهرة ألقى بالجامعة المصرية خطبة أخرى أشد وطأة من خطبته بالخرطوم ، وقد أثارت خطبتاه احتجاج الرأى العام ، وشارك حافظ الأُمة فى سخطها على روزفلت ، ونظم قصيدة عصماء لامه فيها على إطرائه الاحتلال ، نشرها قبيل إلقاء خطبته الثانية بالقاهرة ، قال ·

أىْ خطيبَ الدنيا شَنِّفْ سَمْعَ مصر بقولك المأثور
إنما شوقها لقولك يا (روزْ فلت) شوق الأَسير للتحرير
قِفْ غداً أيها الرئيس وعلِّم أهـــل مصرٍ حرية التعبير
واخبر الناس كيف سدتم على النا س وجئتم بمعجزات الدهـور
وملـكتم أعِنَّة الريح والمــا ء ودستم على رقاب العصور
قِفْ وعَدِّد مآثر العلم واذكر نعـم الله ذكر عبد شكور
وإذا ما ذكرتُ أنعمه الـكبـرى فلا تنس نعمة (الدستور)



يانصيرَ الضعيف مالك تطرى خطة القوم(١) بعد ذاك النكير
لم تطيقوا جوارهم بل اقمتم فى حماكم من دونهم الف سور
أنتم تطريهمُ وتثنى عليهم نائياً آمناً وراء البحـور
ليت شعرى أكنت تدعو إليهم يوم كانوا على تخوم الثغور
يوم كانوا قذى بعين (نيويور ك) وداء مستحكماً فى الصدور
يوم نادى (واشنجتون) فلبا ه من الغيل كل ليث هصور (٢)

(١) يقصد الانجليز .
(٢) الغيل : موضع الأسد

يوم سجلتم على صفحات الدهـ ـر تاريخ مجـــدكم بالنور
ووثبتم إلى الحيـــاة وثوبا ونفضتم عنكُم غبار القبور
إنما النيلُ والمسيسبيُّ(١) صنوا ن هما حليتـــان للمعمور
وعجيبٌ أن يفوز هذا بإطلا قٍ وهذا فى ذِلة المأسور
يانصير الضعيف حبِّب إليهم هجر مصر(٢) تفز بأجر كبير
فعليهم أن يهجروا وعلى المصـ ـرىِّ ذكر المتيمّ المهجور

رثاؤه لمحمد فريد

نظم حافظ فى رثاء محمد فريد قصيدة من غرر شعره ألقاها بصوته الجهورى فى حفلة التأبين التى أقامها الحزب الوطنى يوم الأربعين لوفاته (١٩ ديسمبر سنة ١٩١٩)، فهزت مشاعر السامعين والمواطنين لما حوته من المعانى الرائعة والتقدير البالغ للزعيم الراحل، قال:

مَنْ ليومٍ نحن فيه مَنْ لغدْ ؟ مات ذو العزمة والرأى الأسدْ
حَلّ (بالجمعة) حزنٌ وأسى ومشى الوجدالى (يوم الأحد)(٣)
وبدا شِعرى على قرطاسه لَوعةً سالت على دمع جَمدْ

***

أيها النيل لقد جَلّ الأسى كُنْ مِداداً لى إذا الدمع نفدْ
واذْبلى يازهرةَ الرَّوْض ولا تبسمى للطَّلِّ فالعيشُ نـكَدْ

---

(١) هو النهر المشهور بأمريكا .
(٢) أى الجلاء عنها .
(٣) كنى بيومى الجمعة والأحد عن المسلمين والمسيحين.

والزم النَّوْحَ أَياطــــيرُ ولا تبتهج بالشَّدْوِ فالشدو حدد(١)
فلقد وَلَّى (فريدٌ) وانطوى ركنُ مصرِ وفتاها والسَّنَد

***

خالدَ الآثار لا تخش البلى ليس يَبْلَى من له ذكرٌ خَلَدْ
زرتَ (برلين) فنادى سَمْتُها نزلت شمس الضحى برجَ الأسد
واختفت شمسك فيها وكذا تختفى فى الغرب أقمار الأبد(٢)

***

يا غريبَ الدار والقــبر ويا سلوة النيل إذا ما الخطبُ جَدّ
وحُساماً فَلَّ حــــدَّيه الرَّدى وشهابا ضاء وَهْنا وخمــــد
قلْ (لصبِّ النيل)(٣) إن لاقيتَه فى جوار الدائم الفرد الصــمد
إن مصراً لاتنى عن قصــــدها رغم ماتلقى وإن طال الأمد
جئتُ عنها أحمل البشرى إلى (أول البانين)(٤) فى هذا البلد
فاسْتَرِحْ واهنأ ونَمْ فى غِبطةٍ قدبذَرتَ الحبَّ والشعبُ حصد(٥)

***

آثر النيــــلَ على أمواله وقواه وهــــواهُ والولد
يطلب الخير لمصرٍ وهو فى شِقْوَةٍ أحلى من العيش الرَّغد
ضاربٌ فى الأرض يبغى مأرباً كلما قاربه عــــنه ابتعد

---

(١) الحدد : الحرام الذى لا يحل أن يرتكب .
(٢) كانت وفاة الفقيد فى برلين يوم ١٥ نوفمبر سنة ١٩١٩ .
(٣ و ٤) يريد مصطفى كامل .
(٥) يشير إلى قيام ثورة سنة ١٩١٩ .

لم يَعِبْه أن تجنَّى دهرُه ⁂ رُبَ جِـدٍ حاد عن مجراه جَدّ[١]
يستجمُ العزمَ حتى إن بدت ⁂ فرصة شــدّ إليها وصمد
فهو لا يثْنى عناناً عن مُنىً ⁂ وهو هجيراه (من جد وجد)
فأياديه إذا ما أنكرت ⁂ إنما تنكرها عين الحسد

***

فقدت مصر (فريداً) وهى فى ⁂ موطن يُعْوِزها فيه المدد
فقدت مصر (فريداً) وهى فى ⁂ لهوة الميدان والموتُ رصد
فقدت منــه خبيراً حُوّلاً[٢] ⁂ وهى والأيام فى أخذ وردّ
لم يكد يُمتِعها الدهر به ⁂ فى ربوع النيل حياً لم يكد
ليتــه عاش قليلا فترى ⁂ شعبَ مصرٍ عينهُ كيف اتحد
وَيْح مصرٍ بل فويحاً للثرى ⁂ إنه أبلغ حزناً وأشــد
كم تمنى وتمنى أهــله ⁂ لو يوارَى فيه ذياك الجسد[٣]

***

لهفَ نفسى هل (ببرلين) امرؤٌ ⁂ فوق ذاك القبر صلّى وسجد ؟
هل بكت عينٌ فروَّت تُرْبَه ⁂ هل على أحجاره خَطّ أحد ؟
هَا هُنا قبرُ شهيد فى هوى ⁂ أمــةٍ أيقظها ثم رقَد !

---

(١) الجد (بالكسر) الاجتهاد ، وبالفتح الحظ . والمعنى : رب اجتهاد أخطأه الحظ .
(٢) الحول : الحاذق البصير بتحويل الأمور .
(٣) يشير فى هذا البيت والبيت الذى سبقه إلى أن جثمان الفقيد ثوى فى برلين ، وقد نقل إلى مصر فى يونيه سنة ١٩٢٠ .

ثورة سنة ١٩١٩

حيا حافظ ثورة سنة ١٩١٩ فى قصيدة نظمها عن أول مظاهرة للسيدات قمن بها يوم ١٦ مارس ١٩١٩ احتجاجاً على عسف الإنجليز حيال المظاهرات السابقة وما ارتكبوه مع المتظاهرين من فظائع القتل والتنكيل ، وقد مجد حافظ شعور السيدات المتظاهرات وشجاعتهن ، وحمل فى قصيدته حملة لاذعة على مسلك الجنود الإنجليز حيالهن ، قال :

خَرَجَ الغوانى يَحْتَجِجْنَ وَرُحتُ أَرْقُبُ جَمْعَهُنَّهْ
فاذا بِهِنَّ تَخذْنَ مِنْ سُودِ الثياب شِعَارَهُنَّهْ
فَطَلَعنَ مِثْلَ كَوَاكِبٍ يَسْطَعْنَ فى وَسَطِ الدُّجُنَّهْ(١)
وأخذن يجتزن الطريق ودار « سعد » قصدهنَّهْ
يمشينَ فى كَنَفِ الوقار وقد أبَنَّ شُعُورَهُنَّهْ
وَإذا بجيشٍ مُقْبِلٍ والخيل مُطْلَقَةَ الأَعِنَّهْ
وإذا الجنودُ سيوفُها قد صُوِّبت لنحورهنَّهْ
وإذا المدافع والبنادق والصوارم والأسنَّهْ
والخيلُ والفرسانُ قد ضَرَبَتْ نطاقاً حولهنَّهْ
والوردُ والرَّيْحانُ فى ذاك النهار سلاحُهُنَّهْ
فتطاحن الجيشان ساعاتٍ تشيب لها الأَجِنَّهْ
فتضعضع النِّسْوانُ والنِّسْوانُ ليس لهنَّ مُنَّهْ(٢)

---

(١) الدجنة : الظلام .

(٢) المنة : القوة .

ثم انهزمْنَ مشتَّتاتِ الشَّمْــل نحو قصورِهِنَّــهْ

***

فليهنأ الجيش الفــخو ر بنصره وبكسرهِنَّهْ!
فــكأنما (الألمـان) قد لَبِسُوا البراقع بينهنَّــهْ
وأتوا (بِهِنْدِنْبُرْج[1]) مُخْتَــفِياً بمصــر يقودُهُنَّــهْ
فلذاك خافــوا بأسَهُنَّ وأشفقوا من كيدهنَّــهْ!

وأنشأ قصيدة حيا بهـا جمعية المرأة الجديدة، وألمع فيها إلى بطولة المرأة في ثورة سنة ١٩١٩. قال:

إليكُنَّ يهدِى النِّيلُ ألف تَحِيَّةٍ مُعَطَّرةٍ فى أسطرٍ عطرات
ويُثنِي على أعمالكُنَّ مُوَكِّلِى[2] بإطْراء أَهْل البرِّ والحسنات
أَقمْتُنَّ بالأَمْس الأَساسَ مُبارَكاً وجئْتُنَّ يومَ الفَتْحِ مُغْتَبِطاتِ
صَنَعْتُنَّ ما يُعْيِي الرجالَ صَنيعُهُ فزدْتُنَّ فى الخيْرات والبرَكات

***

يقولون: نِصفُ النَّاس فى الشَّرق عاطِلٌ نِساء قَضَيْنَ العُمْرَ فى الحُجُرات
وهذى بَناتُ النِّيل يعملْنَ للنُّهى ويَغرِسْنَ غَرْساً دانِيَ الثَّمَرات
وفى السَّنَة السَّوْداء كنتنَّ قُدْوَةً لنا حينَ سالَ الموتُ بالمُهجاتِ
وقفْتُنَّ فى وَجْه الخميس مُدَجَّجاً وكُنْتُنَّ بالإيمان مُعْتَصِمات
وماهالَكُنَّ الرُّمْحُ والسَّيف مُصْلَتاً ولا المدفعُ الرَّشَّاشُ فى الطُّرُقات
تعلَّمْ مِنكن الرجالُ فأصبحوا على غمَراتِ الموْت أهل ثَبات

(١) المارشال هندنبرج، القائد الألمانى الشهير فى الحرب العالمية الأولى.

(٢) موكلى، أى أن النيل قد أنابه عنه فى إبلاغهن ثناءه عليهن.

مصر تتحدث عن نفسها

قصيدة غراء قالها سنة ١٩٢١ على أثر قطع مفاوضات عدلى — كيرزون، حين سفرت نيات الإنجليز فى العدوان على مصر، وقد أشاد فيها بمجد مصر وعظمتها، ثم أشار إليها وهى تستنجد ببنيها البررة على غدرات الأيام ويهيب بهم أن ينظروا من تليد مجدها إلى المثل الأعلى ليحتذوه، ويتعاونوا على التمسك بالحق كاملا حتى يبلغوه، وقد أجرى الخطاب فى القصيدة على لسان مصر لينصت الجميع لصوتها، إذ هى فوق الجميع، وكان عنوان القصيدة حين نشرت (مصر فوق الجميع) وهذه القصيدة أنشدتها سيدة الطرب أم كلثوم من روائع أغانيها:

وَقَفَ الخَلْقُ يَنْظُرون جميعاً ... كيف أبْنِى قَوَاعدَ المَجْد وَحْدِى

وبُناةُ الأَهْرَام فى سالف الدَّهْـ ... ـر كفَوْنى الـكلامَ عند التَّحدِّى

أنا تاجُ العَلاء فى مَفْرِقِ(١) الشَّرْ ... ق ودُرَّاتُه فرائدُ عِقْدِى

أىُّ شَىْءٍ فى الغَرْب قد بَهَرَ النَّا ... سَ جَمَالا ولَمْ يَكُنْ منه عنْدى ؟

فتُرابى تِـبرٌ ونَهْرى فُرَاتٌ ... وسَمَائى مَصْقولَةٌ كالفِرِنْدِ(٢)

أينمَا سِرْتَ جَدْوَلٌ عند كَرْمٍ ... عند زَهْرٍ مُدَنَّرٍ عند رَنْدِ(٣)

ورِجالى لو أنْصَفُوهُمْ لَسَادُوا ... مِنْ كُهُولٍ مِلْءِ العُيونِ ومُرْدِ(٤)

لو أصابوا لَهُمْ مجالاً لأَبْدَوْا ... مُعْجزات الذَّكاء فى كلِّ قَصْدِ

أنا إنْ قَدَّر الإلهُ مماتى ... لا تَرَى الشَّرْقَ يَرْفَعُ الرأس بَعْدِى

***

(١) المفرق : وسط الرأس .
(٢) الفرات : العذب . والفرند : السيف .
(٣) المدنر ، أى مختلف الألوان ، أو المشرق المتلألىء . والرند: شجر طيب الرائحة .
(٤) مرد : جمع أمرد ، وهو الشاب .

ما رَمانى رامٍ راحَ سـليماً مِنْ قَدِيمٍ عنايَـةُ الله جُنْدى
كم بَغَتْ دَوْلَةٌ علىَّ وجارَتْ ثمّ زالَتْ وتِـلكَ عُقبَى التَّعدِّى
إنّنى حُـرَّةٌ كَسَرْتُ قُيودى رَغْمَ رُقْبي العِدَا وقطَّعتُ قدِّى(١)

***

قُـلْ لمنْ أنْـكَروا مفاخرَ قَوْمى مِثْلَ ما أنْـكَرُوا مَآثِرَ وُلْدى
هَلْ وَقَفْتُمْ بقِمّـةِ الهَرَمِ الأَكْـبرِ يوماً فَرَيْـتُمُ بَعْضَ جُهْدى ؟(٢)
هَلْ رَأَيْـتُمْ تلك النقُوشَ اللَّواتى أعْجزَتْ طَوْقَ صَنْعَةِ المُتَحَدِّى ؟
حالَ لَوْنُ النَّهارِ مِنْ قِدَمِ العَهْـدِ وما مَسَّ لونَها طُولُ عَهْـدِ
هَلْ فَهِمْـتُم أسْرَارَ ما كان عَنْدى من عُلُومٍ مَخْبُوءَةٍ طَىَّ بُرْدى ؟
ذاكَ فَنُّ التَّحنيط قد غَلَبَ الدَّهْـرَ وأبْـلَى البِلَى وأعْجزَ نِدِّى

***

قد عقَدتُ العهودَ منْ عَهد فرْعَو نَ ففى (مصرَ) كان أولُ عَقْدِ
إنّ مَجْدى فى الأُولَيات عريقٌ مَن له مثل أُولياتى ومَجْـدى ؟
أنا أمُّ (التَّشريع) قد أخذَ الرُّو مانُ عنىِّ الأصولَ فى كلِّ حَدّ
ورصَدتُ النُّجومَ مُنْذُ أضاءتْ فى سماء الدُّجىَ فأحكمتُ رَصْدى
وَشَدَا (بنتئور(٣)) فَوقَ رُبوعى قَبْلَ عهْد اليُونان أو عهْد (نَجدِ)

---

(١) القد : القيد ، بقد من جلد .

(٢) فريتم ، أى فرأيتم .

(٣) بنتئور : أقدم شاعرعرفه التاريخ وهو مصرى ، وقبل عهد اليونان الخ ، أى قبل شعراء اليونان وشعراء العرب .

أَتُرانى وقد طَوَيتُ حيــاتى في مراسٍ لَمْ أَبْلُغ اليومَ رُشْدى ؟
أَىُّ شعْبٍ أحقُّ منِّى بعَيْشٍ وارِف الظلِّ أخضر اللَّون رَغْدِ ؟

***

أَمِنَ العَــدل أنَّهم يَرِدُون الـ ـماءَ صَفواً وأن يُــكَدَّرَ وِردِى ؟
أَمِنَ الحقِّ أنَّهم يُطلِقون الـ أُسدَ منهم وأن تُقَيَّدَ أُسْدى ؟
نصفُ قَرنٍ إلاَّ قليــلا أُعانى ما يُعانى هَوانَه كُلُّ عبـد(١)
نَظَــرَ اللّهُ لى فأَرشَــدَ أبنــا ئى فشَدُّوا إلى العُــلاَ أىَّ شَدِّ
إنما الحقُّ قُــوّةٌ من قُوَى الدَّ يَانِ أمضَى مِن كُلِّ أبيَض هِندى

وقال فى تمجيد التضحية والصمود والصبر أمام الشدائد :

قد وَعَــدتُ العُــلَى بكلِّ أَبِىٍّ من رجالى فأَنجِزُوا اليوم وعدى
أمهِرُوها بالرُّوح فهى عَــروسٌ تَشنَأُ المهرَ من عُرُوضٍ ونَقدِ(٢)
وَرِدُوا بِى مناهــلَ العزِّ حتى يَخطُبَ النجمُ فى المَجَرّة وُدِّى
وارفعَوا دولتى على العِـلم والأَخـ ـلاق فالعلم وَحــدَه ليس يُجدِى
وتوَاصَوا بالصّــبرِ فالصبرُ إن فا رَقَ قوماً فمــا لَه مِن مَسَدِّ
خُلُقُ الصَّبرِ وَحْده نَصَرَ القو مَ وأغنَى عن اختراعٍ وعَدِّ
شَهِدُوا حَوْمَةَ الوَغَى بنُفُوسٍ صابراتٍ وأوْجُهٍ غَــيرِ رُبْدِ
فمحا الصَّبرُ آيةَ العِلْمِ فى الحَرْبِ وأنحَى عَــلى القَوىِّ الأشَدِّ

(١) يقصد عهد الاحتلال البريطانى.
(٢) تشنأ : تكره.

وقال يدعو إلى توحيد الكلمة ونبذ الشقاق وكانت البلاد وقتئذ فى غمرة من الانقسام :

إنَّ فى الغَرْب أعيُنًا راصِداتٍ كحلَتْها الأطماعُ فيكم بسُهدِ
فَوْقها مِجْهَرٌ يُريهــا خفايا كُمْ ويطْوى شُعاعهُ كُلَّ بُعْدِ
فاتقُوها بجُنَّةٍ من وئامٍ غير رَثٍّ العُرا وسَعْيٍ وكَدِّ
واصفحوا عن هَنَاتِ مَن كان منكم رُبَّ هافٍ هفَا على غير عَمْدِ

نَحْنُ نَجْتازُ مَوْقِفاً تعثُرُ الآ راءُ فيه وعَثْرَةُ الرأى تُرْدِى
ونُعيرُ الأهْواءَ حَرْباً عَواناً من خِلافٍ والخُلْفُ كالسُّلِّ يُعْدِى
ونُثيرُ الفَوْضَى عـــلى جانِبَيْهِ فيُعيد الجهولُ فيهــا ويُبْدِى

ويَظُنُّ الغَوِىُّ أنْ لا نظامٌ ويقول القوىُّ قــد جَدَّ جِدِّى
فقِفُوا فيـــه وَقفة الحزم وارمُوا جانبيْه بعَـــزمَة المستعِـــدِّ
إننا عنـــد فجر لَيلٍ طويلٍ قـــد قطعناه بين سُهْدٍ وَوَجْدِ
غَمَرتنا سُودُ الأهاويل(١) فيـــه والأمانىُّ بين جَزرٍ ومَدِّ
وتَجَلى ضياؤُه بعـــد لأىٍ وهـــو رَمزٌ لعَهدِىَ المُسْتَرَدِّ
فاستبينوا قصدَ السَّبيل وجِدُّوا فالمعـــالى مخطوبةٌ للمُجِـــدِّ

الاستقلال المقيد

قالها عندما أعلن تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ :

أصبحتُ لا أدرى عــلى خِبْرَةٍ أجَدَّتِ الأيامُ أم تَمزَحُ ؟

(١) الأهاويل جمع أهوال .

أموقِفٌ للجِدِّ نجتازُه أمْ ذاكَ للاهى بنا مَسْرَحُ ؟
ألمحُ لاستقلالنا لَمْعةً فى حالكِ الشكِّ فأستروِحُ
وتطمِسُ الظُلْمَةُ آثارها فأنثنى أُنكرُ ما ألمحُ
قد حارتِ الأفهامُ فى أمرهم إنْ لمّحوا بالقصْدِ أو صرّحوا !
فقائلٌ لا تعجَلوا إنكم مكانَكم بالأمسِ لم تبرَحوا
وقائلٌ أوسِعْ بها خُطْوةً وراءها الغايةُ والمطمحُ
وقائلٌ أسْرَفَ فى قوله : هذا هوَ استقلالُكم فافرحوا
إنْ تسألوا العقلَ يقلْ عاهِدوا واستوْثِقوا فى عَهْدِكم تربحوا
وأسّسوا داراً لنوّابكمْ للرأى فيها والحِجَا أفسحوا
ولتَذْكُرِ الأُمَّةُ ميثاقها ألاّ ترى عِزّتَها تُجرَحُ
وتنتخِبْ صفوةَ أبنائها فمنهمُ المُخلِصُ والمُصلِحُ
وليتّقِ اللهَ أولو أمرها أن يُسكِتوا الأصواتَ أو يُرفِحوا(١)
أو تسألوا القلبَ يقلْ حاذروا وصابروا أعداءكم تُفلِحوا
إنى أرى قيداً فلا تُسلِموا أيديَكم فالقيدُ لا يَسجِحُ(٢)
إن هيأوه من حريرٍ لكم فهو على لينٍ به أفدحُ
حتّامَ — والصبرُ له غايةٌ — لغيرنا من بِرّنا نمتحُ ؟
حتامَ — والأموالُ مشفوهةٌ —(٣) نمنحُ إلا (مِصرَ) ما نمنحُ ؟

(١) يريد تأمين المواطنين من النفى إلى (رفح) وكانت منذ ثورة سنة ١٩١٩ منفى للأحرار .

(٢) يلين ويسهل .

(٣) أى مستنفدة مضيعة .

حتام يُمضى أمرنا غـيرنا وذاك بالأحرار لا يَملُحُ ؟

وعاد يدعو إلى الوحدة والوئام ويستنكر الفرقة والانقسام :

أساء بعضُ الناس فى بعضهم ظنا وقد أمسَوْا وقد أصبَحوا
فانتهزَتْ أعـداؤنا نُهزَةً فينا وما كانت لهم تَسنَحُ
فالرأىُ كلُّ الرأى أن تُجمِعوا فإنمـا إجماعُكم أرْجَحُ
وكلُّ من يطمعُ فى صَدْعِكم فإنه فى صـخرةٍ ينْطَحُ
أخْشَى إذا استكثَرْتمْ بينكم من قادةِ الآراء أن تُفْضَحوا
فلْتَقْصُدوا مااستطَعْتم فيهمُ فإنمـا فى القلة المنجَح

يستحث المواطنين على التضحية والجهاد

نظم حافظ سنة ١٩٠٤ قصيدة رائعة عن (غادة اليابان) ضرب فيها الأمثال فى التضحية والجهاد، وجعلها على لسان غادة وطنية من اليابان وأشاد بشجاعتها فى الحرب التى شبت بين بلادها والروسيا عام ١٩٠٤ ، إذ ذهبت متطوعة إلى ميادين القتال تواسى الجرحى، وترعى حقهم قال :

لا تلم كفى إذا السيف نبا(١) صَحَّ منى العزمُ والدهرُ أبى
ربَّ ساعٍ مُبصرٍ فى سعيه أخطأ التوفيق فيما طلبـا
مرحباً بالخطب يَبلونى إذا كانت العلياء فيـه السببا
إيه يادنيا اهبسى أو فابسمى لا أرى برقَكَ إلا خُلَّبا(٢)

(١) نبا السيف : كل وارتد .
(٢) البرق الخاب الذى ينتظر الناس مطره ويخلفهم .

إلى أن قال :

كنتُ أهوى فى زمانى غادةً وَهبَ الله لها ما وهبا
حَمَلَتْ لى ذات يوم نبأ لا رعاك الله ياذاك النبأ
وأنت تخطر والليل فتًى وهلالُ الأفق فى الأفق حبَا
ثم قالت لى بثغر باسم نظمَ الدرُّ به والحببَا
نَبأونى برحيـــل عاجلٍ لا أرى لى بعده مُنْقلبا(١)
ودعانى موطنى أن أغتدى(٢) علَّنى أقضى له ما وهبا
نذبح الدُّبّ(٣) ونَفرى جلدَه أيظنّ الدبُّ أن لا يُغلَبا ؟

***

قلتُ والآلام تغرى مهجتى وَيكِ! ما تصنعُ فى الحرب الظِّبا ؟
ما عهدناها لظبىٍ مسرحها يبتغى ملهى به أو ملعبا
ليست الحرب نفوساً تشترَى بالتمنى أو عقولا تُستبَى
أحسبتِ القدَّ من عدّتها أم ظننت اللحظ فيها كالشَّبا(٤)
فدعيها للذى يعرفهـا والزمى ياظبية البان اِلخبا(٥)

***

فأجابتنى بصوتٍ راعنى وأرتنى الظَّبْىَ لَيثاً أغلبا

(١) المنقلب : العودة .
(٢) أغتدى ، أى أبادر مبكرة للدفاع عنه .
(٣) الدب : رمز لروسيا .
(٤) الشبا : جمع شباة وهى حد السيف .
(٥) البان : شجر لين تألفه الظبا ، والخبا : البيت .

إن قومى استعذبوا وِرْدَ الرَّدَى   كيف تدعوننى ألا أشربا ؟
أنا يا بانيــة لا أنثنى   عن مرادى أو أذوق العَطبا
أنا إن لم أحسن الرمىَ ولم   تستطع كفَّاى تقليب الظُّبا
أخدم الجرحى وأقضى حقهم   وأُواسى فى الوغى من نُكبا
هكذا (الميكادُ) قد علَّمنا   أن نرى الأوطانَ أُماً وأبا
ملكٌ يكفيكُ منه أنه   أنهضَ الشرق فهزَّ المغربا
بعث الأمة من مرقدها   ودعا للعلا أن تَدْأبا
فَسَمَت للمجد تبغى شأوه   وقضتْ من كل شىء مأربا

يستنهض الهمم ، ويدعو إلى توحيد الكلمة

قال من قصيدة له سنة ١٩٢٣ يخاطب المواطنين :

ويدُ الإله مع الجماعة فاضربوا   بعصا الجماعة تَظْفَروا بنجاح
كونوا رجالا عاملين وكذِّبوا   ـ والصبحُ أبلجُ ـ حاملَ المصباح(١)
ودعوا التخاذل فى الأمور فإنما   شَبَحُ التخاذل أنكرُ الأشباح
واللهِ ما بلغ الشقاء بنا المدى   بسوى خلافٍ بيننا وتلاحى(٢)

***

قُم يا ابنَ مصر فأنت حرٌ واستعِد   مجد الجدود ولا تَعُد لِمراح(٣)

(١) الإشارة إلى الفايسوف ديوجنس الذى كان يحمل فى رابعة النهار مصباحا يبحث عن رجل .
(٢) التلاحى : التخاصم .
(٣) يريد بمراح : الأخذ بأسباب المرح واللهو

شمِّر وكافح فى الحيــاة فهــذه دُنياك دارُ تناحر وكفاح
وإذا ألح عليك خطبٌ لا تَهُن واضرِب على الإلحاح بالإلحاح
وخُضِ الحياة وإن تلاطم موجُها خوضُ البحار رياضــةُ السباح
فى البحر لا تثنيك نارُ بوارجٍ فى البر لا يلويك غابُ رماح
وانظر إلى الغربىِّ كيف سَمَت به بين الشعوب طبيعة الكَدَّاح

إلى أن قال :

وابنُ الكنانة فى الكنانة راكدٌ يَرنُو بعينٍ غير ذات طماح
لا يستغل كما علمتَ ذكاءه وذكاؤه كالخاطف اللَّمـــاح
فانهَض وَدَع شكوى الزمان ولا تَنُح فى فادح البؤسَى مع الأنواح
واربح لمصر برأس مالك عِـــزَّةً إن الذكاء حُبالة الأرباح
واشرب من المـاء القُراح مُنعَّماً فلكم وردتَ الماء غيرَ قَرَاحِ

يحذر سعدا من خداع الإنجليز

قال سنة ١٩٢٤ يخاطب سعد زغلول من قصيدة له فى تهنئته بنجاته من محاولة اغتياله وكان إذ ذاك معتزماً السفر إلى لندن لمفاوضة الحكومة البريطانية فى القضية الوطنية :

لا تقرب (التاميزَ) واحذرْ ماءه مهما بــدا لك أنه معســولُ
الكيْدُ ممزوجٌ بأصــفى مائه والخَتْل(١) فيه مُذَوَّبٌ مصقول
كم واردٍ يا (سعدُ) قبلك ماءه قــد عاد منــه وفى الفؤاد غليل(٢)

(١) الختل : الخداع والمكر .
(٢) الغليل : شدة العطش .

القومُ قــد ملــكوا عِنانَ زمانهم ولهم روايات به وفصــول
ولهم أحابيلٌ(١) إذا ألقَوْا بهــا قَنصوا النُّهَى فأسـيرُهم مخبول
ولــكل لفظٍ فى المعاجم عنـــدهم معنى يقـــال بأنه معقــول
نَصَلَت(٢) سياستُهم وحالَ صباغُها ولــكل كاذبة الخضابِ نُصول
جمعوا عقاقير الدواء وركَّبوا ما ركبوه وعندك التحليل

حافظ والإنجليز وجها لوجه

فى سنة ١٩٣٢ ساهم الإنجليز مع العناصر الرجعية فى إلغاء الحيــاة الدستورية ، وتظاهروا بأنهم على الحياد فى هذه المحنة ، مع أنهم مدبروها ، وقد هاجمهم حافظ بقصائد رائعة نعى فيها عليهم بغيهم وعدوانهم ، وكشف فيها الستار عن حيادهم الـكاذب ، وطعن على سياسة الاستعمار عامة ، وأعاد بحملاته عليهم ذكرى قصائده الوطنية الخالدة التى نظمها فى تمجيد الحركة الوطنية ومهاجمته الاحتلال فى عهد مصطفى كامل ومحمد فريد .

قال فى مارس سنة ١٩٣٢ مخاطباً الإنجليز منددا بسياسة « الحياد » التى أعلنوها ، ناعيا عليهم ظلمهم وإخلافهم وعودهم للأمة :

بَنَيْتُمْ على الأخلاق آساسَ مُلْكِكم فــكان لــكم بين الشعوب ذِمامُ(٣)
فمالى أرى الأخلاق قد شاب قَرنُها(٤) وحَلَّ بها ضعفٌ ودَبَّ سقام

(١) الأحابيل : المصايد .
(٢) نصلت : انكشفت وخرجت من لونها الـكاذب إلى لونها الحقيقى . وحال : تحول .
(٣) الذمام هنا الحق والحرمة .
(٤) القرن : الذؤابة من الشعر .

أخاف عليكم عثْرَةً بعد نهضة فليس لملك الظالمين دَوام
أضَعتم وداداً لو رعَيتم عهوده لما قام بين الأمنين خصام
أبعد « حيادٍ » لاراعى الله عهدَه وبعد الجروحِ الناغراتِ[1] وئام ؟
إذا كان فى حسن التَّفاهم مَوتُنا فليس على باغى الحياة مَلام

وقال فى هذا المعنى :

لا تَذْكروا الأخلاقَ بعد «حيادكم» فمصابكم ومصابنا سيّان
حاربتمو أخلاقكم لِتحاربوا أخلاقنا فتألّم الشعْبانِ

وقال عن (الحياد الكاذب) :

قَصرَ الدُّبارة قد نقضـ ـت العهدَ نَقض الغاصب
أخفيتَ ما أضمرتَه وأبنتَ ود الصاحب
الحربُ أروحُ للنفو س من «الحياد» الكاذب

وقال مخاطباً السير برسى لورين المندوب السامى البريطانى وقتئذ ، مندداً بحياد الإنجليز المصطنع :

ألم ترَ فى الطريق إلى « كباد »[2] تصيد البطّ بؤس العالمينا ؟
ألم تلمح دموعَ الناس تجرى من البلوى — ألم تسمع أنينا ؟
ألم تخبر بنى « التاميز » عنا وقد بعثوك مندوباً أمينا ؟

---

(١) الناغرات : الداميات .

(٢) بركة بمركز فاقوس بالشرقية كان المندوب السامى البريطانى يذهب إليها لصيد الطيور .

بأنا قد لمسنا الغــدر لَمساً وأصبح ظننا فيــكم يقينا
كشفنا عن نواياكم فلستم وقد برح الخفاء محايدينا
سنجمع أمرنا فترون منا لدى الجُلَّى[١] كراماً صابرينا
ونأخــذ حقنا رغم العوادى تُطيف بنا ورغم القاسطينا[٢]
ضربتم حَولَ قادتنا نطاقا من النيران يُعيي الدّارعينا
على رغم المروءة قد ظفرتم ولــكن بالأسود مصفّدينا
فهل يجديكم الأسطول نفعا إذا ما نازل الحقّ المبينا ؟

وقال فى هذا المعنى (ابريل سنة ١٩٣٢) :

(إلى المحايدين)

أمُحايدٌ أمْ حائدٌ عن منهج الحق المبينَّ ؟
نازلتَ شــعباً أعزلا بمدرّعين مدججينَّ
وأمنتَ عقبى الظالمين وبئْسَ عقبى الظالمين !
مهما تُصِبْنا فلســنا الجازعين اليائسين
إنَّا بجبار السماء وبالعقيــدة نَستْعين
إن العقيدة لا تزلــزلها حرابُ الغاصبين

(١) الجلى : النازلة الشديدة .

(٢) القاسطون : الظالمون .

فلئن ملكتم يومكم لغدٌ لرب العالمين

أأمنتو صرفَ الزمان وفتكه بالغاشمين ؟

***

كم من قويٍّ هدّه كَيْدُ الضعيف المستكين

أو لمْ تروْا ما ذاقه بالأمس ذياك السجين(١) ؟

فى (سنت هيلين) قضى من دَوَّخَ الدنيا سنينَ

من كان فى غاراته فى الكون منقطعَ القرين

أمسى ألانَتْه الخطوب وكان صلباً لا يلين

أوَ تتقون مصيره أم لستمو بالمتقين ؟

***

ضِقْنا بكيد محايدين لنا وكيد مبشرين

ثاروا على دين الهدى وتخطفوا منا البنين

داسوا العرين وقد خلا من أسده ذاك العرين

خسر المبشر ، إنَّ دين الحق دين المسلمين

الله حاميه وكافيه شرورَ المعتدين

نحن والإنجليز وجها لوجه

وقال أيضاً :

قل للمحايد هل شهدت دماءنا تجرى وهل بعد الدماء سلام ؟

سفكت مودتنا لكم وبدالنا أن الحياد على الخصام لثام

(١) نابليون ، وقد مات أسيرا سجينا فى جزيرة سنت هيلين .

إن المراجل شرُّها لا يُتقَى حتى ينفس كربَهن ّ صمام
لم يبق فينا من يمنّى نفسه بودادكم فودادكم أحلام
أمن السياسة والمروءة أننا نَشقَى بكم فى أرضنا و ُنضام ؟
إنّا جمعنا للجهاد صفوفنا سنموت أو نحيي وَنحن كرام

وقال فى أبريل سنة ١٩٣٢ تحت عنوان (إلى الإنجليز) ، وهى من أبلغ ما قيل فى تحدى القوة الغاشمة والصمود أمام الشدائد مهما عظمت :

حوِّلوا النيلَ واحجبوا الضوء عنا واطمِسُوا النجمَ واحرمونا النسيما
واملأوا البحر إن أردتم سفيناً واملأوا الجو إن أردتم رُجوما
وأقيموا للعسف فى كل شِبرٍ (كونستبلا) بالسوطيفَرِى الأديما(١)
إننا لن نحول عن عهد مصرٍ أو ترونا فى التراب عظماً رميما

***

عاصفٌ صان مُلككم وحماكم وكفاكم بالأمس خطباً جسيما
غال (أرمادةَ(٢)) العدو ففزتم وبلغتم فى الشرق شأوا عظيما
فعدلتم هنيهةً ، وبغَيتم وتركتم فى النيل عهداً ذميما
فشهدنا ظلما يقال له العدلُ ووداً يسقى الحميم الحميا(٣)
فاتقّوا غضبةَ العواصف إنى قد رأيت المصير أمسى وخيما !

(١) يفرى الأديم أن يشق الجلد .
(٢) الأرمادة هى الأسطول الأسبانى الذى تحطم فى القرن السادس عشر بعاصفة حالت بينه وبين مهاجمة الأسطول الإنجليزى الذى كان دونه قوة وعددا .
(٣) الحميم الأول الصديق ، والحميم الثانى الشراب الشديد الحرارة .

وقال أيضاً (أبريل سنة ١٩٣٢) :

لقــد طال الحيادُ ولم تَـكُفّوا   أما أرضاكُم ثمنُ الحيــاد ؟
أخــذتم كل ما تبغون منــا   فمــا هــذا التحكّم فى العباد ؟
بــلونا شــدّةً منكم وليناً   فـكان كلاهما ذرّ الرّماد
وســالمتم وعاديــتم زمانا   فلم يُغنِ المُسالِم والمعــادى
فليس وراءكم غــير التّجنّى   وليس أمامنــا غــير الجهــاد

وعود الانجليز فى الجلاء

وقال فى سنة ١٩٣٢ يندد بكاتب فرنسى زعم أن جلاء الإنجليز سيكون فى أكتوبر من ذلك العام :

كم حددوا يوم الجـلاء الذى   أصبح فى الإبهـام كالمحشر
وَسن قوم الطيش من جهلهم   كذبة (إبريل لأكتوبر)

حافظ وصدقى باشا

وقال فى سنة ١٩٣٢ يندد بسياسة صدقى باشا رئيس الوزارة وقتئذ من قصيدة لم ينشر منها إلا النزر اليسير :

قد مرَّ عامٌ يا ســعادُ وعام   وابنُ الـكنانة فى حماه يضامُ
صَبُّوا البلاء على العباد فنصفهم   يجبي البـلاد ونصفهم حكام
أشكو إلى (قصر الدبارة) ماجنى   (صدقى) الوزيروماجني(علّام[1])

---

(١) محمد علام باشا ، وكيل حزب الشعب الذى ألفه صدقى باشا . يشير إلى ما كانوا يجبونهمن الأموال إعانة لحزب الشعب .

ومنها فى مخاطبة صدقى باشا :

ودعا عليك الله فى محـــرابه   الشيخُ والقسِّيس والحاخام
لا هُمَّ أحيِ ضميرَه ليذوقَها   غَصصاً وتنسف نفسَه الآلام

يكافح الاستعمار ويدعو إلى الفداء

قال فى حرب طرابلس (سنة ١٩١١ — ١٩١٢) حين اعتدت إيطاليا على العرب يستحث أمم الشرق أن تنهض وتـكافح الاستعمار ، ويمجد التضحية فى سبيل الحرية :

طَمَعٌ ألقَى عن الغَرْب اللِّثاما   فاستَفِقْ يا شَرْقُ واحذَرْ أنْ تناما !
واحمِلِى أيتهـــا الشمس إلى   كلِّ من يسْـكن فى الشَّرق السَّلاما
واشهَدى يومَ التَّنادى(١) أنّنا   فى سبيل الحقِّ قد متْنا كِراما
مادتِ الأرض بناحين انتَشَت من   دم القَتلى حلالاً وحراما
عجز الطَّلْيانُ عن أيْطالنا   فَأَعَلُّوا(٢) منْ دَرارينا الُحساما
كبَّلوهم ، قتـــلوهم ، مثَّلوا   بذَوات الخِدْر ، طاحوا باليتامى
ذَبَحُوا الأشْياخَ والزَّمْنَى(٣) ، ولم   يرحموا طفلاً ، ولم يُبقُوا غُلاما
أحرقوا الدُّورَ ، استحلُّوا كلّ ما   حَرّمَت (لاهایُ) فى العَهْد احتراما
بارَكَ المطرانُ فى أعمــالهمْ   فســـلوه : بارك القوم عـــلاما ؟
أبهـــذا جاءهم إنْجيلهم   آمراً يُلقِي على الأرض سلاما ؟

---

(١) يوم القيامة .
(٢) أعلوا أى سقوا .
(٣) الزمنى : ذوو العاهات .

كشفوا عن نيّة الغَرْب لنـا وجَلَوْا عن أُفُق الشَّرق الظَّلاما
فقرأْناها ســطوراً من دمٍ أقسمَتْ تَلْتَهم الشَّرق التهاما

وختم قصيدته بقوله :

فاطئنّى أُمم الشَّرق ولا تَقْنَطى اليوم فإنَّ الجـدّ قاما
إنَّ فى أضْلاعنا أفئـدةً تعشقُ المجدَ ، وتأْبى أن تُضاما

تمجيده للشورى

قال فى عمريته المشهورة التى أنشأها فى سيرة أمـير المؤمنين عمر ابن الخطاب :

يا رافعاً رايةَ الشُّورى وحارسها جزاكَ ربُّك خيراً عن مُحِبِّيها
لم يُلْهِك النَّزْعُ عن تأييد دولتها(١) وللمَنيَّةِ آلامٌ تُعانيهـا
لم أنْسَ أمرك للمِقدادِ يحملُه إلى الجمـاعة إنْذَارا وتنْبيها
إنْ ظلَّ بعد ثلاثٍ(٢) رأْيُها شُعَباً فجرِّد السيف واضربْ فى هَوادِيها
فاعجَبْ لقوّة نفسٍ ليس يصرفها طَعْمُ المنيَّة مُرًّا عن مراميها
دَرَى عَميدُ بَنى الشُّورَى بموضعها فعاش ما عاشَ يَبْنيها ويُعْلِيها
وما استَبَدّ برأْيٍ فى حكومته إنَّ الحكومة تُغْرى مستَبدِّيها
رأى الجماعة لا تَشْقَى البلادُ به رغْم الخلاف ورأْيُ الفرد يُشقِيها

(١) دولتها ، أى دولة الشورى .
(٢) بعد ثلاث ، أى بعد ثلاث ليال . والهوادى : الأعناق .

الاستمرار فى الكفاح

قال سنة ١٩٢٤ يدعو إلى الاستمرار فى الكفاح :

إنا سنعْمل للخــلاص ولا نَنِي　　والله يَقْضِى بيننــا ويُدِيل(١)
كم دولةٍ شَهِد الصباحُ جلالهــا　　وأتى عليهـا الليــل وهى فُلُولُ
وقصورِ قومٍ زاهراتٍ فى الدُّجَى　　طَلَعَتْ عليها الشمس وهى طُلُولُ

***

يأيهــا النَّشءُ الكِرام تحيَّـــةً　　كالرَّوض قدخطرت عليه قَبول(٢)
يازَهْرَ مصرَ وزَيْنَهــا وحُماتهــا　　مَدْحى لـكم بعد الرئيس(٣) فُضُولُ
جُدْتُمْ لها بالنفس فى وَردِ الصِّبا　　والورد لم يُنظَرْ إليـــه ذُبولُ
كم من سجينٍ دُونَها ومجاهدٍ　　دَمُهُ على عَرَصاتِها مَطْلُولُ
سيروا على سَنَنِ الرئيس وحقِّقوا　　أمـل البـلاد فـكلُّـكُم مأمولُ
أنتُم رجال غــدٍ وقد أوفَى غَــدٌ　　فاستقبِلوه وحَجِّـلوه وطُولوا(٤)

تقريعه للمواطنين

وبلغ حثه المواطنين على النهوض حد التقريع أحياناً . وله سنة ١٩٠٤ قصيدة ينعى فيها على مواطنيه بعض عيوبهم الاجتماعية ، وقد نظمها لمناسبة

---

(١) يديل ، أى يجعل الدولة لنا عليهم .
(٢) القبول : ريح الصبا
(٣) يقصد هنا سعد زغلول
(٤) حجلوة ، أى اجعلوه يوما ابيض ، وطولوا أى افخروا واعتزوا

قضية شخصية ثار لها الرأى العام بغير موجب ، إذ تزوج صاحب المؤيد المرحوم الشيخ على يوسف بكريمة السيد عبد الخالق السادات ، فرفع هذا دعوى أمام المحكمة الشرعية طالباً فسخ عقد الزواج بحجة عدم الكفاءة فى النسب ، وانحاز الرأى العام إلى جانب المدعى ، وأخذ القضاء بوجهة نظره رغم علو مكانة الشيخ على يوسف فى الهيئة الاجتماعية ، قال حافظ :

حَطّمتُ اليراعَ فلا تَعْجَبي ... وعِفْتُ البيان فلا تعتَبي
فما أنتِ يا مصر دار الأديب ... ولا أنت بالبلد الطَّيِّبِ
وكم فيك يا مصر من كاتبٍ ... أقالَ اليراع ولم يكتُبِ
فلا تعذليني لهذا السُّكوت ... فقد ضاق منك ما ضاق بى
أيعجبُني منكِ يومَ (الوفاق)(١) ... سكوت الجماد ولعِبُ الصَّبي ؟
وكم غضب الناسُ من قبلنا ... لسَلْبِ الحقوق ولم تَغْضَبِ

***

أنابتةَ العصر إنّ الغريب ... مُجِدٌّ بمصر فلا تَلْعَبى
يقولون : فى النَّشءِ خيرٌ لنا ... وللنَّشءِ شَرٌّ من الأجنبي
أفى (الأزبكيَّة) مَثوىَ البنين ... وبين المساجد مَثوىَ الأب ؟
(وكم ذا بمصر من المُضحكات) ... كما قال فيها (أبو الطَّيِّب)(٢)
أُمورٌ تَمرٌّ وعَيْشٌ يمرٌّ(٣) ... ونحن من اللّهوِ فى مَلْعَب

(١) يقصد الاتفاق الذى عقد بين فرنسا وبريطانيا سنة ١٩٠٤ وبمقتضاه أقرت فرنسا الاحتلال البريطانى لمصر .

(٢) يشير إلى قول أبى الطيب المتنبى : (وكم ذا بمصر من المضحكات ولكنه ضحك كالبكا) .

(٣) عيش يمر ، أى يصير مراً .

وشعبٌ يفرُّ من الصالحات فِرارَ السَّليم من الأجربِ
وصُحفٌ تَطِنُّ طنينَ الذُّباب وأُخرى تَشُنُّ على الأقرَبِ
وهذا يلوذ بقصر الأمير ويدعو إلى ظلّه الأرحبِ
وهذا يلوذ بقَصر السَّفير ويُطْنِبُ فى ورده الأعذبِ
وهذا يَصيح مع الصَّائحين على غير قصدٍ ولا مأْربِ

***

وقالوا : (المؤيَّدُ) فى غمرةٍ رماه بها الطّمع الأَشْعبي
دعاهُ الغرام بسنٍّ الكهول فجنَّ جُنوناً بِبِنْتِ النَّبي !
فضجَّ لها العرش والحاملوه وضج لها القبْر فى (يَثْرِب[1])
ونادى رجالٌ بإسقاطه وقالوا : تَلوّن فى المشربِ
وعَدُّوا عليه من السَّيِّئات ألوفاً تدور مع الأحقُبِ
وقالوا لَصيقٌ ببيْت الرسول أغار على النَّسَب الأنْجَبِ
وزَكَّى (أبو خَطْوَةٍ) قولهم بحُكمٍ أحَدَّ من المضْرَبِ
فما للتّهانى على داره تَساقَطُ كالمَطَر الصَّيِّبِ ؟
وما للوفود على بابه تَزُفُّ البشائرَ فى موكِبِ ؟
وما للخليفة أسْدَى إليه وساماً يليق بصدْر الأبِي ؟

***

فيا أمةً ضاق عن وصفها جَنَانُ المُفوَّه والأخْطَبِ

---

(١) اسم قديم للمدينة المنورة .

تضيع الحقيقـة ما بيننـا ويَصْلَى البرىء مـع المذنب ؟
ويُهْضَم فينا الإمام الحكيمْ ويُكرَمُ فينا الجهـول الغبي

***

على الشرق منّى سلامُ الوَدود وإنْ طأطأ الشرق للغرْب
لقد كان خِصباً بجدْب الزّمان فأجدَب فى الزمن المُخْصِب

شعره الاجتماعى

يزخر شعر حافظ بالاجتماعيات ، فهو من هذه الناحية أغزر مادة وأعمق غورا من شوقى ، ولا غرو فقد كان أكثر اتصالا بالطبقات الشعبية ، وعانى ماتعانيه من الألم والحرمان ، فصار أدق تصويرا لأحوالها وآلامها ، وفى ذلك يقول بحق عن نفسه فى قصيدته التى أنشدها بدار الأوبرا سنة ١٩١١ فى حفلة جمعية رعاية الأطفال :

لم أقف مَوْقفى لأُنشِدَ شعراً صُبَّ فى قالبٍ بديع النِّظام
إنّما قمتُ فيه والنَّفس نَشْوَى من كؤوس الهموم والقلب دامى
ذُقْتُ طعم الأَسَى وكابدت عيْشاً دُونَ شُرْبِى قَذَاهُ شربُ الحِمام(١)
فتقلَّبْتُ فى الشَّـقاء زمانا وتنقَّلتُ فى الخطوب الجِسام
ومشى الهمُّ ثاقِباً فى فُؤادى ومشى الحزن ناخِراً فى عِظامى
فلهـذا وقفتُ أستَعطِف النَّا سَ علـى البائسين فى كلّ عام

(١) الحمام الموت .

عطفه على منكوبى حريق ميت غمر

فى سنة ١٩٠٢ شب حريق مروع فى مدينة ميت غمر ، وبقيت النار مشتعلة فيها عدة أيام ، فدمرت كثيراً من دورها ومات فى الحريق كثيرون ؛ ولعظم النكبة تسابق أهل الخير فى إعانة المنكوبين وإسعافهم ، وفاضت أعمدة الصحف بأنباء ما أصابهم ، وفى ذلك أنشأ حافظ قصيدته المشهورة فى وصف هذه الكارثة والعطف على ضحاياها . قال :

سائلوا اللَّيل عنهمُ والنَّهارا　　كيف باتت نساؤهم والعذارَى ؟
كيف أمسَى رضيعهم فقَدَ الأُ　　مَّ وكيف اصطلى مع القومِ ناراً ؟
كيف طاح العجوز تحت جِدار　　يتداعَى وأسقُفٍ تتجارَى ؟
رَبِّ إنَّ القضاء أنحى عليهم　　فاكشف الكرْبَ واحجُب الأقدَارا
ومُرِ النَّارَ أنْ تكُفَّ أذاها　　ومر الغيث أن يسيل انهمارا
أين طوفان صاحب الفُلْك يُروِى　　هذه النَّار فهى تشكو الأُوارا(١)
أشعلتْ فَحْمَةَ الدَّياجى فباتت　　تملأُ الأَرض والسَّماء شَرارا
غَشِيتْهم والنَّحسُ يجْرِى يَميناً　　ورمتْهم والبُؤسُ يجْرِى يَسارا
فأغارتْ وأوْجهُ القومِ بِيضٌ　　ثمَّ غارَتْ وقد كَسَتْهُنَّ قارا
أكلت دورهمْ فلَّما استقَلَّت　　لم تُغادرْ صغارَهُمْ والكِبارا
أخرَجتْهُمْ من الديار عُراةً　　حَذَرَ الَموت يطلبون الفِرارا
يَلْبَسُونَ الظلام حتَّى إذا ما　　أقبَل الصبح يلْبسونَ النَّهارا
حُلَّة لا تقيهم البَرْدَ والحـ　　ـرَّ ولا عَنهُمُ تَرُدُّ الغُبارا

---

(١) الأوار : شدة الحرارة والعطش .

أيُّها الرَّافلون فى حُلَلِ الوَشْـ ـى(١) يَجُرُّنَ للذُّيول افتِخارا
إنَّ فَوْق العراءِ قوماً جِياعاً يَتَـوَارَوْنَ ذِلَّةً وانكِسارا
أيُّهذا السَّجينُ(٢) لا يمنع السِّجْـ ـن كريماً منْ أن يُقيل العثارا
مُرْ بِألْفٍ لهم وإنْ شئْتَ زِدْهَا وأجِرْهُمْ كما أجَرْتَ النَّصارى

***

قد شَهِدْنا بالأمسِ فى مِصْرَ عُرْساً(٣) ملأَ العَيْنَ والفُؤادَ ابتهارا
سالَ فيه النُّضارُ حتّى حسِبْنا أن ذاك الفِناء يَجْرى نُضارا
باتَ فيه المُنَعَّمُون بلَيْلٍ أخْجَل الصُّبحَ حُسْنُهُ فتَوارَى
يَكْتَسُون السرورَ طَوْراً وطورا فى يَد الكأس يَخْلَعُون الوَقارا
وسَمِعْنا فى (ميت غَمْرٍ) صياحاً ملأَ البَرَّ ضَجَّةً والبِحارا

***

جَلَّ من قَسَّم الحظوظ ، فهـذا يَتَغَنَّى وذاك يبكى الدِّيارا
رُبَّ لَيْلٍ فى الدهر قد ضَمَّ نَحْساً وسُعوداً وعُسْرَةً ويَسارا !

الجامعة فى سبيل الكفاح

وقال من قصيدة له فى سنة ١٩٠٨ يدعو إلى معاضدة مشروع الجامعة المصرية .

حياكم اللهُ أحْيوا العِلْمَ والأدبا إنْ تَنْشُروا العلم يَنْشُرْ فيكمُ العَرَبا(٤)

(١) حلل الوشى الثياب المزركشة .
(٢) يقصد احمد المنشاوى باشا المحسن وصاحب المبرات المعروفة .
(٣) يقصد عرس زواج (الأمير) حيدر فاضل من كريمة على فهمى (باشا) سنة ١٩٠٢ وكان من أعظم المهرجانات .
(٤) أى يبعث فيكم مجد العرب .

ولا حيــاة لـكمْ إلاّ بجامعةٍ ... تــكونُ أُمّاً لطُلاّب العُلاَ وأباَ
تَبْنِي الرجالَ وتبني كل شاهقةٍ ... من المعالى وتبنى العزَّ والغَلَبا
ضَعُوا القلوب أساساً . لا أقول لـكم ... ضعوا النُّضار فإنى أصْغِرُ الذّهبا
وابنوا بأكبادكمْ سوراً لها ودَعُوا ... قيلَ العدوِّ فإنى أعْرِف السَّببا(١)
لا تقنَطوا إنْ قرأْتمْ ما يُزَوِّقه ... ذاك العميدُ ويرْميكم به غَضباَ(٢)
وراقبوا يومَ لا تُغْنى حصائِدُه ... فـكلُّ حَيٍّ سيُجْزَى بالذى اكتسبا(٣)
بنَى على الإفْك أبراجاً مُشَيَّدَةً ... فابْنوا على الحقِّ بُرْجاً يَنطَحُ الشُّهُبا
وجاوبوه بفعلٍ لا يُقَوِّضُهُ ... قوْل المفنِّد أنَّى قال أو خَطَبا
لا تَهجَعوا إنهم لن يهجعوا أبداً ... وطالبوهمْ ولـكنْ أجْمِلوا الطَّلبا

وختمها بقوله :

إنْ تُقْرضوا الله فى أوطانكمْ فلـكمْ ... أجْرُ المجاهد طوبى للّذى اكتَتَبا

رعاية الأطفال

وألقى فى إبريل سنة ١٩١٠ القصيدة الآتية فى احتفال أقامته جمعية رعاية الأطفال يصف بؤس أم فقيرة حامل وكيف لقيت الرعاية والإسعاف فى مستشفى الجمعية :

شَبَحاً أرَى أم ذاك طَيْفُ خَيال ؟ ... لا ، بل فتاةٌ بالعَرَاء حِيالِى
أمستْ بمَدْرَجَة الخطوب فمالها . ... راعٍ هناك وما لهـا من والى

---

(١) و (٢) يشير إلى ما كان يقيمه المعتمد البريطانى من العقبات فى سبيل إنشاء الجامعة .

(٣) حصائد أى حصائد الصيد أى ما يقوله ليثنى به العزائم عن مشروع الجامعة .

حَسْرَى تكاد تُعيد فَحْمَةَ لَيْلها نارا بأنّات ذَكَيْنَ(١) طِوال
ما خَطْبُها عَجَبا ، وما خطبي بها ؟ مالى أشاطرها الوجيعةَ مالى ؟
دانَيْتُها ولصوتِها فى مسْمَعِى وَقع النِّبال عَطَفْنَ إثْرَ نبال
وسألتها : من أنتِ ؟ وهى كأنها رَسْمٌ على طَلَلٍ من الأطلالِ
فَتَمَلْمَلَتْ جزَعا وقالت : حامِلٌ لم تدْر طعم الغمض منذ ليالى
قد مات والدُها وماتَتْ أُمُّها ومضَى الحِمامُ بِعمِّها والخالِ

***

وإلى هنا حَبَسَ الحياء لسانها وجرَى البُكاء بدَمْعها الهطَّال
فَعلِمْت ما تُخْفِى الفَتَاةُ وإنّما يَحْنُو على أمثالها أمْثالى

ووقَفتُ أنْظرُها كأنّى عابدٌ فى هيْكلٍ يَرْنو إلى تمْثال
ورأيتُ آياتِ الجمال تكفَّلَتْ بزَوالهنّ فَوادحُ الأثْقال
لا شيء أفْعَلُ فى النُّفوس كقامةٍ هَيفْاء رَوَّعها الأسَى بهزال
أو غادةٍ كانت تُريكَ إذا بَدَت شمس النَّهار فأصْبحت كالآلِ (٢)

***

قلتُ : انهَضى قالت : أيَنهَضُ ميِّتٌ من قبره ويَسيرُ شَنٌّ بالى(٣)
فحملتُ هيْكل عَظْمها وكأنّنى حُمِّلْتُ حين حَمَلْتُ عُودَ خِلال
وطفِقتْ أنْتهب الخطا متيَمِّماً بالّليل (دار رعاية الأطفال)

---

(١) ذكين ، أى توقدن واشتعلن .
(٢) الآل . السراب .
(٣) الشن . القربة الخلق البالية .

أَمْشى وأَحملُ بائسيْن : فطارقٌ باب الحياةِ ومؤذنٌ بزوال(١)
أُبكيهما وكأنّما أنا ثالثٌ لهما من الإشفاق والإعْوال(٢)

***

وطرقْتُ باب الدار لا متُهيِّبا أحــداً ولا مترقِّباً لسؤال
طَرْقَ المُسافرِ آب من أسفاره أو طَرْقَ ربٍّ الدّار غير مُبالى
وإذا بأصواتٍ تصيح : ألا افتحوا دقّاتُ مرْضَى مُدْلِجين عجال
وإذا بأيْدٍ طاهراتٍ عُوِّدَتْ صنُعَ الجميل تطوَّعَتْ فى الحال
جاءت تُسابقُ فى المبَرَّةِ بعْضُها بعضاً لوَجــه الله لا للمــال
فتناولتْ بالرِّفق ما أنا حاملٌ كالأُم تَكْـلأُ طِفْلها وتُوالى
وإذا الطبيب مُشمِّرٌ وإذا بها فوقَ الوسائد فى مكان عالى
جاءوا بأنواع الدّواء وطوّفوا بسَرير ضَيفْتهم كبَعْضِ الآل
وجثا الطبيبُ يجسُّ نبضاً خافتاً ويَرُودُ مَكمَنَ دائها القتّال
لم يَدْرِ حين دَنا ليَبلُو(٣) قلبها دقّات قَلْبٍ أم دبيبَ نِمال ؟

***

ودَّعتُها وترَكتُها فى أهلها وخرجتُ مُنْشَرحاً رَضِىَّ البال
وعجزْتُ عن شكرِ الذين تجرَّدوا للباقيات وصالح الأعــال
لم يُخْجلوها بالسُّؤال عن اسمها تلك المروءة والشعورُ العالى

---

(١) طارق باب الحياة . الجنين . ويريد بالمؤذن بالزوال أمه .
(٢) الإعوال . البكاء .
(٣) يبلو ، أى يختبر .

خيرُ الصنائع فى الأنام صنيعةٌ تَنْبُو بحاملها عن الإذلال
وإذا النَّوال أتى ولم يُهْرَقْ له ماءُ الوجوه فذاك خير نوال
من جاد من بعْد السؤالِ فإنَّه — وهو الجوادُ — يَعُدّ فى البُخَّال

***

لله دَرُّهمُ فكم من بائسٍ جَمِّ الوَجيعة سَيِّىء الأحوال
ترمى به الدُّنيا فمن جوعٍ إلى عُرْيٍ إلى سُقْمٍ إلى إقْلال
عينٌ مُسهَّدَةٌ وقلبٌ واجفٌ نَفْسٌ مُرَوَّعةٌ وجَيْبٌ خالى
لم يدْرِ ناظِـرُه أعُرْيانا يَرَى أم كاسياً فى تلْكم الأسمال
فكأنَّ ناحِـلَ جسمه فى ثَوْبه خلفَ الخروق يُطِـلُّ من غرْبال
يا بَرْدُ فاحمِلْ قد ظَفِـرْتَ بأعزلٍ يا حَرُّ تلك فريسـةُ المُغْتال
يا عَينُ سُحِّى يا قلوب تَفَطَّرى يانَفْسُ رِقِّى يا مروءةُ وَالى
لولاهمُ لقَضَى عليه شـقاؤُه وخَـلا المجَالُ لخـاطف الآجال
لولاهم كانَ الرَّدى وَقفاً على نفس الفقير ثقيـلةِ الأحمال

***

لله دَرُّ السـاهرين على الأُلى سَهروا من الأوْجاع والأوْجال(١)
القائمين بخـير ما جاءتْ به مدنيَّـة الأدْيان والأجْيـال
أهْـلِ اليتيم وكَهْفه وحُمـاته وربيع أهل البُؤس والإمحـال(٢)

***

(١) الأوجال . المخاوف .
(٢) الإمحال . الجدب .

لا تُهْمِلوا فى الصالحات فإنَّكم لا تجهلون عواقب الإهمال
إنى أرى فقراءكم فى حاجة — لا تعلمون — لقائلٍ فعَّال
فتسابقوا الخيرات فهى أمامكم ميدان سَبقٍ للجواد النَّال(١)
والمحسنون لهمْ على إحسانهم يومَ الإثابة عَشْرَةُ الأمْثال
وجزاء ربٍّ المحسنين يَجِلُّ عن عَدٍّ وعن وَزْنٍ وعن مكيال

وقال فى سنة ١٩١١ يدعو إلى العطف على البؤساء :

دَعْوَةُ البائس المعذَّبِ سُورٌ يدفع الشَّرَّ عن حياض الكِرامِ
وهى حرْبٌ على البخيل وذى البَغْـ ـى وسَيْفٌ على رقاب اللِّئام
إنَّ هذا الكريم قد صان عِرْضى وحَمانى من عاديات السِّقام
عال طفلى وعالَنى وحَبانى بكساءٍ وبدرَةٍ وطعام
وهو من مَعشرٍ أغاثوا ذوى البؤْ س وقاموا فى الله خير القيام
وأقاموا للبرِّ داراً فكانت خير وِرْدٍ يَؤُمُّه كلُّ ظامى
مُلِئَتْ رَحمةً وفاضت حنَاناً فهى للبائِسات دارُ السلام

إلى أن قال فى الإحسان والزكاة :

قد نَجَا المُنْعِمُ الجواد من المَوْ ت بفضل الزَّكاة والإنْعام
فأطفْنا بها وقد ملأ الأنْـ ـفس منَّا جلالُ ذاك المقام
وشهدْنا ثغر الوفاء تجلَّى إذ تجلى فى ثغرها البسام
ورأينا شخص المرُوءة والبـ ـرِّ تبَدَّى فى شخص ذاك الهمام

---

(١) الجواد . الكريم . والنال . الكثير النائل وهو العطاء .

وعَلِمْنا أن الزكاةَ سبيلُ اللـــه قبل الصَّلاة ، قبل الصِّيام
خَصَّها الله فى الكتاب بذكرٍ   فهى ركن الأركان فى الإسلام
بدأتْ مبدأ اليقين وظلَّتْ   لحياة الشُّعوب خير قِوام
لو وَفى بالزَّكاة مَن جَمَعَ الدُّنـ   ـيا وأهوَى على اقتناء الحُطام
ما شكا الجوعَ مُعْدِمٌ أو تَصَدَّى   لركوب الشرور والآثام
راكباً رأسه طريداً شريداً   لا يبالى بشِرْعةٍ أو ذِمام
سائلاً عن وصيَّة الله فيه   آخذاً قوته بحدِّ الحُسام

ملجأ الحرية

ومن قصيدة له سنة ١٩١٩ فى تحية ملجأ الحرية ، وفيها يهيب بالأثرياء أن يبروا الأيتام والفقراء ، ويشير إلى يقظة الأمة سنة ١٩١٩ وما أحدثته الثورة فى النفوس من التطلع إلى المثل العليا .

أيها الطفلُ لك البشرى فقد   قَدَّر الله لنا أنْ نُنْشَرا(١)
قَدَّر الله حياةً حُرَّةً   وأبَى سبحانه أنْ تُقْبَرا
لا تخفْ جوعاً ولا عُرْياً ولا   تَبْكِ عيناكَ إذا خَطْبٌ عَرَا(٢)
لك عند البِرِّ فى مَلْجَئه   حيث تأوى خاطرٌ لن يُكْسَرا
حيث تلقى فيه حَدْباً وترى   بين أتْرابك عيشاً أنْضَرا

***

(١) ننشر ، أى نحيا ونبعث .
(٢) عرا ألم ونزل .

لا تسيء ظنّا بمُثْرينا فقد تاب عن آثامه واستغفرا
كان بالأمس وأقصى همه — إنْ أتى عارفةً (١) — أن يظهرا
فغدا اليوم يُواسي شعْبَه وهو لا يرغبُ في أن يُشْكَرا
نبَّهتْ عاطفةَ البِرِّ به مِحْنةٌ عمَّت ومقدارٌ جرَى
جَمَعَتنا في صعيدٍ واحدٍ وأَرادَتنا على أن نُقْهَرا
فتعاهدْنا على دَفع الأذى بركوب الحزْم حتَّى نَظْفَرا
وتواصَينا بصبرٍ بيننا فغَدَوْنا قُوَّةً لا تُزْدَرَى
أنْشَرتْ(٢) في مصر شَعْباً صالحاً كان قبل اليوم مُنفَكَّ العرا
كم محبٍّ هائمٍ في حبِّها ذاد عن أجفانه سرح الكرَى
وشبابٍ وكهولٍ أقسموا أن يشيدوا مجدها فوق الذُّرَا

***

يارجالَ الجِدِّ هذا وقته آن أن يعمَلَ كُلٌّ ما يَرَى
ملجأً أو مصرِفاً أو مصنعاً أو نقاباتٍ لزُرَّاع القُرَى
أنا لا أعذر منكم من وَنَى وهو ذو مَقْدرةٍ أو قصَّرا
فابدءوا بالْملْجأ الحُرِّ الذى جئت للأيدى له مُستَمطِرا
واكفلوا الأيتام فيه واعلَمُوا أنَّ كلَّ الصَّيد في جَوْف الفرَا
أيُّها المُثْرى ! ألاَ تَكْفُلُ مَن بات محروماً يتيما معسِرا ؟
أنتَ ما يُدريك لو أنبتَّه ربما أطْلَعتَ بدراً نيِّرا

(١) العارفة : العطية والمعروف .
(٢) أنشرت ، أى أحيت .

ربما أطلعت (سعداً) آخراً ... يُحكِمُ القول ويرقى المِنْبرا
ربما أطلعت منه (عَبْدَه) ... مَن حَمَى الدِّين وزان (الأزهرا)
ربما أطلعت منه شاعراً ... مثل (شوقى) نابهاً بين الوَرَى
ربما أطلعت منه فارساً ... يبخل الغِيل على أُسْد الشَّرَى(١)
كم طوى البؤس نفوساً لو رعَتْ ... منبتاً خصباً لكانت جَوهرا
كم قَضَى العُدمُ على موهبةٍ ... فتوارت تحت أطباق الثَّرى

***

كلٌّ من أحيا يتيما ضائعاً ... حَسبه من ربِّه أن يؤْجَرا
إنما تُحْمَد عُقْبَى أمره ... مَن لأُخراه بدُنياهُ اشترى

جمعية إعانة العُميان

وقال فى سنة ١٩١٦ فى احتفال أقامته جمعية إعانة العُميان :

إن حق الضَّرير عند ذَوى الأبْـ ... ـصار حقٌّ مُستوجب التقْديس
لم يَضِرْه فقْدانُه نُور عينيـ ... ـه إذا اعتاض عنهما بأنيس
آنِسوا نفسه إذا أظْلم العيْـ ... ـش بعلم فالعلم أُنس النفوس
وَجِّهوه إلى الفلاح يُفِدكم ... فوق ما يستفيده من دروس
أَكملوا نَقْصَه يكن عبقرياً ... مثْل (طَه) مُبرِّزاً فى الطُّروس
كم رأينا من أكْمهٍ لا يُجارى ... وضريرٍ يرجى ليوم عبوس

(١) الغيل : الشجر الكثير الملتف تأوى إليه الأسود ، والشرى : مأسدة جانب الفرات يضرب بأسادها المثل .

لم تقف آفة العيون حجازاً بين وثباته وبين الشموس
عَدمَ الحسّ قائلاً لحداه هَدىُ وجدانه إلى المحسوس
مثل هذا إذا تعلم أغْنى عن كثيرٍ وجاءنا بالنفيس
ذاك أنّ الذكاء والحفْظ حَلَّا فى جوار النُّهى بتلك الرءوس
فعلى كلّ أكمهٍ وبصير شكر أعضائكم وشكر الرئيس

المال والعلم والاخلاق

قال سنة ١٩٢١ باسم مصر ، قصيدته — مصر تتحدث عن نفسها — :

وارفعوا دولتى على العلم والأخلا ق فالعلم وحده ليس يجدى

وقال سنة ١٩١٠ من قصيدة له (ص ١٢٦) فى الحث على إعانة مدرسة للبنات ببورسعيد :

كمْ ذا يُكابدُ عاشقٌ ويُلاقِى فى حُبِّ مصْر كثيرةِ العُشّاق
إنِّى لأَحمِلُ فى هوَاكِ صبَابَةً يامِصْرُ قدخرَجَتْ عن الأطْواق
لَهْفِى عليكِ متَى أراكِ طليقةً يَحْمِى كريمَ حِماكِ شَعْبٌ راقى
كَلِفٌ بمَحْمُود الخِلال مُتَيَّمٌ بالبَذْلِ بين يدَيْك والإنْفاق
إنِّى لتطربُنِى الخِلالُ كريمةً طَرَبَ الغَريب بأَوْبةٍ وتلاقى
وتَهزُّنى ذكرى المروءة والنَّدى بين الشَّمائل هِزَّةَ المشتاق



فإذا رزقْت خِليقةً محمودةً فقد اصطفاك مُقَسِّمُ الأرزاق
فالناس هذا حظُّه مالٌ وذا علمٌ وذاك مكارم الأخلاق

والمـــال إنْ لم تدخره مُحَصَّناً ... بالعلم كان نهايةَ الإملاق(١)
والعلم إن لم تـكتنفه شمائلٌ ... تُعْليه كان مطيَّة الإخفاق
لا تحسبنَّ العــلم ينفع وحدهُ ... ما لم يُتَوَّجْ ربُّه بخلاق(٢)

فضل المرأة على المجتمع

وقال فى هذه القصيدة ينوه بفضل المرأة فى المجتمع :

من لى بتربية النِّساء ؟ فإنها ... فى الشَّرق علَّةُ ذلك الإخفاق
الأُمُّ مدْرسةٌ إذا أعددتها ... أعددتَ شعباً طَيِّبَ الأعْراق(٣)
الأُمُّ رَوضٌ إن تعهده الحيا(٤) ... بالرِّىِّ أورَق أيمــا إيراق
الأُمُّ أستاذُ الأَساتذة الأُلى ... شغلت مآثرُهم مدى الآفاق

...

أنا لا أقول دعُوا النساء سوافراً ... بين الرجال يَجُلْن فى الأَسواق
يَدْرُجنَ حيث أردن لا من وازعٍ ... يحذرنَ رقبْتَه ولا من وَاق
يفعلن أفْعال الرِّجال لواهياً ... عن واجبات نَواعسِ الأَحداق
فى دُورهنّ شئُونُهنَّ كثيرةٌ ... كشُئُونِ ربِّ السَّيف والمزراق(٥)
كلاَّ ولا أدعوكم أن تُسرِفوا ... فى الحجْب والتَّضْييق والإرْهاق

---

(١) الإملاق : الفقر .
(٢) الخلاق : النصيب من الخير والصلاح .
(٣) الأعراق : الأصول ، الواحد عرق .
(٤) الحيا : المطر .
(٥) المزراق : الرمح .

لَيْست نساؤكم حلًى وجواهراً خوف الضّياع تصان فى الأحقاق
ليست نساؤكم أثاثاً يُقتنَى فى الدور بين مخادعٍ وطباق
تتشكّل الأزمان فى أدوارها دُوَلاً وهنَّ على الجمود بواق
فَتوسّطوا فى الحالتين وأنصفوا فالشَّرُّ فى التّقييد والإطلاق
ربُّوا البنات على الفضيلة إنها فى الموقفين لهنّ خيرُ وَثاق
وعليكم أنْ تستبين بناتكم نور الهُدى وعلى الحياءِ الباقى

المناصب والفضائل

من قوله فى رثائه لمحمود سامى البارودى :

إنّ المناصب فى عزل وتولية غير المواهب فى ذكر وتخليد

ومات حافظ سنة ١٩٣٢ بعد أن خلف لمصر والشرق ذخيرة من الوطنية وكنوزا من الشعر والحكمة والاخلاق لا تفنى ولا تنفد على مر الزمان .

***

خليل مطران
شاعر الحرية
١٨٧٢ - ١٩٤٩



شاعر الحرية والعروبة ، حمل لواء التجديد فى الشعر ، نيفا ونصف قرن من الزمان ، وبلغ الذروة فى عالم الشعر والفن والبلاغة والخيال .

ولد سنة ١٨٧٢ فى بعلبك إحدى المدن الشهيرة بلبنان، ونشأ نزاعا إلى الحرية سمح النفس ، كريم الخلق ، صفى السريرة ، محباً للخير ، وديعاً فى شمم وإباء ، معتزاً بكرامته ، عيوفا عن الصغائر .

ضاق صدرا منذ صباه بجوّ يضغط على حرية الرأى والفكر ، فارتحل إلى باريس يتمم فيها دراسته وعلومه ، وهناك إرتوى من مناهل الآداب الغربية ، وإذ كانت شاعريته وليدة فطرته وسليقته ، فقد اتجهت نفسه بتأثير الأدب الفرنسى إلى التجديد فى شعره ، فجمع بين البلاغة العربية والأساليب والمعانى الأوروبية .

ثم هاجر إلى مصر ، واتخذها موطنه الثانى ، بل موطنه المختار .

أخلص لها ، وغرّد فى أكنافها ، وتعشق نياها وأرضها وسماءها ، وهو ثالث الثلاثة الذين عاشوا معا وانتهت إليهم زعامة الشعر فى العصر الحديث : شوقى وحافظ ومطران .

ألهمه حب الحرية نظم القصائد الرائعة فى تمجيدها والذود عنها ، والجهاد فى سبيلها ، فكان من أعلامها الخالدين .

كان إنسانا فى شخصه وفى أخلاقه وفى شعره وأدبه .

كان فى شعره ينشد الكمال ، ويحلّق فى أجواء الحرية والوطنية .

كان يستلهم شعره من المثل العليا ، وفى ذلك يقول عن نفسه فى الاحتفال بيوبيله الذهبي سنة ١٩٤٨ .

كان فى الشعر لى مرامٌ خطير فعَدا طوقِىَ المَرامُ الخطيرُ
هائم فى الوجود أسأله الوحـ ـى كما يسأل الغنىَّ الفقيرُ
أكبرونى ولست أكبر نفسى أنا فى الفن مستفيد صغير
لا يَضِقْ صدرُ شاعر بأخيه يكره الفضلُ أن تضيق الصدور
والسماوات لو تأملتَ فيها ليس تُحصَى شموسُها والبدورُ
كل جرم يعلو ويصبح نجما فله حيِّزٌ وفيه يدور
والنجوم التى تلوح وتخفَى ربَوَاتٌ وما يضيق الأثير

وبهذه الروح العالية ، والنفس الصافية ، والود الخالص ، والإيثار والأريحية ، عاش محبوباً من معاصريه : يحبهم ويحبونه ، وينشد لهم الخير والكمال .

وقد أرخ فى شعره الوطنى العذب مراحل النهضة المصرية والشرقية ، وسجل حوادثها ووقائعها ، وترجم لرجالها وأشخاصها ، وغنى بقصائده الروح الوطنيةَ جيلا بعد جيل .

يمتاز شعره بسعة الخيال وجمال التصوير وبلاغة التعبير ، هذا إلى اقتباسه

من آداب اللغة الفرنسية التى درسها وتمكن منها تمكنه من آداب اللغة العربية ، فجمع بين الثقافة العربية والثقافة الأوروبية ، وهو زعيم مدرسة التجديد فى الشعر العربى ، وسار على نهجه تلاميذه ومريدوه .

وقد عبر أبلغ تعبير وأرقه عن منهج التجديد فى شعره ، بقوله فى مقدمة الطبعة الثانية لديوانه سنة ١٩٤٨ قال :

« هذا شعرى ، وفيه كل شعورى ، هو شعر الحياة والحقيقة والخيال ، نظمته فى مختلف الآونة التى تخليت فيها عن العمل لرزقى ، نظمته مصبحاً وممسياً ، منفرداً ومتحدثاً مع عشرائى ، وقيدت فيه زفراتى وأحلامى ، وسجلت بقوافيه أحداث زمانى وبيئتى فى دقة واستيفاء .

« أتابع السابقين فى الاحتفاظ بأصول اللغة ، وعدم التفريط فيها ، واستيحاء الفطرة الصحيحة ، وأتوسع فى مذاهب البيان مجاراة لما اقتضاه العصر ، كما فعل العرب من قبلى ، أما الأمنية الكبرى التى كانت تجيش بى ، فهى أن أدخل كل جديد فى شعرنا العربى بحيث لا ينكره ، وأن أستطيع إقناع الجامدين بأن لغتنا أم اللغات إذا حفظت وخدمت حق خدمتها ، ففيها ضروب الكفاية لتجارى كل لغة قديمة وحديثة فى التعبير عن الدقائق والجلائل من أغراض الفنون ، وإنى لأرجو أن يرى المطلعون على هذا الجزء الثانى وما يليه من أجزاء (ديوان الخليل) مصداقاً لدعواى » .

وقال عنه صنوه وصديقه حافظ يشيد بنزعته فى التجديد :

« هو فى طليعة أولئك الذين خرجوا من أفق التقليد وصدعوا قيود التقييد ، وأوسعوا صدر الشعر العربى للخيال الأعجمى ، وأفسحوا فيه للقصص وتصوير الحوادث ، وطوّفوا بسرد وقائع التاريخ ، ففتح بذلك فتحا جديداً شنّ فيه الغارة على أهل الحفاظ والتمسك » .

وكان من أركان المسرح العربي بما كتب لهذا المسرح وعرَّب ، فقد ترجم ليالى ألفريد دى موسيه ، ورواية هرنانى لفكتور هيجو ، كما ترجم لكورنيل مسرحيات (السيد) وسينا وبوليكت ، وترجم روايات شكسبير : هاملت ، ومكبث ، وعطيل ، وتاجر البندقية .

النهضة العربية

قال سنة ١٩٠٨ يحيي نهضة الشعوب العربية :

داعٍ إلى العهد الجديد دعاكِ ... فاستأنفى فى الخافقين عُلاكِ
يا أمَّة العرب التى هى أُمُّنا ... أىُّ الفَخار نَمَيْتِهِ ونماكِ ؟
يمضى الزمان وتنقضى أحداثه ... وهواكِ منَّا فى القلوب هواكِ
إنَّا نقاضى الدهر فى أحسابنا ... بالرأى لا بالصَّارم الفتَّاكِ
ومِلاكُ شيمتنا الوفاء فإنَّه ... لسعادة الأقوام خير مِلاكِ
آمالنا آلامنا أرْواحنا ... أشْباحنا يوْم الفِداء فداكِ
بالعلم ننشُرُ ما انطوى من مجدنا ... وبه نزكِّى فى الوَرى ذكراكِ

مطران ومصطفى كامل

كان بينه وبين الزعيم مصطفى كامل صداقة وود داما طول العمر ، كان مؤيدا لدعوته نصيراً لرسالته ، دافع عنها فى حياة مصطفى ، وظل وفيا لها بعد وفاته ، ويبدو مبلغ إعجابه به وتقديره لعبقريته فى قصيدته التى أنشدها سنة ١٩٠٨ فى حفلة الأربعين لوفاته ، وقد نشرها فى ديوانه وصدرها فى طبعته الأولى بهذه الكلمة التى تعد فى ذاتها قصيدة من النثر المنظوم ، قال : « مصاب

الشرق فى رجله المفرد ، وبطله الأوحد ، مصطفى باشا كامل ، أيتها الروح العزيزة ! إن فى هذا الديوان الذى اختتمه برثائك ، نفحات من نفحاتك ، ودعوات من دعائك ، فإلى هيكلك المدفون بالتكريم تحية الأخ المخلص للأخ الحميم ، ووداع المجاهد المتطوّع للقائد العظيم » .

وجعل عنوان القصيدة (حق الوطن وحق الإخاء) قال :

أعلى مكانتك الإلهُ وشرَّفا　　فانعم بطيب جواره يا (مصطفى)
اليوم فُزت بأجر ما أسلفتهُ　　خيراً ، وكلٌ واجدٌ ما أسلفا
وجُزيت من فانى الوجود بخالد　　ومن الأسى الماضى بمقتبل الصفا

***

أعظمْ بيومك فى الزمان ومن له　　بك واصفاً ذاك الجلال فيوصَفا
حيث الوفود من الملائك أقبلوا　　حافّين حولك فى السرير وعُكَّفا
وتحمَّلوك على الأشعَّة وارتقوا　　سرباً يجوز بك الدرارى موجفا
فوردت وِرْدك فى الخلود منعَّما　　والأرضُ مائدةٌ عليك تأسّفا
لم تُلْف قبلك أمَّةٌ فى مشهد　　يذْرو الرجالُ به المدامع ذُرَّفا
يمشون من حول الجنازة ضائقاً　　بهم الرحيبُ من المسالك مصرفا
متثاقلين من الوقار وإنما　　ساروا بطيفٍ ناحلٍ أو أنحفا
بحرٌ من الأحياء نعشُكَ فوقه　　فُلْكٌ يظلّله اللواء مرفرفا
يبكون فى آثاره العَلَم الذى　　آثَارُهُ من رفعةٍ لا تُقْتفى

***

سَعَت الخوادِرُ حاسراتٍ والأسى　　مُلْقٍ على الأبصار سِتْرا أغدفا

ولئن سفرن ولم يخلْنَ فإنه	خطبٌ ألانَ بروْعه صُمَّ الصفا
فزِع الشبابُ إلى الشيوخ بثأرهم	من دمعهم إن خانهم متكفكفا
ومن الغضاضة أن دعا داعى العلا	بعد الفقيد فتًى بهم فتوقفا
جزع النصارى واليهود لمسلم	هو خير من والى وأوفى من وفى
بكَوا المرجَّي فى خلافٍ عارضٍ	ليزيل ذاك العارض المتكشِّفا
واشتد رُزْء المسلمين وحزنهم	لما مضيتَ ولست فيهم مُخْلِفا

***

مَن بعْدَ كاتبهم وبَعدَ خطيبهم	يُعلى لهم صوتاً وينشرُ مصحفا ؟
من يبرىء الإسلامَ من تُهم العِدى	ويردّ نقد الناقدين مزيَّفا ؟
يُبدى لأعين جاهِليه فضلَهُ	ويزيلُ ما يلدُ التناكرُ من جفا
ويثير من غضب الغضاب لمجدِه	هِمماً تعيد له المقام الأشرفا
لكنَّ من أقلام جندِك حوله	سُمراً تهزُّ لكل خطبٍ معطفا
ولعل حرًّا لا يدين به انبرى	ليذودَ عنه خصمهُ المتعسفا
قِفْ أيها الناعى عليه جمودَهُ	فلقد تجاوزت الهدى متفلسفا
إن يَعترِ الشمسَ الكسوفُ هنيهةً	أيكون منقصةً لها أن تُكسفا ؟
وهل الكسوف سوى تَعرض حائل	يثنى أشعتها إلى أن يُكْشفاَ
لم تنزل الأديان إلا هاديا	للعالمين ورادعاً ومثقِّفا
بشعارِ حىَّ على الفلاح وما بها	أن قصر الأقوامُ عنه فأخلفا
وبكل أمر موجبٍ إصلاحهم	أن خالفوه فما استحال ولا انتفى
قد كان للإسلام عهدٌ باهرٌ	نلنا به هذا الرّقىّ مُسَلّفا

ملأ البلاد إنارة وحضارة ... ومُنى السماحة عوده مستأنفا
فالخيرُ كلُّ الخير فيه مقبلاً ... والشرُّ كل الشر أن يتخلفا
يدعو البقاء إلى التكافؤ بالقوى ... بين العناصر أو يهين ويضعفا
والخلق جسمٌ إن ألمَّ ببعضه ... سَقَمٌ ولم يُتلافَ عمَّ وأتلفا
بشرى البرية بعد مزمن دائها ... بسلامة الإسلام وهى لها شفا
إن أغضبت تلك السلامة جائزاً ... أرضت خبيراً بالحياة ومنصفا
يامن نهضت بنصره وأبنته ... حقَّ الإبانة هل تبالى مرجفا ؟
مازلتَ فى مصر تقيم مناره ... حتى أنار الكونَ منها مُشرِفا

* * *

مصرُ العزيزة قد لك اسمها ذكرتُ ... وأرى ترابكَ من حنين قد هفا
وكأننى بالقبر أصبح منبراً ... وكأننى بك موشكٌ أن تهتفا
مصرُ التى لم تحظ من نجبائها ... بأعزَّ منك ولم تعزَّ بأحصفا
مصرُ التى لم تبغ إلا نفعها ... فى الحالتين ملايناً ومعنِّفا
مصرُ التى غسلت يداك جراحها ... بصبيب دمعك جارياً مستنزفا
مصرُ التى كافحتَ لدَّ عداتها ... متصدراً لرماتها مستهدفا
مصرُ التى سُقتَ الجيوش مناقبا ... ومُنى لتكفيها المُغير المجحفا
مصرُ التى أحببتها الحبَّ الذى ... بلغ الفداء نزاهةً وتعففا
حتى مضيتَ كما ابتغيتَ مؤلِّفا ... من شملها مالم يكن ليؤلَّفا
أمنيَّة أعيتْ خلالك دونها ... لو لم يضافرها رداك فيُسعِفا

وهي التي لو قُسِّمت لنَمَا بها　　شعبٌ يعزّ بنفسه مستنصفا

* * *

من كان أجزأ منك يوم كريهةٍ　　بالحق لا شكساً ولا متصلفا
من كان أقدرَ منك تصريفاً لما　　يُعيي الحكيمَ مدبِّراً ومصرِّفا
من كان أطهرَ منك خُلْقاً جامعا　　فيه مهيبَ الطبع والمستظرَفا
من كان أزهد منك إلا في الذي　　يُجْدِي البلادَ فتبتغيه مُلْحِفا
من كان أسمحَ منك منَّاعاً لما　　تهوى ومعطاء لغيرك مُسرفا
من كان أصدق منكَ لا متنصلاً　　مما تقولُ ولا تعاهدُ مُخلِفا

* * *

لهفي على فخر الصبي هادي النهى　　عالى اللواء حمى المروءة والوفا
يامن نعى تلك الفضائلَ والعلى　　أغدت معالمهنّ قاعاً صفصفا
لا لا وحقك ياشهيدَ وفائه　　ورجائه كذبَ النعيُّ وأرجفا
ما أنتَ بالرجل الذي يمسى وقد　　ملىء الوجودُ به ويصبح قد عَفَا
إني أراك ولا تزال كعهدنا　　بك في جهادك أو أشد وأشعفا
ثابرْ على تلك العزائم ذائداً　　عن مصر تضربُ في البلاد مطوّفا
أصدر صحائفك التي تحيي بها　　بضوْء الطريق وتدفع المتخلفا
تجرى بها الأنهارُ وهي دوافقٌ　　هماً وتوشك أن تَطمّ فتجرفا
وتكاد أسطرُها تهبُّ نواطقاً　　ويكاد يعزِفُ كلُّ حرف معزَفا
فإذا حنوتَ على الحمى متحبباً　　فهو النسيم وقد ذكا وتلطفا
وكأنما الألفاظ مما خَفَّفتْ　　نَقْشَ المدادِ رسومَها وتخففا

تُستبَامُ من أثوابها أرواحُها ... وتعاف تحايـــة لئلّا تكشفا
قم للخطابة فى المجامع وامتلك ... تلك النفوس مروّعا ومشنفا
أعد القديم من الممالك والقرى ... ذكرى وعرّفنا الحيلة لنعرفا
شدّدْ عزائمنا وقاتلْ ضعفنا ... حتى نبيتَ ولا نرى متخوّفا
ما هذه الآياتُ يرْمى لفظُها ... شرراً وتهوى الشهبُ فيها أحرفا
ما ذلك الترصيعُ ليس مرصّعاً ... ما ذلك التفويفُ ليس مفوّفا
وحيٌ بأهجيةٍ إذ ما أطلقت ... هبطت رواسبَ عنه والمغزى طفا
تُحيي حرارتُها ويهْدِي نورُها ... متهاطِلَ الإشراق أو متخطّفا
تالله ما أنت الخطيبُ وإنما ... وقفَ القضاء من المنصّة موقفا
عن نطقِهِ تقعُ الصروف مواعظاً ... وكأمره أمرٌ الزمان مصرّفا

* * *

يا حبذا لو كلُّ ذلك لم يزَلْ ... لكنه حُلمٌ مضى مستطرَفا
والآن نحن لدى ثراك نحجّه ... متلهبين تشوقا وتشوفا
نُثنى وهل يوفَى ثناؤك حقّه ... وبأى ألفاظ المحامد يُكتَفى
ماذا يعيضك من شبابك نظمُنا ... فيكَ الرثاء منسّقاً ومصفّفا
ويُعيض منك وكنت جوهرة الحمى ... صوغُ الكلام مرصّعاً ومزخرفا

* * *

يا أخلص الخلصاء أبكى بعده ... كبكاء مصر تحرّقا وتلهفا
هذا مثالُك لاحَ يرعانا وقد ... كشف الجوى عنه الحجاب فأشرفا
جاد الهلال برسمه تاجاً له ... وكسته ناسجةُ الطهارة مُطرَفا

يا من رماه عُداتُه بتطرف ... حققت آمال الهُدى متطرفا
كهواك للأوطان فليكن الهوى ... لا مفترى فيه ولا متكلفا

يجرى على قدر المطالب ناميا ... ويجلُّ فى مجراهُ عن أن يَصْدِفا
أنشأتَ من مصرَ الشتاتِ بفضله ... مصرَ الفتاةَ حِمى يُعز ومألفا
أحدثت فيها أمةً أندى يداً ... للصالحات وبالعظائم أكلفا
عرفتَ أهلها حقيقةَ قدرِهم ... وكفاهُم من قدرهم أن يُعرَفا
نفحاتُ روحك خامرت أرواحَهم ... فهم مرامُك ساء دهرٌ أو صفا
حِصنٌ أشمُّ تساندت أجزاؤه ... عِلماً وأمَّنه النُّهى أن يُنسفَا
فارقُدْ رُقادَك إن ربَّك قد محا ... بك ذنبَ مصر كارجوتَ وقدْ عفا

وله فى سنة ١٩٣٣ قصيدة عصماء ألقاها لمناسبة مرور عام على وفاة حافظ إبراهيم ، ضمنها وصفاً رائعاً للنهضة القومية التى كونت حافظا ، وجعلته الشاعر المطبوع المترجم عن آمالها وآلامها ، وكيف أن هذه النهضة هى غرس مصطفى كامل ، وكيف تعهدها بجهاده إلى أن مات ، وبموته كانت الآية التى تم بها استقرارها ، قال فيها :

طرأتْ حالةٌ تيقظ فيها ... لدعاة الهدى ضمير السواد(١)
فإذا (حافظ) وقد بثَّ ما فى ... نفسه من تجهّم واربداد
وبدا للمنى الجلائلِ فيها ... أفقٌ واسع المدى لارتياد
ما تجَلى نبوغهُ كتجلّيه ... وقد هبَّ (مصطفى) للجهاد

---

(١) يريد الجمهور .

يوم نادى الفتى العظيم فلبَّى ... من نبا(١) قبلَه بصوت المنادى
وَوَرَى(٢) ذلك الشعور الذى كا ... ن كميناً كالنـار تحت الرماد
فتأتَّى بعـد القنوط الدَّجُوجِـ ... ـىِّ(٣) رجاء للشاعر المجواد
مس منه السوادَ فانبجست نا ... ر ونور من طىٍّ ذاك السواد
أكبر الدهرُ وثبـةً وثبتها ... مصرُ مفتكَّةً من الأصفاد
وثُغاء(٤) غدا هزيماً(٥) فألقى ... رُعبـه فى مرابض الآسـاد
ما الذى أخرج الشجاعة من حيـ ... ـث طوتها قرونُ الاستبداد
وجَـلا غُرة الصلاح فلاحت ... تزدهى من غياهب الإفساد
فإذا أمـةٌ أبيـةُ ضيم ... ما لها غـير حقها من عَتـاد
نهضت فجأة تنـافح فى آ ... نٍ عدوّين أسرفا فى اللداد
أجنبياً ألقى المراسىَ حتى ... تقلع الراسياتُ فى الأطواد
وهواناً كأنمـا طبع الشعـبَ ... عليه تقادمُ الإخلاد
حلبة يُعذرُ المقصِّر فيهـا ... والخواتيم رَهن تلك المبادى
ليس تغييرُ ما بقوم يسيراً ... كيف ما عُودوه من آماد ؟
غير أن الإيمان كان حليفاً ... لقلوب الطليعة الأنجـاد
فاستعانوا به على ما ابتغوه ... غير باغين من بعيد المراد

---

(١) نبا : تجافى وتباعد .

(٢) ورى الزند : خرجت ناره .

(٣) المظلم .

(٤) الثغاء : صوت الشاة والمعز .

(٥) الهزيم : صوت الرعد .

إلى أن قال :

بعد وثبٍ فى إثر وثْبٍ عنيف	وارتدادٍ فى الشوط غِبَّ ارتداد
ساور الأمة التردُّدُ والتا	ث(١) عليها فى السير وجهُ الرشاد
لا تسل يومذاك عن جلد القا	دة فى مُلتقى الخطوب الشداد
كلما ازدادت الصعاب أبوا إ	لّا كفاحا وعزمُهم فى ازدياد
يبذلون القوى وفوق القوى غيـ	ـر مبالين أنهـــا لنفاد
و (الزعيمُ الأبرُّ) أطيبهم نفسـ	ـاً عن النفس فى صراع العوادى
هل ينجى شعباً من اليأس إلا	حَدَث من خوارق المعتاد
مصطفى مصطفى بحسبك إن يذ	كرْ فداء أن كنتَ أول فاد
مصطفى مصطفى ليهنئك أن أحـ	ـييت قوماً بذاك الاستشهاد
دب فيهم روحٌ جديد له ما	بعدَه فى القلوب والأخلاد(٢)
تنقضى الحادثات بعدك والرُّو	ح مقيمٌ فيهم على الآباد
كادَ يومٌ شيعتَ فيه يريهم	لمحةً من جلال يوم المعاد
صدروا عنه بالتعارف فيما	بينهم وهو قوة الأعداد
واستشفوا لبأسهم فيه سرا	كم تحامى أن يدركوه الأعادى
هذه مصر الفتية هبّتْ	فى صفوفٍ فتيَّةٍ للذياد
رجل مات مُخلفاً منه جيلاً	رابط الجأش غير سهل المقاد
عهد نور من الحفاظ ونار	بعد طول الخمود والإخماد

(١) التاث عليه الأمر : اختلط والتبس .

(٢) الأخلاد : العقول .

تخذت عبقرية الشعر فيه سلماً للعروج والإصعاد
أبلغت (حافظاً) من الحظ أوجاً زاد منه العلياء كل مراد

إزاحة الستار عن تمثال مصطفى كامل

وله فى سنة ١٩٤٠ قصيدة عن مصطفى كامل نظمها لمناسبة إزاحة الستار عن تمثاله بعد أن ظل حبيسا فى « مدرسة مصطفى كامل » من سنة ١٩١٤ . قال :

أمنوا بموتك صولة الرئبال ماذا خشوا من فتنة التمثال ؟
حبسوه عن مقل إليه مشوقة فاضت أسى ودموعهن غوال
حتى أرادت مصر غير مرادهم وجلاء من أوفى بنيها جال
أتُهيِّء استقلالَ قومك جاهداً وتُذادَ عنهم يوم الاستقلال ؟
أنصفت بعض الشيء بل هى توبة فى بدئها ولكل بدء تال
فلقد تئوب وجد غيرك عاثر فيما ادعى صلفا وجدك عال
يا حسن عودك والكنانة حرة تلقاك بالإكرام والإجلال
أيروعك الحشد الذى بك يحتفى من غُرٍّ فتيانٍ وصيد رجال
ماذا بثثت من الحياة جديدة فى هذه الآساد والأشبال
بعث لموطنك العزيز رجوتَه وسواك يحسبه رجاء محال
خاطرت فيه بالشباب وبذله سرف لمطلوب بعيد نوال



أى مصطفى ! ولت سنونُ وما اشتفى شوقى إليك فهن جد طوال
عجب بقائى بعد أكرم رفقة زالوا ولم يشأ القضاء زوالى

هم صفوة الدنيا وكانوا صفوها   فأحق حيٍّ بالأسى أمثالى
حزن بعيد الغور فى قلبي فإن   وجب الرثاء فإنما يُرثى لى
ماذا أقول وهذه أسماؤهم   وشخوصهم ملء الزمان حيالى
تعتادنى فى مسمعى أو ناظرى   وإلى يمينى تارة وشمالى
إنى لأحفظ عهدهم وأصونه   فى كل حادثة ولست بآل
وكأن حسى حسهم فرحا بما   يقضى الحى من حقهم ويوالى
كم فى مغارسهم جنى ألفيته   متجددا بتعاقب الأحوال
سلوى أتاحتها مآثرهم وقد   يغدو الفراق بها شبيه وصال
وكذاك مجد العبقرية والفدى   لا ينقضى بتحول الأحوال

* * *

أى مصطفى ما كنت إلاّ كاملا   لو كان يتصف امرؤ بكمال
ماذا لقيت من الصبي ونعيمه   غير المكاره فيه والأهوال
إنى شهدت شهادة العينين ما   عانيت فى الغدوات والآصال
متطوعا تسخو بما يفنى القوى   من جهد أيام وسهد ليالى
إذ قمت بالأمر الجسام ولم يكن   فيمن أهبت بهم مجيب سؤال
حال التورع دون إغراء المنى   زمنا نما من مسعد وموال
والقوم فى ظمأ ووعدك مطمع   لكن يرون له رفيق الآل
تسعى ويعترض السبيل قنوطهم   فى كل حِلٍّ منك أو ترحال
فتظل تضرب فى جوانبه وما   تلقى إلى نظر الحبوط ببال
لك دون ما تبغى مضاء مصمم   لا ينثنى وبلاء غير مبال

حتى إذا وضح اليقين وصدقت دعواك آية ربك المتعالى
فثويت أظهر ماتكون على عدى مصر بعقبى دائك المغتال

* * *

هزت منيتك البلاد ولم تكن بأشد منها هزة الزلزال
فالقومُ من جزع عليك كأنهم آل وقد رزئوا عزيز الآل
كشف الأسى لهم الحجاب فأيقنوا أن الحياة مطالب ومعال
وتبينوا أن الخنوع مهانة لا يستطال بها مدى الآجال
لله حسن بلائهم لما أبوا متضافرين دوام تلك الحال
وتوثبوا بزيمة مصدوقة برئت من الأحقاد والأوجال
يردون حوضا والمنايا دونه مستبسلين ضروب الاستبسال
حتى أتيح الفتح يجلو حسنه فى يومه إحسان يوم خال
فتح بدا اسمك وهو فى عنوانه متخضبا بدم الشباب الغالى
إيها شديد الحب للبلد الذى لا أنت ساليه ولا هو سال
أبهج بأوبتك السنية طالعا فى أفقه كالكوكب المتلالى
للذكر آفاق سحيقات المدى ولزهرها المتألقات مجال
فإذا دنت منا فتلك عوالم وإذا نأت عنا فتلك لآلى
تطوى من الأدهار مالا ينقضى وتجول فى الأفكار كل مجال
أنوار وجهك طالعتنا اليوم من برج حللت به لغير زيال
قد أثبتتها مصر بين عيونها فالحال متصل بالاستقبال
نعم الثواب لذى مآثر فى الفدى فرضت محبته على الأجيال

* * *

فتيان مصر وعهدها غير الذى عانته فى الأصفاد والأغلال
حيوا مديل حياتها من يأسها ومـــذلل الآلام للآمال
حيوا زعيم اليقظة الأولى بها وخطيب ثورتها فى الاستهلال
هذى مواكبها وتلك وفودها فى ملتقى ذى روعة وجمال
حفلت برمز نهوضها ومثاله مالا تدانى صنعة المثـال
لـكنها مهج بنته ولم تـكن إلاّ ذرائعها فضول المال
وكفاه فخرا أن ذاك المال لم يك مكس جاب أو تطول وال
رسم يلوح وفيـــه معنى أصله فيروع بين حقيقة وخيـــال
لان الحديد له فصاغ لعينه أثراً على الأيام ليس يبـــال
كم فى بليغ سكوته من عبرة أوفى وأكفى من فصيح مقال
هو خالد ويظل مدره قومه فى كل نازلة وكل نضـــال

تحيته للمجاهدين فى المؤتمر الوطنى ببروكسل سنة ١٩١٠

ونظم فى سنة ١٩١٠ قصيدة ناجى فيها الوطنيين الأحرار الذين اغتربوا عن مصر لحضور المؤتمر الوطنى الذى عقد برآسة المرحوم محمد فريد بمدينة بروكسل فى سبتمبر سنة ١٩١٠ . قال :

أتراه فوق مناكب الأدهار شفقٌ تخلَّفَ عن بديع نهار(١)
حقبٌ دَجت منها السُّفوح ولم يزل فوق الذرى منها بريق نضار(٢)

---

(١) يشير إلى ذكرى المجد القديم وأنها باقية على الدهر ويعبر عنها بالشفق ؛ أى النور المتخلف عن الشمس بعد غروبها .

(٢) الحقب السنون . ودجا أظلم . والذرى ، جمع ذروة ، أعلى الشىء . =

يا مغرب الماضى أما من آية فتعود فى سَحَر من الأسحار ؟
هذا صباحٌ مقبل من غيبه فتبيَّنوه يا أولى الأبصـار
تجد العُيون على نواصى أفقه ضواءاً تألَّق من وراء ستـار
سَحَر الرجاء بدا لكم وإزاءهُ شفق البقية من عُلاً وفخار(١)
شقان من حَلى أغرَّ تصوغه تاجاً لمصر أنامِلُ المقدار(٢)
تاجٌ ستلبسه الفتاة مخلَّفـا عن أمها فى سالف الأعصار
ويكون من آياته وشُعاعه آيات مجـد رجالها الأخيار

* * *

نجبـاء مصر الواترين لعزها وجلالها من ذلة وصغار(٣)
خوضوا غمار الضيم دون رجائكم لافوز إلاَّ بعد خوض غمار
ما شاء سعْدُ الدار أن تشقَوْا له فاشقَوْا له ما شاء سعد الدار
إن شَقَّ ترحالٌ فهذى هجرةٌ لا شُقَةٌ(٤) فى مثلها فبدار
سيروا تنموا فى الحياة فطالما كان التقاعس مؤذنا ببوار

= والنضار الذهب . أى أن عهود التأخر قد تركت ظلاماً مخيما على البلاد . ومع ذلك لا يزال فوق الذرى نور الشمس التى غربت .

(١) أى يتجلى فجر الأمل وأمامه الذكرى الساطعة للمجد القديم .

(٢) الحلى وجمعه حلى ما يصنع من مصوغ المعدنيات ، أو الحجارة الكريمة والمقدار هو القدر ، يريد أن مجد الماضى والمجد المأمول للمستقبل يتقابلان كشقى تاج لمصر .

(٣) يخاطب ركب المؤتمر وأعضاءه . ويصفهم بأنهم ذاهبون ليثأروا لمصر مما أصابها من ذلة وضيم .

(٤) الشقة : السفر البعيد .

ما اللُّجُّ وادَعَ أو تشاكسَ حارِناً ... إلا ذلول الراكب الكرار(١)
ما البَرُّ أنجد أو أغار بجائب ... إلا سليب خطًى ونَهْبُ قطار(٢)

* * *

ركبَ النجاة استطلعوا لبلادكم ... فى الغرب كل مطالع الأنوار
هُزوا منابِرَه بعالى صوتكم ... حتى يرنّ صداه فى الأقطار
أنتم جنود السِّلْمِ رُسُل جهاده ... أنتم أشمَّةَ مصر فى الأمصار
أنتم أشمَّة حزمها شفَّافةٌ ... عن حزنها والنورُ بَثُّ النار
ترجون أن تحيوا وتحيا مصركم ... حق الحياة وما بها من عار
لا تسأمون تغربا فى مبتغى ... أسمى الهنات وأشرف الأوطار

* * *

الحكم شورى لا تفرُّد صالحٌ ... فى غير حكم الواحد القهار
لا تسترقُّ عشيرةٌ وديارُها ... لعشيرة غـلّابةٍ وديار
العدل إن يُقصَد فليس بكائن ... فى نُكْر معرفة وغصب جوار
الرأى تكمَد شمسُه فى موطنٍ ... متناقضِ الإعلان والإسرار
الخير تُفقد سُبله فى مجمع ... متعارض الإقبال والإدبارِ

* * *

ماذا عليكم أن تكون شعاركم ... هذى المطالبُ وهى خير شعار

---

(١) لجج البحر أمواجه . أى ليس البحر إن سهل أو صعب إلا كالركوبة الذلول للفارس الذى يروضها .

(٢) الجائب المسافر .

لستم بسفاكى دم ، لستم إلى غير الحقيقة طامحى الأنظار
لستم غلاة ، والأقل مرامكم بين الشعوب السُّبَّق الأحرار
لستم غلاة ، خال ذلك منكم من لم يخلكم من ذوى الأخطار(١)
ليس الذى تبغونه من مطلب إلا أحقَّ مطالب الأحرار
من لم يخل فى مصر عبداً شاكياً فى فترة التفـــكير والإضمار
أجزِعُ بسارٍ آمنٍ فى معهد وثبتْ عليه فجاءةُ التزآر(٢)

* * *

إنى ليعجبنى كبيرُ مرامكم وهو الحقيق بغاية الإكبار
وأقول للمزرى بسنِّ صغاركم ليس العظيمُ نفوسُهم بصغار
أمهاجرى أرض الكنانة إنكم وجميعُ من فيها من الأنصار(٣)
إمضوا دعاةً للهدى واستنصفوا بالحق للبلد العزيز الجـار
كونوا الشهود له على أعدائه برجوع شمسِ نهاره المتوارى

الثبات فى الكفاح

وقال لما زاد اضطهاد الحكومة للأحرار وسلطت قانون المطبوعات على الصحف :

شَرِّدُوا أَخْيارَها بَحْراً وبَرّاً واقْتُلُوا أحرارها حُرّاً فَحُرّاً

(١) أى لستم غلاة كما توهم ذلك من ظن أنكم لستم من ذوى الكفايات والأقدار
(٢) أجزع ؛ أى ما أشد جزع . والفجاءة مصدر فجأة . والتزآر زئير الأسد . يريد أن الإنجليز فوجئوا بالحركة الوطنية فى ذلك العهد ؛ كما يفاجأ السارى بزئير الأسد .
(٣) يسمى أعضاء المؤتمر المهاجرين . وسكان مصر الأنصار ، تشبيها لهم بالمهاجرين والأنصار فى صدر الإسلام .

إنّما الصَّالحُ يَبْقَى صَـــالحًا آخِرَ الدَّهْرِ ويبقى الشّر شَرًّا
كَسِّروا الأقلام هَلْ تكسيرُها يَمْنَعُ الأَيْدِيَ أَنْ تَنْقُشَ صَخْرا
قَطِّعوا الأيدىَ هل تقطيعُها يمنع الأقدام أن تركب بحرا
حَطِّموا الأقدام هل تحطيمها يمنع الأعْيُنَ أن تنظر شَزْرا
أطفِئُوا الأعْيُنَ هل إطفاؤُها يمنع الأنفاسَ أنْ تَصْعَدَ زَفْرَا ؟
أَخْمِدوا الأنفاس ، هذا جُهْدكم وبِهِ مَنْجاتُنا مِنْكُمْ ... فَشُكْرًا !

وقال فى هذا المعنى حين توعدته الحكومة بالنفى من مصر على أثر نشره الأبيات السابقة :

أنا لا أخافُ ولا أرجَّي فَرَسى مُوَهَّبةٌ وسَرْجى
فإذا نَبَا بِىَ مَتْنُ بَرٍّ فالمَطِيَّةُ بَطْنُ لُجٍّ
لا قولَ غير الحقِّ لى قَوْلٌ وهذا النهجُ نَهْجى
ألوعدُ والإبعادُ ما كانا لدَىَّ طريق فُلْج(١)

يحيى رأس السنة الهجرية

ونظم سنة ١٩١١ قصيدة عصماء حيّا بها العام الهجرى (١٣٢٩) ، خاطب فيها شباب مصر ودعاهم إلى الاعتبار بما فى هجرة الرسول الكريم من المعانى الجليلة ، والأغراض السامية . وأهاب بهم أن يضاعفوا جهودهم لبعث الحياة فى مصر والشرق . قال :

هَلَّ الهلال فَحَيُّوا طالعَ العيد حَيُّوا البشير بتحقيق المواعيدِ

---

(٢) الفلج : الظفر .

يا أيها الرّمز تَستَجْلِي العقول به | لحكمة الله معنًى غيرَ محْدود
كأنَّ حُسنك هذا وهو رائعنا | حُسْنٌ لبِكرٍ من الأقمار مولود
لله فى الخلقِ آياتٌ وأعجبُها | تجديدُ رَوْعتها فى كل تجديد

***

فتيانَ مصر وما أدعو بدعوتكُمْ | سوى مجيبين أحراراً مناجيد(١)
سوى الأهلَّة من علمٍ ومن أدبٍ | مؤمِّلين لفضلٍ غير مجحود
المستَسِرُّ شعار المقتدين به | العاملين بمغزًى منه مقصود(٢)
ما زال من مبدإ الدُّنيا يُنبِّئنا | أنَّ التّمام بمسعاةٍ ومجهود
فإنْ تسيروا إلى الغايات سيرته | إلى الكمال فقد فُزْتم بمنشود

***

يا عيدُ جئتَ على وعدٍ تُعيدُ لنا | أوْلَى حوادثك الأُولى بتأييد
بل كنتَ «عيدين» فى التقريب بينهما | مَعنًى لطيفٌ ينافى كل تَبعْيد
رُدِدْتَ يوماً يُسَرُّ المؤمنون به | ولم تكن بادئاً يوماً لتعييد

***

رسالةُ الله لا تُنْهَى بلا نَصَبٍ | يُشقِي الأمينَ وتغريبٍ وتنكيد
رسالة الله لو حلَّتْ على جبلٍ | لانْدَكَّ منها وأضحى بَطنَ أُخدود
ولو تحمَّلها بحْرٌ لَشبَّ لظًى | وجَنَّ وانهال فيه كلُّ جُلْمود
فليس بدْعاً إذا ناء الصَّفِيُّ بها | وبات فى ألمٍ منها وتسهيد

---

(١) المناجيد : الشجعان السبّاقون إلى النجدة .

(٢) المستسر : المستتر ، أى القمر الذى لم يبد فى مطلعه إلا أقله .

يَنوى الترحُّل عن أهلٍ وعن وطنٍ ... وفى جوانحه إحزان مكبود
يكاد يمكثُ لولا أنْ تداركه ... أمر الإله لأمرٍ منه موعود

***

فاذ غلا القوم فى إيذائه خَطَلاً ... وشرَّدوا تابعيه كلَّ تشريد
دعا الموالين إزماعاً لهجرته ... فلم يجبْه سوى الرهط الصناديد
مضى هو البدء ، والصدِّيقُ يصحبه ... يُغامِرُ الحزَن فى تَيْهاءَ صَيْخُود(١)
مُولِّياً وجهه شطْر (المدينة) فى ... لَيْلٍ أغرَّ على الأدهار مشهود
حتى إذا اتخذ الغار الأمين حِمىً ... ونام بين صفاهُ نوم مجْهود
حماهُ وَشْىٌ بباب الغار منسدلٌ ... من الأُلَى هدَّدوه شرَّ تهديد(٢)
يا للعقيدة والصدِّيقُ فى سَهَرٍ ... تؤذيه أفعى ويبكى غير منْجُود
إن العقيدة إن صحَّت وزلزلها ... مُفْنى القُرى فهى حصنٌ غير مهدود

أمَّا الصِّحاب الذين استأخروا فتلَوْا ... سارين فى كل مَسْرَىً غيرِ مرصود
ماجند قيْصر أو كسرَى إذا افتخروا ... كهؤلاء الأعزَّاء المطاريد(٣)
كأنهم فى الدُّجى ، والنَّجم شاهِدهم ، ... فرسان رُؤْيا لشأنٍ غير معهود
كأنهم وضياء الصُّبح كاشِفُهم ... آمال خيرٍ سرت فى مهجة البيد
فى حَيْطَةِ الله ما شعَّت أسنَّتهم ... فوق الظِّلال على المهْرِيَّة القُود

***

(١) التيهاء : أرض يتيه فيها السالك . وصيخود شديدة الحر .
(٢) إشارة إلى ما نسج العنكبوت ببابه فضلل المتعقبين للرسول .
(٣) المطاريد : فرسان الطراد فى الحرب .

عانى « محمّد » ما عانى بهجرته ... لمأربٍ فى سبيل الله محمود
وكم غزاةٍ وكم حَرْبٍ تجشّمها ... حتى يعود بتمكين وتأييد
كذا الحياة جهادٌ ، والجهاد على ... قدْر الحياة ، ومن فادَى بها فُودِي
أدْنى الكفاحِ كِفاحُ المرء عن سَفهٍ ... للاحتفاظ بعمرٍ رهْنِ تحديد
ليغنم العيْش طَلْقاً كل مقتحم ... وليبغ فى الأرض شقاً كلُّ رِعديد
ومن عدا الأجلَ المحتوم مطلبهُ ... عدَا الفناء بذكرٍ غير ملحود

***

لقد علمتم ، وما مثلى يُنبئكم ... لكنّ صوتى فيكم صوتُ تَرْديد
ما أثمرَت هجْرةُ الهادى لأُمته ... من صالحاتٍ أعدّتها لتخليد
وسوّدتها على الدنيا بأجمعها ... طِوال ما خَلُقتْ(١) فيها بتسويد
بَدَا وللشِّرْك أشياعٌ تُوطِّده ... فى كلِّ مسْرَح بادٍ كلُّ توطيد
والجاهليون لا يرضون خالقَهمْ ... إلا كعبْدٍ لهم فى شكل معبود
مؤلِّهون عليهم مِن صناعتهم ... بعضَ المعادن أو بعض الجلاميد(٢)
مستكبرون أُباةُ الضَّيم غُرٌّ حِجي ... ثقال بطشٍ لِدانٌ كالأماليد(٣)
لا ينزل الرأى منهم فى تفرُّقهم ... إلا منازلَ تَشتيتٍ وتبديد
ولا يضمُّ دُعاءٌ من أوابدِهم ... إلا كما صِيحَ فى عُفرٍ عباديد
ولا يطيقون حكمًا غير ما عقدوا ... لذى لواءٍ على الأهواء معقود

***

(١) خلقت : استحقت .
(٢) الجلاميد : الصخور .
(٣) لدان ، جمع لدن ، وهو اللين.

بأىِّ حلمٍ مبيد الجهل عن ثقةٍ　　وأىِّ عزمٍ مُذلِّ القادة الصيِّد
أعاد ذاك الفتى الأُمىُّ أمته　　شملاً جميعاً من الغُرِّ الأماجيد
لتِلْكَ تاليةُ الفرقان فى عجبٍ　　بل آيةُ الحقِّ إذ يُبغَى بتأكيد
صَعبان راضهما : توْحيد معشرهم　　وأخذُهم بعد إشراكٍ بتوحيد
وزاد فى الأرض تمهيداً لدعوته　　بعهده للمسيحيين والهود
وبدئه الحكمَ بالشُّورى يتمُّ به　　ما شاءه الله عن عدْل وعن جود
هذا هو الحقُّ والإجماع أيَّدَه　　فمن يُفَنِّدُه أولى بتفنيد

***

أىْ مسلمى (مصر) إن الجِدَّ دينكم　　وبئس ما قيل : شعبٌ غير مَجْدود
طال التَّقَاعس والأعوام عاجِلةٌ　　والعام ليس إذا وَلَّى بمرْدود
هُبوا إلى عمل يُجدِى البلاد فما　　يفيدها قائلٌ : يا أمَّتى سودى
سَعياً وحزماً ، فوُدُّ العدل وُدُّكم　　وإن رأى العدلَ قومٌ غير موْدود
تعلَّموا كلَّ علمٍ وانبغُوا وخذوا　　بكلِّ خُلُقٍ نبيهٍ أخذَ تشديد
فكُّوا العقول من التَّصفيد(١) تنطلقوا　　وما تبالون أقْداماً بتصفيد

***

(مصر) الفؤاد فان تُدْرِكْ سلامتَها　　فالشَّرق ليس وقد صحَّت بمفؤود(٢)
الشرْق نصْنٌ من الدنيا بلا عملٍ　　سوى المتاع بما يُضنِى وما يودى

---

(١) التصفيد : التقييد .
(٢) المفؤود : المصاب فؤاده .

والغرب يرقى وما بالشرق من همم ... سوى التفاتٍ إلى الماضى وتعديد
تشكو الحضارةُ من جسمٍ أشلٌّ به ... شطرٌ يُعدُّ وشطرٌ غير معدود

***

أبناء (مصر) عليكم واجبٌ جَللٌ ... لبعث مجدٍ قديم العهد مفقود
فليَرجع الشرق مرفوع المقام بكم ... ولتزْهَ (مصر) بكم مرفوعة الجيد
ما أجمل الدهرَ إذ يأتى وأربُعُنا ... حقيقة الفعل والذِّكرى بتمجيد
والشرقِ والغربِ مِعوانانِ قد خلصا ... من حاسدٍ كائد كيْداً لمحسود
صنوان بَرّان فى علمٍ وفى عملٍ ... حُرّان من كلِّ تقييدٍ وتعبيد
لا فِعلَ يُخْطِىء فيه الخيرَ بعضُهما ... إلا تداركه الثّانى بتسديد
ولا خصومة إلاَّ فى استباقهما ... لما يَعمُّ بنفع كلَّ موجود
هذى الثِّمار التى يرجو الأنام لها ... من رَوْضكم كلَّ نامٍ ناضر العود
لمصر والشرقِ بل للخافقَيْن معاً ... دَعْ زعم كلِّ عدوِّ الحقِّ مرِّيد(١)

***

جُوزوا على بركات الله عامَكم ... فقد تبدَّل منحوسٌ بمسعود
رجاؤكم أبداً ملء النفوس ، فما ... يُنْفَى بحسنَى ولا يُوهىَ بتهديد
بدا الفلاحُ ، وفى هذا الهلال لكمْ ... بُشرى التّمام لوقتٍ غير ممدود
غداً نرى البدر فى طِرْسِ السماء محاً ... بخاتَمِ النُّور زلاَّتِ الدَّجى السود

---

(١) مريد : الخبيث.

يحيي بعثة الأطباء إلى حرب طرابلس

وقال سنة ١٩١١ يحيي بعثة الأطباء المصريين الذين ارتحلوا إلى ليبيا لمعاونة المجاهدين العرب الذين قاوموا العدوان الإيطالى :

سيروا على بركات الله واغتنموا … أجر الجهاد وأجر البِرِّ بالناس
لِيَشْفِ مِبضعُكم والرفقُ يُعملُهُ … صدع الرَّصاص وجرح الصَّارم القاسى
لَهْفى على شُوس(١) أبطالٍ تَلوكهم … غولُ الرَّدى بين أنيابٍ وأضراس
كانوا وقد ركِبوا للحرب أبهج ما … ترى العيونُ غياضاً فوق أفرَاس
واليوم قد عَثَروا تَنْدَى نضارتُهم … نَدَى الجفاف وتخبو شعلةُ البأس
كونوا لهم إن شكوا إخوان تأسيةٍ … وإن هم استوحشوا إخوان إيناس
رُدُّوا على الوطن الباكى أعزَّتَه … ودافعوا الموت عنهم دَفْعَ أكياس(٢)
فان أسقامهم فى كل جارحةٍ … منَّا وآلامهم فى كلِّ إحساس
للهِ مسعاتكم والحق يشكرها … والخلق يذكرها ترديد أنفاس
مبرَّةٌ طهُرَتْ أرواحُكم وسَمَتْ … بها مراتب فوق الضَّيْم واليأس
خوضوا المصاعب لا يُلْمِمْ بأنفسكم … ماقد تُلاقون من من ضُرٍّ ومن باس
هذا الهلال لكم رَأْدَ النهار هُدَى … وفى اعتكار الدَّياجى خير نبراس
وإن فى ظلِّه النَّادى برحمته … لَبَلْسماً لجراح القلب والرَّاس
أىْ عصبةَ الخير داووا أبرياء هَوَوْا … صرعى مطامعَ قُوَّادٍ وسُوَّاس
لو صوَّر الله فى جسم امرىءٍ مَلَكاً … لَصوَّر الملَكَ الإنسىَّ فى آسٍ(٣)

---

(١) شوس جمع أشوس وهو الشجاع الجرىء .
(٢) أكياس جمع كيس وهو الفطن الذى يحسن الفهم .
(٣) آس أى مداو للجروح .

عتب وطنى

وقال سنة ١٩٢٠ يعتب على أحرار مصر فى موقف تردد :

إن تكونوا حُماتها وبنيها ما لتلك الذِّئاب تعتَسُّ فيها ؟(١)
أفترضون أن تَهونَ عتيداً بعد ذاك الإباء فى ماضيها ؟
تلك أوطانكم تُباع عليكم صَفْقَةً بَخْسَةً فمن مشتريها ؟

رثاؤه لمحمد فريد

ونظم قصيدة رائعة فى رثاء الزعيم الشهيد محمد فريد سنة ١٩١٩ ؛ قال :

أفريدُ لا تبعد على الأدهار أنت الشهيد الخالد التذكار
بالأهل بالدم بالرفاهة بالغنى فَدَّيت مصر وفُديت من دار
حررت نفسك دائب المسعى إلى تحريرها لتعزّ بعد صغار
مسترسلا والدهر فى إقباله مستبسلا والدهر فى الإدبار
ثَبْتاً إذا ما الراسخون تقلقلوا متوافق الإعلان والإسرار
فبررت بالعهد الذى عاهدته ووفيت فى الإيسار والإعسار
ما كان ذاك العمر إلا قُربة موصولة الآصال بالأسحار
ومن المنى ما ليس يوفى حقه حتى يكون الجود بالأعمار

فريد ومصطفى :

إنى لأذكر مصطفى ورفيقه فى مستهلهما وفى الإبدار

(١) تعتس تطرق ليلا .

متوخياً إعتاق مصر كلاهما وكلاهما لأخيه خير مبار
وكلاهما يسعى الغداة مذللا سبل النجاح لمقتفى الآثار
وكأن مصر حيال كل مخاطر إذ ذاك فى شغل عن الأخطار
فى قلبها حب الحياة طليقة لكنها تخشى أذى الإظهار
وضميرها آناً فآناً يجتلى فيُرى كما اقتدح الزناد الوارى
عرفا حقيقتها وبثا بثهـا ثقة وما كانا من الأيسار
لم يلبثا متآزرين بنيـة مصدوقة فى خفية وجهار
حتى إذا ما أيقظا إيمانها فذكا ذكاء النور قبل النار
أبدت أساها يوم فارق مصطفى هذا الجوار ورام خير جوار

فريد رئيساً للحزب الوطنى :

ذهب الرئيس فنيط عبء مقامه بالأنزه الأوفى من الأنصار
أفريد هذا الشأو قد أدركتَه وسبقت من جاراك فى المضمار
فتقاض أضعافَ الذى قدمته واستسق صوب العارض المدرار
إن تلتمس جاها أصِبْ ما تشتهى أو رفعةً فاظفر بالاستيزار
والشرق يقبل قد عملت من الأولى يتحملون غرائب الأعذار
الشعب شبه البحر لا تأمن له ما أمن مقتعد متون بحار
فغداً ويا حذرا لمثلك من غد قد تستفيق ولات حين حذار
يسلو الأولى عبدوك أمس وربما كوفئت من عرف بالاستنكار
فتبيت صفر يد وكنت مليئها وتذوق كل مرارة الإقتار
لكن أبيْتَ العرض إلا سالما وإن ابتليت بشقوة وضرار

لم تعتقد إلا الولاء وقد أبى ... لك أن تلبى داعى الإخفار
وسموت عن أن يستميلك خادع ... بالمنصب المزجَى أو الدينار
فظللت مبدؤك القويم كعهده ... عند الوفاء وفوق الاستئثار

تزداد صدق عزيمة بمراسه ... ورسوخ إيمان بالاستمرار
ما إن تبالى ساهراً مترصداً ... يرنو إليك بمقلة الغدار
يجنى عليك لغير ذنب باغيا ... والبغى جنّاء على الأطهار
من كان جار السوء يوما جاره ... عدت فضائله من الأوزار

فريد فى السجن :

قل للرئيس إذا مررت بسجنه ... إن السجون معاهد الأحرار
وافيته طوعا ورأيك ثابت ... أن اعتقالك مطلق الأفكار

إن يحجبوك فإن فكرك رافع ... نوراً تضاء به سبيل السارى
كم تحجب الظلمات طوداً شامخاً ... فيلوح فوق ذراه ضوء منار
إنا لنسمع من سكوتك حكمة ... ونرى هدى فى وجهك المتوارى
وإذا النفوس تجردت لمرامها ... غَنِيتْ عن الأسماع والأبصار
حاشاك أن تأسى وهل تأسى على ... علم بأن التِّم بعد سِرار
الأنبياء انتابهم زمن به ... لزموا التفرد عن رضاً وخيار
لجأوا إلى الخلوات واحتبسوا بها ... شظف المعايش لا بسى الأطمار
مستجمعين مروضين قلوبهم ... لقيام دعوتهم على الأخطار
ومن الغيابات التى أمسوا بها ... بعثوا الهدى كالشمس فى الإزهار
سل موحشاً فى طور سينا سامعاً ... كلم المهيمن فى اصطعاق النار

سل طيف جلجلة يكاد من الطوى يسمو به راقٍ من الأنوار
ســل خالياً بحراً يلبي ربه في الغار عن صرعاته في الغار
بالعزلة اكتملوا ورب مروض للنفس حــررها بالاستئسار
لا شيء أبلغ بالدعاة إلى المنى من أن تمحصهم يد المقــدار

فريد في طريق المنفى :

لم يكفه ما كان حتى جاءه ما فوق غَلٍّ الجيد والإحصار
النفي بعد السجن : تلك عقوبة أعلى وأغلى صفقة للشــارى
يسموا بها السجن القريب جداره شرفا إلى سجن بغير جدار
لا يترك الجارى عليه حكمه إلا ليدركه القضاء الجــارى
أى السفائن تستقل كأنها إحدى المدائن سيرت ببخار
ينأى بهــا عن أهله ورفاقه دامى الفؤاد وشـيك الاستعبار
ينبو ذرا البلد الأمين بمثــله والزاحفات أمينــةُ الأحجار
متلفتاً حين الوداع وفى الحشى ما فيه من غصص ومن أكدار
متشبعاً مترويّاً ممــا يرى لشــفاء مسغبــة به وأوار
يرنو إلى صُفر الشواطىء مُنطقت أعطافهــا بالأزرق الزخار
ويذوب قبل البين من شوق إلى أنس الحمى وجمــاله السحار
يستاف ما تأتى الصبا بفضوله من طيب تلك الجنة المعطار
وبسمعه لحن المواطن جامعا لغــة الأنيس إلى لغى الأطيار
لهفى عليه مشرداً قبل الردى سيهيم فى الدنيــا بغــير قرار

من أجل مصر يؤم كل ميمم ... فى قومه ويزور كل مزار
لايوم يسكن فيه من وثب، ومَن ... بسكينة للكوكب السيار ؟
فى غربة موصولة آلامها ... أنضته فى الرحلات والأسفار
تنتابه الصدمات لا يشكو لها ... إلا شكاة المحرب الكرار
ثقة بأن الفوز ليس لجازع ... فى العالمين ، الفوز للصبار
وتعضه الفاقات لا يلوح بها ... عزا ويسترها بستر وقار
حرصا على المتطولين بفضلهم ... أن يجنحوا وَجَلًا إلى الإقصار

فريد فى مرضه :

ما كان هذا الحد حد عذابه ... تردى الأسود ضرورة الأخدار
صال الشقاء على فريد صولة ... بين الجوانح أنذرت ببوار
قصرت لياليه على مجهوده ... واليوم عدن عليه غير قصار
ما بال ذاك الوجه بعد تورّد ... خلع النضارة واكتسى ببهار ؟
ما بال ذك الوجه بات من الضنى ... كالرسم فى جرف به منهار ؟
ما بال ذاك العزم بعد مضائه ... عثرت به العلات كل عثار ؟
ما بال ذاك القلب بعد خفوقه ... تنتابه هدآت الاستقرار ؟
أمسى يعالج سكرة فى نزعه ... من لم يذق فى العمر طعم عقار
ولو استطاع لما أضاع دقيقة ... يمضى الزمان بها مضى خسار
وفّى بما أعطاه حق بلاده ... والموهبات ترد ردّ عوارى
أمكانه هذا أتلك حليه ... والبيت خال والمقلد عارى ؟

أكذاك يختم فى الشقاء حياته   من كان جم الجاه والإيسار
ماذا تفى من حقه بعد الذى   عاناه كل قلائد الأشعار
إن الذى يبلوه شارى قومه   غير الذى نتلوه فى الأسطار

عظة وفاته :

مات الرئيس فراع مصر وأهلها   ذاك النعىُّ وذاع فى الأمصار
مات العصامى العظامى الذى   ما كان بالعاتى ولا الجبار

تحية الختام :

أفريد هذا ما يهيئه الفدى   لعشيرة فديتها وديار
نم إن مصرا عنك راضية وفز   من شكرها بمثوبة الأخيار
أوشكت أجزع فانتهيت بأننى   آنست فيك مشيئة للبارى

تحية الشهداء

قال فى حفلة أقيمت سنة ١٩٢٤ لتحية أرواح شهداء الحركة الوطنية :

إلى أرواح الشهداء

تحيةً أيها القَتلَى وتسليما   بلغتم الشَّأْوَ تخليداً وتعظيما
لا يعبُدَ المرء ربًّا لا ولا وطناً   بمثْل إغلائه القُربان تقديما
قلتم وصدّق ما قلتم تحمُّلكم   أذى يَرُدُّ فِرِنْدَ الصبر مثلوماً(١)
ما الموت إن كان إنقاذ البلاد به   من غاصبٍ وانتصافُ الشَّعب مظلوما

(١) الفرند : حد السيف .

يُحطَّم العظمُ منكم دون بُغيتكم فتصبرون ويأبى العزم تحطيما
برًّا (بمصر) وخوفاً أن يُسلِّمَها إلى العِدَى واهِنو الإيمان تسليما
ليس الشهادة إلا من يموت على حقٍّ ومن لا يبالى فيه ما سيما
إمضوا رفاقاً كراماً ، حسبكم عِوضاً مجدٌ عزيز على الخُطَّاب إنْ ريما
للمشترى بصباهُ عزٍّ أمته ذكرٌ يُديمُ اسمه بالتِّبر مرقوما
وللتى استبدلت بالقبر مرتعها قِسطٌ من الفخر فوق العمر تقويما
لا تحسبوا مصر تنساكم فكلُّكمو يَبقَى على الدهر مرؤوماً ومرحوما
وفى المرابع من أرواحكمْ نَسَمٌ تظلُّ تأتى بها الأرواحُ تنسيما

تحية للذين أطلقوا من الاعتقال

وقال فى هذه القصيدة مخاطبا من أفرج عنهم من الاعتقال :

يا خارجين كراماً من محابسهم ومبهجى كلِّ قلبٍ كان مغموما
كم كُبِّلَ الحقُّ بالأصفاد من قِدَمٍ ثم انطوَيْنَ وباء البُطْلُ مهزوما
يا سوء دهرٍ قَضتْهُ قبل نهضتها (مِصْرُ) يخيِّم فيها الذُّلُّ تخييما
تَهِى قوَى اللَّيث من عَيْثِ الذِّئاب بها ويلْتوى الأمرُ تحليلاً وتحْريما
فاليومَ عاد إلى رأيٍ يُشرِّفها من ظنَّ إقليمها للخفض إقليما
دَلَّتْ على قوةٍ فيها صلابتكم تذود عنها الأَشِدَّاءَ المقاحيما
هل يُجْزِىء الشكر من ضَيم تحمَّله بالأمس من كان منكمو فى رأيه ضيما
قد أثَّموكم وكم من مُثلةٍ نزلَتْ بالأبرياء وبالأبرار تأثيما

وبعض ما عاقبُوكم فيه جَعْلُكمو صِدْقَ الهوى لِلحِمَى دِيناً وتعْلِيما
لا حاكماً دون ما أوحتْ ضمائرُكم تُرَاقبون ولا تَرْعَوْنَ محكوما

***

لقد ظفرتم بما أدنى القَصِىَّ لكم من المرام فليس الفوْزُ مزعوما
هل استقام زمانٌ لا يُقَوِّمه بنوه بالصبر والإقدام تقويما ؟
أو نال حُرِّيةً قومٌ بها جدُرُوا وهم يبالون تَقْتيلاً وتكليما (١)

***

يا سادةً كالنجوم الغُرِّ منزلةً وسيداتٍ كعِقْد الدُّرِّ منظوما
حمداً لإقبالكم هذا وحفْلتكم تُهنِّئون الصَّناديد المقاديما
من الأُولى ماونَوْا عن واجبٍ فبَنوْا لعزِّ « مِصْر » طرافاً (٢) كان مهدوما
أولئكم إن بدَا من فضلهم أثرٌ فكم لهم من جميلٍ ظلَّ مكتوما
فلْتَحْيَ « مِصْرُ » وأبرَارُ نُجِلُّهمو ونحتفى بهم حُبا وتكريما

رثاؤه لأمين الرافعي

ومن قصيدة له فى رثاء المرحوم أمين الرافعى الذى انتقل إلى جوار ربه فى ٢٩ ديسمبر سنة ١٩٢٧ . وقد ألقيت هذه القصيدة فى حفلة تأبينه :

باعوا المخَلَّدَ بالحطام الفانى وَشَرَيْتَ بالأغلَى من الأثمان
تلك الحيــاة أمانةٌ أدَّيتها بتمامهـــا لله والأوطان

---

(١) التكليم : التجريح .
(٢) الطراف : البيت .

بالصبرِ والإيمانِ أُخْلِصَ بَدْؤُها وختامها بالصبر والإيمــان
أَعْرضت عن لذاتها منذ الصِّبي والرَّوْضُ تُغرِى والقطوف دوانى
متوخِّياً من دونها أُمنيَّةً لم يوهِ وَحدتها شتيتُ أمانى
تَهوى البلادَ ولا هَوَى لك غيرها أو تُفْتدى من ذلَّةٍ وهوان
ظلت تنازعك الصُّرُوف بما بها من مُنَّةٍ ، وظلت ثَبْتَ جَنان
مُستنزفاً دمك الزَّكِىَّ ولم يُرَقْ بِشَباَةِ قِرْضابٍ ولا بسنان
فى صولة للدهر تعقُبُ صولةً مُنْشَابةً فى الآن بعــد الآن
حتى قَضَيْتَ شهيدَ رأيك وانقضى ما كنت تلقَى دونه وتعانى
وَيحَ الأَبِىِّ تسوءه أيامه وتَسُرُّ كلَّ مماذقٍ(١) مذْعان
ممن يقدِّم فى الرجال وما به إلا الطِّلاء بكاذب الألوان
ماذا دهى «الفسطاط» حين تجاوبت أصداؤها لنواك بالإرنان ؟(٢)
وجلا عن القدَر المخبَّأ ليلُها وبدا الصباحَ مقرَّحَ الأجفان

* * *

خطبٌ أرانا فى مجالات الفِدَى والصدقِ كيف مصارعُ الشجعان
فالشرق فى شَرَقٍ من الدمع الذى أجرى العيون وفاضَ بالغُدران

* * *

أي « مصطفى » يبكيك قومك كلما عادتْهمو ذكرى فتى الفتْيان
يوم الوفاء دعا فكنتَ لواءه وطليعةً لطليعة الفرسان

(١) مماذق : أى غير مخلص .
(٢) الإرنان : رفع الصوت .

هذا شهيدٌ من ولاتك خامسٌ يَهوَى بحيث هويت فى الميدان
لكأنَّهم ، والموتُ أسوأُ مغنمٍ ، يتراكضون إليه خيلَ رهان
بذَلوا النفوسَ كما بذَلْت وأرْخَصوا ما عزَّ من جاهٍ ومن قُنيان
فإذا ذُكرتَ وأنت عنوان الفدى فاسم الرفاق تتمة العنوان

وظل خليل مطران يغرد بشعره ألحان الحرية ، ولا ينقطع عن التغريد حتى فاضت روحه الكريمة مساء ٣٠ يونيه سنة ١٩٤٩ .

* * *

أحمد محرم

١٨٧١ – ١٩٤٥



شاعر ملهم ، من شعراء الوطنية والأخلاق ، كان أدباء الجيل يضعونه فى صف شوقى وحافظ ومطران ، وكان شيخ الشعراء إسماعيل صبرى يتغنى بشعر هؤلاء الأربعة ويطيب له التحدث عنهم ، وامتاز محرم إلى جانب مكانته الشعرية بحرارة العاطفة ، وتذوقه للفن والجمال ، وقوة إيمانه ، وتأملاته العميقة الفلسفية ، واستمساكه طول حياته بمبادئه الوطنية ، فكان شعره كله وقفاً على هذه المبادىء ، لم ينحرف عنها يوماً فى قصيدة أو فى أى بيت من الشعر ، ظل مقيما عليها وفياً لها فى السراء والضراء ، فكان حقاً مثلا أعلى فى الشعر والوطنية ، وكان مصطفى كامل يعجب به وبشعره ، ويشيد به على صفحات (اللواء) ، ويسميه (نابغة البحيرة) ، وبقى أحمد محرم على صلته به ووفائه له ولذكراه ، كما ظل وفياً لمبادىء الوطنية إلى أن توفاه الله فى ١٣ يونيه سنة ١٩٤٥ .

كان شاعراً بفطرته وسليقته ، قال الشعر وهو فى سن مبكرة . ومعلّقته التى يقول فى مطلعها :

منازل سلمى لا عدتك الغمائم   وإن درست بالجزع منك المعالم

قد نظمها وهو فى السادسة عشرة من عمره .

وطنيته فى شعره

تتجلى روحه الوطنية التى ألهمته الشعر أكثر ما تتجلى حين أصدر الجزء الأول من ديوانه سنة ١٩٠٨ ، فقد أهداه إلى (النيل) ، وكتب كلة الإهداء فى عنوان الكتاب (هدية النيل) ، وأعقبها بهذا البيت الذى يترجم عن وطنيته الأصيلة مخاطباً النيل قال :

وَهَبْتُكَ مُلْكَ القريض العتيد   وذلك أفضل ما يوهبُ

وقال فى مقدمة ديوانه يشرح المعنى الذى استوحاه فى إهداء ديوانه إلى النيل :

« لقد جرى أكثر الكتاب والشعراء على أن يهدوا مؤلفاتهم إلى من شاؤا من ذوى الثروة والجاه تعرضاً لمؤازرتهم والانتفاع بهم وسط هذا الكساد الآخذ بأكظام الأدب فى بلادنا ، ولكننى انصرفت بشعرى عن تلك المواقف ، وبرئت إلى نفسى أن آخذ بهذه الأسباب ، على ما أعلم من وعورة مسلكى، وضيق مضطربى، وما كنت فى ذلك إلاّ جارياً على سنتى فى سياسة نفسى، وتصريف ما آتى وأدع من أمور الحياة ، فما استظهرت بغير أخ حفّى، أو صديق صفّى ، ولا آثرت أن أهدى ديوانى إلى غير (النيل) ، ذلك الأب الذى وهبنى نعمة الحياة ، وأفاض علىّ هذه المنح والصلات .

فيانيلُ أنت الهوى والحياة   وأنت الأمير وأنت الأبُ
ويا نيل أنت الصديق الوفىّ   وأنت الأخ الأصدق الأطيب
وأنت القريض الذى أقتفى   فيزْهى به الشرق والمغربُ
فإن أهب الخصبَ هذه العقول   فما سننتَ لهـا تخصب

وإن أنا أطربت هذه النفوس		فصوتك لا صوتى المطرب
تسيل فتتدفق الرائعات		وتجرى فتستبق الجوب

إلى أن قال :

لئن فاتنى الذهب المستفاض		فما فاتنى الأدب المذهب
وهبتك مُلْك القريض العتيد		وذلك أفضل ما يوهب

وقد ظهر الجزء الثانى من ديوانه سنة ١٩٢٠ .

دعوة الوطنية

قال يدعو مواطنيه إلى الإخلاص لبلادهم والعمل على استعادة مجدها :

دعا فأثار الساكنين دعاؤه		ونادى فراع الآمنين نداؤه
أخو وصَب ما أن يحم انقضاؤه		وذو أرب ما أن يحين قضاؤه
به من بنى مصر عناء مبرّح		فياليت شعرى هل يزول عناؤه ؟
أما إنه لو كان يُشفى غليلَه		بكاء على مصر لطال بكاؤه
تَقَسمها الأقوام لا ذو حمية		فيحمى ولا واق فيُرْجَى وقاؤه
وما مصر إلاّ موطن نحن أهله		عزيز علينا أرضه وسماؤه

إلى أن قال يستنكر الاحتلال البغيض ويهيب بالأمة أن تحاربه :

ثوى فيه أقوامٌ مللنا ثواءهم		ويا رُبّ ثاوٍ لا يُمَلُّ ثواؤه
لقد كان يأبى أن يذلّ لغاصب		فياليت شعرى أين ضاع إباؤه ؟

لقد كان يرعاه رجال أعزة بهم من صروف الدهر كان احتماؤه
همُ ناضلوا عنه فصانوا ذماره بصارم عزم ما يُردّ مَضاؤه

***

بنى وطنى لا تسخطوه عليكمُ فليس سواءً سخطه ورضاؤه
بنى وطنى خلّوا التخاذل إنه بلاؤكم يجتاحكم وبلاؤه
سلامٌ عليكم من أخ ذى حمية دعى فأثار الساكنين دعاؤه

لواء الوطنية

وقال يمجد لواء الوطنية ويدعو إلى الالتفاف حوله والتضحية فى سبيله :

فداؤك نفسى من لواء محبب حمى جانبيه كل ماضٍ مدرّب
إذا ما دعى أنصارَه التف حوله جحاجحةٌ (١) من ذائد ومذبب
فمنهم قؤول للصواب مسدّد يصرِّف صرّاراً له وقع أشطب
يدين له الجبار غير معذل ويعنو له المغوار غير مؤنّب
ومنهم فعولٌ للمكارم ماجدٌ يلبي نداه كل داعٍ مثوّب
هم الصحب صانوا للديار لواءها وصالوا على أعدائها غير هُيّب
يكرّون كرّ الدارعين إلى الردى إذا الحرب أبدت عن عبوس مقطب
إذا طلبوا حقا تداعوا فأجلبوا على سالبيه فانثنوا غير خُيّب

إلى أن قال :

وما منع الأوطانَ إلاّ حماتُها وذادتُها من ذى شباب وأشيب

---

(١) جحاجحة جمع جحجاح السيد المسارع فى المكارم .

هُمُ ذخرُها المرجوُّ فى كل حادث　　وعُدَّتها فى كل يوم عَصَبْصَب
سلامٌ عليهم من كهول وفتية　　وبورك فيهم من شهود وغُيَّب

كبوة الشرق

وقال تحت عنوان (كبوة الشرق) يستصرخ أهله ليعيدوا إليه سالف مجده :

متى ينهض الشرق من كبوتهْ　　وحتى متى هو فى غفوتهْ ؟
كَباَ وكذلك يكبو الجواد　　براكبه وهو فى حلبته
ونام كما نام ذو كربة　　تملكه اليأس فى كربته
وَهَى عَزْمُهُ ما يطيق الحراك　　وقد كان كالليث فى وثبته
تجرّ عليه عوادى الخطوب　　كلا كلَها وهو فى غفلته
نواهبُ ما كان من مجده　　سوالبُ ما كان من عزّته

إلى أن قال :

فيالهف قلبي لمجـــدٍ مضى　　ويا شوق نفسى إلى عودته !
ويا لهف آبائنـــا الأولين　　على الشرق إن ظل فى نكبته
همُ غادروه كروض أريض　　تتوق النفوس إلى نضرته
ونحن تركناه للعاديات　　ولم نرع ما ضاع من حرمته
فأذْهَبْن ما كان من حسنه　　وأفنين ما كان من بهجته

***

فهل يسمح القول أهل القبور　　خطيبٌ فيسهب فى خطبته

يناديهم فيم هذا الرقاد ؟ كفى ما دهى الشرق من رقدته
لقد ضاع بعدكمو مجدُه وكل المثالب فى ضيعته
وأنتم رجال ذوو نجدة فلا تقعدوا اليوم عن نجدته

يدعو إلى بعث مصر

وقال يذكر مجد مصر الغابر ويدعو مواطنيه إلى النهوض لاستعادة هذا المجد :

أهذى ديار القوم غَيَّرها الدهرُ فعوجوا عليها نَبكِها أيها السفر
محى آيَها مرُّ العصور وكرُّها إذا مرّ العصرُ كر من بعده عصر
تسائلها أين استقلّ قطينها وهل تنطق الدار المعطلة القفر ؟
وكائن ترى من ذى ثمانين خَضّبت لطول البكا من شيبه الأدمعُ الحمر
بكى وطنا أودت بسالف مجده حوادث دهر من خلائقه الغدر
أغارت عليه من جنوب وشَمْأل فما برحت حتى أتيح لها النصر

* * *

ألا إنها مصر التى شقيت بنا فياويح مصر ما الذى لقيت مصر ؟
مضى عزّها القُدْموسُ(١) ما يستعيده بنوها فلا عزٌّ لديهم ولا فخر
هم رقدوا عنها فطال رقادهم فديتكمو هُبّوا فقد طلع الفجر !

(١) القدموس : القديم .

ذكرى ١٤ سبتمبر سنة ١٨٨٢

وقال عن ذكرى احتلال الإنجليز القاهرة يوم ١٤ سبتمبر سنة ١٨٨٢ :

نلومك يا يوم النحوس ونعذل   وأنت على ما أنت تمضى وتُقبل
فلانحن ما عشنا عن اللوم نُرعوى   ولا أنت ما كرّ الجديدان تحفل

إلى أن قال :

لعلك أن تأتى بما تعد المنى   نفوسَ رجال أوشكت تتململ
لحى الله قوما حّملونا من الأذى   بما ضيّعوا الأوطان ماليس يحمل
همُ خذلوها فاستبيح حريمها   وما برحت تبغى انتصاراً فُتخذل

يهاجم الاحتلال

وقال سنة ١٩٠٢ ينعى على الاحتلال بغيه وعدوانه ، وعلى الإنجليز نقضهم للعهود والمواثيق :

فى كل يوم شرعة ونظام   ما هكذا الأحكام والحكّام
عشرون عاما والديارُ مريضةٌ   تنتابها الأدواء والأسقام
لم يعرف المتطبّبون دواءها   فتنوعت فى دائها الأوهام
إن الأُساة لتعلم الداء الذى   ترك العليل تذيبه الآلام
ولربما غشّ الطبيب عليلَه   حتى يعود الداء وهو عقام
كيف الشفاء لمصر من أدوائها   أم كيف يُرجَى عزُّها ويرام؟
والمصلحون كما علمتَ وأهلُها   عنها على زَجْر المهيب نيام

إلى أن قال مخاطبا بريطانيا :

يادولةً رفعت على أوطاننا علما تُنكّسُ تحته الأعلام
أين المواثيق التى أبرمتها إن كان منكِ لموثقٍ إبرام ؟
لم تحفلى بعهودنا فنقضتها ياهذه ، نقضُ العهود حرام
عشرون عاما ما كَفَتْكِ وهكذا تأتى وتذهب بعدها الأعوام
طال المقام وأنتِ أنتِ ولم يكن ليطول لولا الجهل منكِ مقام

وقال يهيب بالأمة أن تهبّ للجهاد :

يا أمة خاط الكرى أجفانَها هُبِّي فقد أودت بك الأحلام
هبّى فما يحمى المحارمَ راقدٌ والمرء يُظلم غافلا ويُضام
هبّى فما يغنى رقادك والعدى حول الحمى مستيقظون قيام
غنموا نفائسه وثَمَّ بقية ستنيلها أيديهم الأيام

* * *

عجبا لهذا النيل كيف نعقُّهُ ويدوم منه البرُّ والإكرام
لو كان يجزينا بسوء صنيعنا أودى بهاتيك النفوس أُوام
لكنها رَحِمٌ الجدود ولم تزل تُرعى لدى أمثاله الأرحام

* * *

يا آل مصر خذوا نصيحة شاعر أبداً يكلف نصحكم ويسام
لا تغفلوا عنها فليس بغافل عنكم وعنها ذلك الضرغام

شيئان يذهب بالشعوب كلاهما　　نومٌ عن الأوطان واستسلام
إلاّ يَحِنْ للراقدين قيــامُ　　فعليهمُ وعلى الديار ســلام

يدعو إلى البذل والتضحية فى سبيل مصر

من قصيدة له نظمها سنة ١٩٠٤ لمناسبة إنشاء مدرسة محمد على الصناعيــة بالإسكندرية :

من يُسعد الأوطانَ غيرُ بنيها　　وينيلها الآمال غــيرُ ذويهـا
ليس الكريم بمن يرى أوطانه　　نَهْبَ العوادى ثم لا يحميهـا
ترجـو بنجدته انقضاء شقائها　　وهو الذى بقعـوده يشقيهـا
وتودُّ جاهــدةً به دفعَ الأذى　　عن نفسها وهو الذى يؤذيها
سُبُلُ المكارم للكرام قويمة　　فعــلامَ يخطئها الذى يبغيها ؟
ما أكثر المتفاخرين وإنما　　فخر الكرام بما جنت أيديها
يحوى الكريم المالَ لا يبغى به　　شيئاً ســوى أكرومة يحويها
والجود يُحمد حيث كان وخيره　　ما نال أوطان الفتى وبنيهـا
ولقلما أرضى امرؤ أوطانه　　حتى تراه بنفســه يفــديها

* * *

يا آل مصر وما يؤدى حقهـا　　إلاّ فتى يكفى الذى يعنيهـا
هى أمكم لا كان من أبنائها　　من لا يواسيها ولا يُرضيها
وهَبَتــكم الخيرَ الجزيل فهل فتى　　منكم بحسن صنيعها يجزيها ؟

سعدت لعمرى بالصنائع حقبةً   دلّت على (عجل) فمن يثنيها ؟
دار الصنائع خير دار تُبتنى   فالله يجزى الخير من يبنيها

يطعن فى الملوك ، ويستهجن الرتب والألقاب

من قصيدة بعنوان (الشرف والملوك) ، وإذا عرفت أنه نظم هذه القصيدة ونشرها سنة ١٩٠٨ فى الجزء الأول من ديوانه ، لرأيت أنه أول شاعر وطنى حمل على الرتب والألقاب ، وأول من هاجم الملكية والملوك بهذه القوة والشجاعة ، فسبق بهذه القصيدة الخالدة عجلة الحوادث بنصف قرن من الزمان، قال :

كذَب الملوك ومن يحاول عندهم   شرفاً ويزعم أنهم شُرَفاء ؟
رُتَبٌ وألقاب تغرُّ وما بها   فخرٌ لمحرزها ولا استعلاء
آناً تباع وتارة هى خدعة   تُمنى بشر سُعاتها الأمراء
كم رتبة نَعِمَ الغبيّ بنيلها   من حيث جلّاها أسى وشقاء
لو كان يعلم ذُلَّها وهوانها   ما طال منه الزهو والخيلاء
يَلْقَى الكرامة حيث كان وفعلُه   جَمُّ المساوئ والمقال هراء
تلك الجهالة والغرور وباطلٌ   ما يصنع الأغرار والجهلاء

* * *

ذنبُ الملوك رمى الشعوب بنكبة   جُلّى تنوء بحملها الغبراء
لا المجد مجدٌ ما عبثت به   أيدى الملوك ولا السناء سناء

مالوا عن الشرف الصميم وأحدثوا ... ما شاءت الأوهام والأهواء
رفعوا لطغام على الكرام فأشكلت ... قِيَمُ الرجال ورابت الأشياء
وإذا الرعاة تنكبت سبل الهدى ... غوت الهداة وطاشت الحكماء
وإذا الطبيب رمى العليلَ بدائه ... فبِمن يؤمل أن يبلّ الداء ؟

* * *

لو جاور الشرفُ الملوكَ لأورقت ... صُمُّ الصخور وضاءت الظلماء
ظلمٌ يُبرِّحُ بالبرىء وغلظةٌ ... يشقى بها الضعفاء والفقراء
الحق منتَهكٌ المحارم بينهم ... والعدل وَهْمٌ والوفاء هباء
رفعوا العروش على الدماء وإنما ... تبقى السفينة ما أقام الماء !

يرثى مصطفى كامل

قال سنة ١٩٠٨ من قصيدة له فى رثاء مصطفى كامل :

ما زلت تقتحم المصاعب مجهدا ... نفسا موطّنةً على الأهوال
حتى طواك الموت غير مجامل ... شعبا يجلّك أيما إجلال
أحييته وقتلت نفسك بالذى ... حمَّلتها من فادح الأثقال
هلا رحمت نفوسنا فرحمتها ... وبقيت تكفينا أذى المغتال

وختمها بقوله :

إن كان قد حُمَّ الفراق فوقفة ... تشفى نفوسا آذنت بزوال

هيهات ما جزع النفوس لراحل ... سارت به الحدباء غير خيال
سرْ فالحياة كما علمت رواية ... مختومة الأدواء بالآجال

يدافع عن حرية الصحافة ، ويلوم الخديو عباس

قال من قصيدة له سنة ١٩٠٩ ينعى على الحكومة تقييدها حرية الصحافة ، وفيها يوجه اللوم إلى الخديو عباس الثانى فى خذلانه للأمة :

صُبوا المداد وحطّموا الأقلاما ... واطووا الصحائف وانزعوا الأفهاما !
وخذوا على الوجدان كل ثنية ... واقضوا الحياة مزملين نياما
ودعوا البلاد تذوق من عنت العدا ... ما شاء خادمها الخؤون وناما

* * *

اليوم نُمنع أن نئن لمؤلم ... أو نشتكى الإعنات والإرغاما
والله لا ندع الشكاية منهم ... أو يمنعوا الأوصاب والآلاما
كيف القرار على الإساءة والأذى ... أم كيف نكتم فى القلوب ضراما ؟
ومتى رضينا أن نعيش أذلة ... فنطيق مسكنة أو استسلاما ؟

إلى أن قال يخاطب الخديو عباس الثانى ويلومه :

ماذا بدا لك فاعتزلت صفوفنا ... أفأصبحَت حرب الغزاة سلاما ؟
الحرب دائرة وجيشك قائم ... ينضى السيوف ويرفع الأعلاما
والملك مضطرب ومصر كعهدها ... تدعو الحماة وتشتكى الأقواما
إن كنت خاذلها ولست بفاعل ... فحماتها لا يخفرون ذماما(١)

---

(١) يقصد بحماتها أبناءها المجاهدين .

أتخون مصر وما تحوّل نيلها سمًّا وما انقلب الضياء ظلاما
نبغى لها الشرف الأشمَّ مؤيداً بالبأس يؤيس صرحه الهداما
ونعز رايتها ونمنع حوضها ونزيد صادق حبها استحكاما
عباسُ رأيك فى البلاد وأهلها أن الأذى يستضرم الأوغاما
إن كان عسف فالزمان مؤرخ يحصى لنا الحسنات والآثاما

* * *

قلمى . كتابى . أمتى . وطنى . متى نشفى نفوسا تستطير أواما ؟

يندد بملوك الشرق

من قصيدة له سنة ١٩١٢ بعنوان (الملك الزائل) يندد فيها بملوك الشرق لمناسبة ضياع مراكش بعد توقيع السلطان عبد الحفيظ المعاهدة التى قبل فيها وضع بلاده تحت حماية فرنسا :

هَوَت العروش وزُلْزِلت زلزالا عرشٌ هَوَى وقديم مُلكٍ زالا !
رِيعت لمصرعه المشارق إذ مشَى فيها النَّعىُّ وأجفلت إجفالا
سَلَبَ المغيرُ حياتَه واستأصلت أيدى الجوائح عِزَّه استئصالا
تَنْجُو الممالكُ ما نجا استقلالُها فإذا اضمحلَّ أعارها اضمحلالا
أين (الخليفة) ما دهاه وما له ؟ أَرْضَى المغيرَ وطاوع المغتالا

* * *

ما قام شعبٌ نام عنه حماتُه واستشعر التفريط والإهمالا

تأبَى العنايةُ أن تصافحَ أمةً ترضى الهوان وتألف الإذلالا

* * *

قد كان يأنف أن يكون قرينهم ويعــدهم لجلاله أمثـــالا
لعب الغُرورُ به فضيَّع ملكه واعتاض منــه مذلة وخبــالا
وإذا أراد الله شرا بامرىء تبع الغــواةَ وطاوع الجهالا

* * *

أخليفة يعطى البــلاد وآخر يهوى القيان ويعشق الجريالا ؟
أغرور مفتون وصبوة جاهل بئس (الخلائف) سيرةً وفعالا

فظائع الإنجليز فى مصر إبان الحرب العالمية الأولى

من قصيدة له سنة ١٩١٨ يندد بفظائع الإنجليز فى مصر إبان الحرب العالمية الأولى :

أيهــا الجنــد ظافراً يتمشى فى الجماهــير معجباً مختالا
يوم غاب الحماة واستصرخت مصـ ـر تنادى الرجال والأبطالا
أقتلت الـكماة فى الحرب غلبا(١) أم قتلت النساء والأطفالا ؟
أنصفى (الظالمين) يا (دولة الفــا روق) منــا وعلمى (الجهالا)
علمينا كيف الحيـــاة نُعــا نيها وصونى النفوس والآجالا

(١) غلبا ، جمع أغلب .

خفي الفتك إننا قد عيينا ولقينا في ظلك الأهوالا
إقبضي ظلك (المحبب) عنا واجعليها عقوبة ونكالا

إلى أن قال يندد بغدر الاحتلال :

ما ذكرنا لكم من الخير شيئاً ما رضينا لكم على الدهر حالا
نذكر الحكم ظالماً ما رأينا فيه عدلا ولا وجدنا اعتدالا
نذكر العهد سيئاً ما عرفنا فيه حرية ولا استقلالا
نذكر الشر والبلاء جميعاً فاذكروا عهدكم وشدوا الرحالا
رصعوا (التاج) بالوفاء وحلوا بحلي الصدق (عزه والجلالا)
لا تريقوا دم الضعيف عليه وانظروه من فوقه كيف سالا
أكرموا التاج إنكم إن أبيتم زاد فينا مهانة وابتذالا
طال عهد احتلالكم فحسبنا أن يوم الحساب يدعى احتلالا

إلى أن قال منذرا الإنجليز بسوء العاقبة :

هل من الله مهرب أو نجاة حين يزجي جنوده والرعالا(١)
يأخذ البر والبحار عليكم ويريكم نزاله والدحالا(٢)
تلك عقبي الأذى فلا تنكروها جاءكم يومكم فذوقوا الوبالا !

---

(١) الرعال : جماعة الخيل .

(٢) الدحال : الامتناع .

فظائع الإنجليز فى ثورة سنة ١٩١٩

ومن قصيدة له سنة ١٩١٩ يندد بفظائع الإنجليز فى إخماد الثورة وما ارتكبوه من القتل والتنكيل بالأبرياء :

يا سوءَ ما حمل البريدُ ويا لها — من نكبة تدع النفوس شعاعَا !
يا ربِّ ما ذنبُ الذين تتابعوا — يسترسلون إلى المنون سراعَا
جرحى وما حملوا السيوف لغارة — صَرْعىَ وما سألوا العدو صراعَا
قالوا (الحياة) فعوجلوا أن يقرعوا — عند النداء بتأبها الأسماعَا
(عزريل) نُبيء ما أصاب جموعهم — فارتاب ثم رآهمو فارتاعَا !
مرأى يشق على العيون ومشهد — يدمى القلوب ويقصم الأضلاعَا
لما أطل الظلم فيه بوجهه — ألقى عليه من الحياء قناعَا
ودعا (بنيرون الرحيم) فما رنا — حتى تراجع طرفه استفظاعَا
وصفو المصاب (لدنشواى) فكبرت — (للمصلحين) مقابراً ورباعا
واستيقنت أن الأولى نكبت بهم — كانوا أبر خلائقاً وطباعا

* * *

يا مصر خطبُك فى الممالك فادح — ومصاب أهلك جاوز المُسْطاعا
قومٌ يَروعهم البلاء مضاعفا — وتصيبهم نُوَب الزمان تباعا
لاذوا بحسن الصبر حتى زلزلت — هوج الحوادث ركنه فتداعى
حملوا القلوب تفور مما تصطلى — وتمور مما تحمل الأوجاعا
إن هاجهم طمع الحياة رمى بهم — خطب يروّع منهم الأطماعا

وإذا أرادوا نهضة نفرت لهم حمر خلا الوادى فكن سباعا

* * *

سفكوا الدماء بريئة وتنمروا يرمون شعباً لا يطيق دفاعا
لم يذكروا إذ نحن نبذل قوتنا ونظل صرعى فى البيوت جياعا
بئس الجزاء وربما كان الأذى عدلا لمن يألو العدو قراعا
جاءوا فقوم يضمرون مودة ورضى . وقوم يظهرون خداعا
فتكافأ الحزبان فى حاليهما ومضت حقوق العالمين ضياعا

إلى أن قال يهيب بالشعب أن يذود عن حقوقه بالمهج والأرواح والإقدام والشجاعة :

لا يستقلّ الشعبُ يترك حقه ويرى البلاد تجارة ومتاعا
يخشى العدوَّ فلا يطيق تشدداً ويهال منه فلا يريد نزاعا
إن الحياة لأمة مقدامةٍ تعيي العدو شجاعة ومصاعا
تزجى إليه من الحفاظ جحافلا وتقيم منه معاقلا وقلاعا
إن شامها فى الحادثات تفرقا عقدت على خذلانه الإجماعا
وإذا أراد بها المضيمة أرهفت هما يضيق بها الدهاة ذراعا

* * *

يا ربَّ مصر تولَّ مصر وهبْ لها شعباً يريد لها الحياةَ شجاعا
لو سيم يوما أن يبيع بلاده بممالك الدنيا معاً ما باعا !

يرثى فريدا

من قصيدة له سنة ١٩١٩ يرثى محمد فريد :

أترى الكنانة كيف تعبث بالدم ... الله للشهداء إن لم ترحم !
أدنى المراتب فى الصبابة عندهم ... تلف المحب وطول وجد المغرم
تزجى تحيتها فيكذب دونها ... أمل الملول ومطمع المتبرم
ضل امرؤ قتلته (مصر) فلم يصن ... عهد الولاء لها وحق المنعم
معشوقة يجرى مع الدم حبها ... فى قلب نصرانيِّها والمسلم
بعثته (مصر) مجاهداً ورمت به ... فرمت بجيش للفتوح عرمرم
خاض الغمار يهدّ كل كتيبة ... ويهز رايات الكمى المعلم
متجرداً لله يطلب حقه ... ويقيم جانب شعبه المتهدم
فإذا القياصر بالأرائك تتقى ... وإذا الأرائك بالقياصر تحتمى
كل به فزع وكل جازع ... يبقى القرار ولا قرار لمجرم

إلى أن قال :

يا سيد الشهداء بعد رفيقه ... أرضيت ربك فى جهادك فاغنم
ليس الذى بدأ الجهاد فلم يمت ... إلا كبادىء حجة لم تختم
والناس فى شرف الحياة وعزها ... ضدان من ماض وآخر محجم
وأجل ما رزق الرجال همامة ... تنفى غرام المطلب المتهجم
تتجشم الصعب المخوف وعندها ... أن المنية مركب المتجشم
مأوى الممالك والشعوب ومالها ... وصفوك ظلماً بالغريب المعدم

لك من يقينك ثروة إن قدرت قيست كنوز العالمين بدرهم
إيمان ذى الإيمان أعظم ثروة ويقين ذى الوجدان أفضل منجم
ضج النعاة فضج كل موحد وارتج ما بين الحطيم وزمزم

ثم قال :

يامصر حسبك مارضيت من الأذى وبرئت من ماضيك إن لم تنقمى
إن التى رمت الممالك باعدت بين المضاجع والشعوب النوّم
الأرض تركض بالشعوب حثيثة فامشى على آثارها وترسمى
إن كان قيدك لم يحلّ فإنه خلق المريب وشيمة المتوهم
سيرى فما بك غير تلك وما بنا إلا مراقبة العدى واللوم

* * *

يا نازحاً لم نقض حق بلائه الله جارك فاغتبط وتنعم
وانفض همومك عن فؤادك إننا نلقى الهموم بكل أغلب أضخم
إن المناكبَ والنفوس بأسرها لفداء (مصر) من المهم المؤلم
ماذا حفظت لأهلها من حرمة وقضيت من حق عليك محتم
حيتك (مصر) على البعاد فحيها ودعت مسلمة عليك فسلم
جاوزت حسن الصنع فى خدامها وكفيت سوء الذكر من لم يخدم
كذب المضلل لن ينالك سعيه إلا إذا نال السماء بسلم
أقسمت مالك فى جهادك مشبه والحر مؤتمن وإن لم يقسم
مازلت تسرف فى المغارم دائباً حتى جعلت النفس آخر مغرم
أى القواضب بعد ماقطع الظبا ولوى الأسنة فى الوغى لم يثلم

رددت صوتى فى الرثاء وإنما رددت من صوت الـكنانة فى فمى
حيتك فى الملأ العلى وأزلفت حور الجنان إليك شعر (محرم)
أسفى لأوبة راحل لم تقضها عدة المنى وتحية لم تنظم

ذكرى فريد

وقال سنة ١٩٢٢ فى ذكرى محمد فريد :

ألا فاذكروا من قومنا كل مقدام ففى هذه الذكرى حياة لأقوام
وما الناس إلا الخالدون على البلى وصرف الليالى من هداة وأعلام
همُ ثروة الأجيال لولاهم انطوت على فاقة ما تستطاع و إعدام
إذا المرء لم يعمل لما بعد يومه طوى كل حىٍّ ذكره بعد أيام

* * *

سلامٌ على الحىّ المقيم وإن طوى إلى المنزل الأقصى ثلاثة أعوام
على الكوكب الطافى على لُجَّة الردى إذا ما طوى الأقمار طوفانهُ الطامى

* * *

ألا فاذكروا الأبطال وابتدروا الوغى وكونوا أولى بأس شديد وإقدام
هى الوثبة الأولى وان وراءها لما يستجيش الوثب من كل ضرغام

* * *

وقال سنة ١٩٢٥ من قصيدة له فى ذكراه :

جددوا الذكرى لأهل المشرق وصفوا المجدَ لشعب شيق
يعشق المجد فان لجّت به لوعة الوجد تنحىّ يتّقى

عَلِّموه كيف يقضى حقَّه نابه الموقف حرّ المصدق
وأروه السبل ناراً ودماً من يَهبْ فيها المنايا يصعق
مزقوا الأوهـــام عنـــه إنه ليظنّ السبلَ مـــن إستبرَق
إلى أن قال :
يا (شهيد النـــيل) لو ناجيته لشفاه منك عذبُ المنطق
شاقه الصوت البعيد المرتمى والمقـــام الكسروى الرونق
وشـــجاه أن يرى صمصامه غير وضاح السنا فى المأزق
جاشت الأحداث تستقصى المدى وارتمت من كل صوب تلتقى
إلى أن يندد بانقسام الأحزاب وبمساوئ الحكم القائم وقتئذ (نوفمبر سنة ١٩٢٥) حكم الرجعية والسراى :
ســـائل الأحزاب ماذا عندها غـــير ترجاف وهَمٍ مقلق
وتأمل هـــل ترى اليوم سوى دولةٍ فوضى وحـــكمٍ أخرق
فـات (نيرون) رجال رزقوا من فنون الظلم مالم يرزق
لو جرى (فرعون) أو (هامانه) يتعاطى شـــأوهم لم يلحق
سجنوا الدستور طفلا ناعما واستبدوا بالسجين الموثق
لاجرى (النيل) على الوادى ولا بورك الشعب اذا لم يُطلق

* * *

تلك ذكرى (النيل) للنفس التى عكف (النيل) عليها يستقى
هى عينٌ من حياة عـــذبة فى يفاع من ســـناء مشرق
فزعت مصر إلى أبطالهـــا فالبس النقع وسِرْ فى الفيلق

سائل القوم أما من غضــبة لذمام صــادق أو موثق
لا أرى النجدة إلا فى الأُولَى هم أولو العهــد الأبر الأصدق
ننصر الله ونحمى أمــة نحن منهــا فى الصميم المعرق
همة المقدام من آلائها وبيــان العبقرى المفلــق

الحالة السياسية سنة ١٩٢٥

فى سنة ١٩٢٥ عين اللود جورج لويد معتمدا (مندوبا ساميا) لبريطانيا فى مصر خلفا للمارشال أللنبي الذى استقال من منصبه ، وقد حضر المعتمد الجديد إلى مصر فى أكتوبر سنة ١٩٢٥ ، فنظم أحمد محرم قصيدة يخاطبه فيها ويحذره مغبة السياسة الاستعمارية ، وفيها يندد بانقسام الزعماء وتنكبهم سبيل الإخلاص والسداد ، ويهيب بالأمة ألا تقع فى شرك الاستعمار ومناوراته ، وأن تصمد فى الجهاد . قال :

أتسأل مصر ما حمل (العميد) وهل عند الرماة لها جديد ؟
هو السهم الذى عرفته قدما وجرّبَ وقْعَه الشعب الوئيد
تمرد مبدئ وطغى معيد ولم تزل الرمية تستزيد
(مسيح الهند) إن بمصر شعبا يشق عليك إن خضع الهنود
فما نظر المسالم أين تبغى ولا عرف المساوم ما تريد
دع الزعمــاء إن لهم لَدِيناً يدين بغيره الشــعبُ الرشيد
إذا ذكروا الزعامة فهى دعوى يكيد بها (الكنانة) من يكيد
ولا تبقى البلاد إذا أصيبت بمن يبغى الزعامة يستفيد
لمن تتألب (الأحزاب) شتى وما هذى الصواعق والرعود ؟

تداعوا للوغى فهوى صريعا على أيديهم الوطنُ الشهيـــــد
مضت أســـلابهُ تُزجَى إليهم فمأتمة لدى الأقوام عيـــــد
إذا ســـــاد التخاذل فى أناس فأعـــوزُ ما ترى شعبٌ يسود

إلى أن قال :

عميدَ (الغاصبين) نزلت أرضا يبيـــــد الغاصبون ولا تبيد
يذود الواحد القهار عنهـــــا إذا قهرت جنودك من يذود
أتذكر إذ لقومك ما أرادوا وإذ (لـكرومر) البطش الشديد
تطوف جنوده فتصيـــــد منا ومن سرب الحمائم ما تصيد
أتذكر (دنشواى) وكيف كادت جوانبهـــا بأهليهـــا تميد
تضج من العذاب ولا سبيلٌ إلى غير العذاب ولا مَحيـد

إلى أن قال مشيرا إلى طغيان كرومر وكيف أكرهته مصر على الاستقالة من منصبه :

سيوف الجند مظهر كل حق ورأى (كرومرَ) الرأى السديد
أتذكر إذ نعاتبـــه فيطغى ويهدر فى مقالته الوعيد(١)
أخـــذناه بقارعة ألحّتْ عليه فزال واشتفت الـكبود
صـــدعنا ركنَه فانقضَّ يهوى وذاب الصخر أجمع والحديد
هوى جبلٌ من العدوان عالٍ وزلزل للأذى صرحٌ مشيد
ونحـــــن القائمون بحق مصر إذا ما استسلم القـــــوم القعود

(١) يشير إلى خطبته سنة ١٩٠٧ قبيل رحيله عن مصر وقد توعد فيها المصريين ببقاء الاحتلال .

ونحن المقبلون على المنايا إذا الأبطال كان لهم صدود
نضن بمصر إن عدت العوادى ولكننا بأنفسنا نجود
هى الذمم المصونة والعهود فما يبغى (كرومرُ) أو (لويدُ)

* * *

أخا (السكسون) هل نبئت أنا جلاوذة لقومك أو عبيد
لقد كذبوا عليك فليس فينا لمن يبغى المضيمة مستقيد
إذا سعت (الوفود) إليك فاحذر عواقب ما تقول لك (الوفود)
فما أحد بمالك أمر مصر وما بالشعب جبنٌ أو جمود
مضت دنيا القيود وتلك دنيا تُذَمُّ بها وتُحتقر القيود
حمينا ما حمى الآباء قدما وصان لنا وللنيل الجدود
بلاد ما تباع وباقياتٌ من الآثار معدنها الخلود

يدعو إلى اليقظة السياسية ، ويندد بالتراخى فى الوطنية

قال سنة ١٩٢٧ من قصيدة فى (الشعر السياسى) :

تسعى الشعوب ونحن فى غفلاتنا نأبى الفعالَ ونكثر الأقوالا
ركبوا متون العاصفات وشأننا أن نركب الأوهام والآمالا

* * *

يا باعثَ الموتى ليوم معادها تنساب من أجداثها أرسالا
أعد الحياة لأمة أودت بها غفلاتها فثوت سنين طوالا
وأضئْ لها سُبُل النجاة ليهتدى من زاغ عن وضح الطريق ومالا

وتولّها بالصالحـــات ولقّها مثلك الأمان ووقّها الأوجالا
وامنُن عليهـا مـن لدنك بقـوة توهى القيـود وتصدع الأغـلالا
واجمع على صدق الإخاء فطالما فلقـد تفرق يمنـة وشمـالا
أودى بنا بين الشعوب تباغضٌ صدع القلوب ومـزّق الأوصـالا
تستفحل النكبات بين ظهورنا ويزيد معضل دائنا استفحالا
الله يحكم فى الممالك وحده ويصرّف الأقـدار والآجـالا

إلى الشعب

وقال سنة ١٩٢٧ فى هذا المعنى موجها الخطاب إلى الشعب :

ادفع بنفسك لا تكن متهيبا ما اعتز فى الأقوام من يتهيب
شرف الحياة وعزها لمغامر يمضى فلا يلوى ولا يتنكب
أشرع لأمتك الحيـاة ولا يكن لك فى حياتك غير ذلك مأرب

* * *

مصر الحياة وحبها الشرف الذى بطرازة الغالى أدل وأعجب
نفسى وما ملكت يداى لأمتى وسراة آبائى ومن أنا منجب
أبنىَّ إنك للبـلاد وإنها لك بعد والدك التراث الطيب
شمّر إزارك أن نُدبت لنصرها إن الكريم لمثل ذلك يندب
ما المـرء إلا قـومه وبلادُه فانظـر إلى أى المواطن تنسب
ليس التعصب للرجـال معـرّة إن الكـريم لقـومـه يتعصب
للمرء من شرف العشيرة زاجر ومن الخلال الصالحات مؤدب

حكم التاريخ

مِنْ أنعم التاريخ أن حسابه   حق وأن قضاءه لا يُشجب
تقف الخلائق تحت راية عدله   فيقام ميزان الحقوق ويُنصب
فى موقف جلل تجيش جموعه   فيداس فيه متوَّجٌ ومعصَّب
ملك الزمان فما لعصر موئلٌ   يحميه منه وما لجيل مهرب

يخاطب النيل

يا نيل والموفون فيك قلائل   ليت الزعاف لمن يخونك مشرب
قُتل الوفاء فما غضبتَ وإنما   يحمى الحقيقة من يغار ويغضب
تهب الحياة له وليس لقاتل   فى غير حكمك من حياة توهب
مَن لى بشعب فى الكنانة لا القوَى   تنشق منه ولا الهوى يتشعب
متألب يبغى الحياة كأنه   جيش على أعدائه يتألب
أين الرجال العاملون فإنما   تبقى الممالك بالرجال وتذهب

وطن يعذب فى الجحيم

فلسطين الشهيدة

من قصيدة نظمها سنة ١٩٣٨ عن مأساة فلسطين :

لَبيّكْ يا (وطن الجهاد) ومرحبا   لبيك من داعٍ أهابَ وثَوَّبا
لبيك إذْ بلغ البلاء وإذ أبى   جدُّ الزمان وصَرْفه أن نلعبا
من ذا يرى دَمَهُ أعزَّ مكانةً   من أن يُخضَبَ من (فلسطين) الرُّبَى
وطنٌ يُعذَّبُ فى الجحيم وأُمَّةٌ   أعْزِزْ علينا أن تُصابَ وتُنْكبا

بقلوبنـا الحـرّى وفى أحشائنا ما شَبَّ من أشجانها وتلهَّبا
وبنـا من الألم المبَرَّح ما بهـا وأرى الذى نَلْقَى أشدَّ وأصعبا
نتجرَّع البـلوى وندّرع الأسى نرعى لإخوتنا الذِّمام الأقربا
إنا لنعـلم أن آكل لحمهم سيخوض منا فى الدماء ليشربا

جعلوا الكفاح عَن العروبة حرثهم وتعهدوه فكان حرثاً طيبا
يَسقُون مازرعوا دماً فى مخصب لولا الدمُ الجارى لأصبح مُجدبا
(البيتُ) يَطْرَبُ من أنين جراحهم أرأيت فى الدنيا أنيناً مطربا ؟

وقال يحمل ساسة بريطانيا وأمريكا مسئولية مأساة فلسطين :

إن الذى زعم السلام مُرادُه جعل الدماء سبيله والمركبا
إن كان قد غَمرَ الزمانَ وأهلَه كذباً فمن عاداته أن يكذبا
أرأيت إذ سكب الدموع غزيرةً يأبى الحياء لمثلها أن يُسكبا
متصَنِّعٌ باسم الضعيف يُرِيقُها وهو الذى تَرَكَ الضعيف مُعَذَّبا
ما كان أصدق نُسْكه لو أنه رَحِمَ البرئَ ولم يُحَابِ المذنبا
يَهْذِى بذكر العدل فى صلواته أرأيت عدلا بالدماء مُخَضَّباً ؟

وقال يهب بالأمم العربية أن تهب لنجدة فلسطين :

رُسُل العروبة هل أسيتم جرْحها ما باله استعصَى وماذا أعقبا ؟
جرْحٌ تقادم عهده وتفتحت أفواهه تدعو الأساةَ الغُيَّبا
وصفَ الدواء لكم وخَلَّفَ عِلْمه فيكم فأين يريد منكم من أبى ؟

***

يا قومُ لستم بالضعاف فغامروا وخذوا مطالبكم سراعا وُثَّبا
أفما كفاكم قوةً من دينكم ما جَمَّعَ الإيمان فيه وألَّبا
يا (آلَ يَعْرب) مَنْ يريني (خالدا) يُزْجِى الخميس ويستحث المِقْنبا
من شاء منكم فَلْيَكُنْهُ ولا يقل ذهب القديمُ ، فإنه لن يذهبا
السِّرُّ باقٍ والزمانُ مجدِّدٌ والسيفُ ما فقد المضاء ولا نَبا

***

رُدُّوا المظالم عن محارم أمة رُدَّت ظنون ذوى الجهالة خُيَّبا
لم يَعْطِ أوطانَ العروبة حقَّها من كان يطمع أن تُبَاعَ وتوهَبا

يشفق على الفلاح

ومن قصيدة له بعنوان (رحلة عابسة) سنة ١٩٤٠ ، وقد مر ببعض القرى، وتحركت شاعريته إشفاقاً على الفلاح . قال :

وَيْلى على فلاح مصر أما كَفَى ماذاق من عنتٍ ومن إرهاق
يُغْنى ألوف المترفين بماله ويعيش فى فَقْرٍ وفى إملاق
سبحان من شرع السبيل لخلقه أكذا يكون تفاوت الأرزاق ؟

***

أحمد نسيم

١٨٨٠ – ١٩٣٨



شاعر مبدع ، من أعلام الشعر الوطنى ، يمتاز بجذالة الأسلوب ، وتدفق المعانى والأحاسيس الوطنية فى قصائده ، لا يقل شعره رواء وحسن ديباجة عن شعر شوقى وحافظ وأحمد محرم .

ولد سنة ١٨٨٠ ، واعتنق منذ صباه مبادىء الوطنية ، وتجلت مواهبه الأدبية وهو فى سن مبكرة ، فامتزجت الوطنية بروحه الشاعرية ، وتمشت فى قصائده الغر ، وأضفت عليها جمالا ورونقا وبهاءً ، وجعلت لها رنينا موسيقيا يأخذ بمجامع القلوب .

سمى (شاعر الحزب الوطنى) ، واعتز هو بهذا اللقب ، وسجله فى ديباجة ديوانه الذى ظهر فى جزءين سنة ١٩٠٨ وسنة ١٩١٠ ، وأهداه إلى المرحوم محمد فريد زعيم الحزب الوطنى إذ ذاك ، قال فى كلمة الإهداء :

رئيسى المحبوب

« أما بعد فإنى أتشرف بإهداء الجزء الثانى من ديوانى إلى سعادتكم لاحتوائه على القصائد الوطنية التى نظمتها مابين سنتى ١٩٠٩ و ١٩١٠ ميلادية ،

وقد اعتمدت فى نقلها على الصحف التى تفضلت بنشرها مبقيا ديباجتها كما هى حتى لا يغرب عن ذهن القارىء على مدى الأيام وصف الحادث الذى نظمت القصيدة بسببه » .

« وإنى إذا أهديت ديوانى إلى سعادتكم فكأنى أهديته إلى الأمة المصرية التى يمثلها حزبكم الموقر » .

أحمد نسيم

شاعر الحزب الوطنى

ويعدّ نسيم ثانى الطبقة الأولى من شعراء الحزب الوطنى ، وأولهم أحمد محرم ، وثالث الثلاثة المعاصرين أحمد الكاشف الذى سنتحدث عنه فيما يلى ، وجميعهم تبدأ أسماؤهم (بأحمد) .

وتبدو مكانة نسيم المتازة فى عالم الشعر من قول إسماعيل صبرى شيخ الشعراء فى تقريظ الجزء الأول من ديوانه سنة ١٩٠٨ :

لكَ فى الشعر يا (نسيمُ) معانٍ   باهراتٌ تحـــار فيها العقولُ
كُلُّ بيتٍ يُطلُّ منه على أفهـــام أهل النُّهى مُحيًّا جميـــل

ولما ظهر الجزء الثانى سنة ١٩١٠ قرظه صبرى أيضاً ببيتين آخرين رقيقين قال :

أىُّ غُصْنٍ فى الرَّوْض هزَّ (نسيمٌ)   نُثِرَتْ منه هـــذه الأزهارُ
حبذا شعره الجنىّ وأهـــلا   ببيان تُزهَى به الأشـــعارُ

يؤيد مصطفى كامل فى قطع علاقته بالخديو

قال نسيم مخاطبا مصطفى كامل بمناسبة كتابه إلى الخديو عباس الثانى بقطع علاقته به سنة ١٩٠٤ :

خطيبَ الشرق لا تلوى العنانا فأنت المرء أوقرهم جنانا
وأمضاهم إذا كتبوا يراعاً وأذلقهم إذا نطقوا لسانا
لقد دافعتَ دهراً عن بلاد قد افتخرت بمدرِهِها زمانا
وكم رُمتَ العلاء لقَوْم مصر وكنت أشد من فيها جنانا
بقلب عافَ أرزاء الليالى كما عافَ المذلة والهوانا

* * *

وجانبتَ الأمير وأنت تنوِى فعالا لا يكون بها مُدانا
وكم من فُرقة صعبت فهانت وكم من طارىء أخنى فهانا
فزِدْنا مصطفى وازدد ثباتا يَزِدْك القوم شكراً وامتنانا
مدحتك لا لجائزة ولـكن وجدتك خير من يُهدَى البيانا
هدية شاعر ماظل يُطرى ويمدح فيك أخلاقا حسانا
فـكن للشرق ساعده المرَّجى تزرك قصائدى آنا فآنا

يهاجم المعتمد البريطانى

ومن قوله سنة ١٩٠٧ مخاطبا اللورد كرومر لمناسبة رحيله عن مصر بعد خطبته التى هاجم فيها المصريين والإسلام :

يالورد هل لك فى الإسلام من غرضٍ ترمى إليه بسهم منك مسنونِ ؟
هجوتَ قومى وما فارقت أرضَهم حتى تجرأتَ أنْ تنحى على الدين
رأيتُ أنك لست المرء تصلحنا ولست فينا على مصر بمأمون
غادرتها وهى للتقرير صارخَةٌ إلى الإله بقلب منكَ محزون
فلا رماك الحيا إلاَّ بداجنةٍ تهمى عليك بزقّوم وغسلين

يمجد الشرق ويحزن لحالته

قال يمجد الشرق ومصر ويحزن لحالتهما

تَداعتْ رواسى الشرق فانهار جانبُهْ ... وما همّ حتى أقعدته نوائبُهْ
تحاربه الأعداء من كل جانب ... ولم يكفهم أن الزمان يحاربه
تحدّ على هاماته شـــفراته ... وترهف فوق الناصيات قواضبه
وحسبك أن الشرق فى كل أمة ... مآثره مشهورة ومناقبه
تخرّج منه الفاتحون لأرضه ... فماجت به بطحاؤه وسَبَاسِبُهْ
وكم كان للشمس المضيئة مطلعا ... أفق معالٍ لاتغيب كواكبه

إلى أن قال :

وما الشرق إلاّ موطن عبثت به ... على غرة أبناؤه وأجانبُهْ
أضاعوا حمىً يجرى النضار بأرضه ... وتهمى عليه باللجين سحائبه

يهاجم أسرة محمد على

وقال سنة ١٩٠٨ يخاطب مصر ويهاجم أسرة محمد على وهى فى إبّان سلطانها :

رَثَيْتُكِ يا أرض الفراعنة الألى ... قضوا فى بلوغ المجد ماالحقّ واجبُهْ
ورثتِ بفضل العلم عزّا ممنّعاً ... فما بات إلّا وابن غيرِكِ غاصبُهُ
ولاخير فى عرشٍ من الغرب رَبُّهُ ... ولا خير فى مال من الغرب كاسبه
أفيقى فما فى الجهل إلّا مذلة ... ولا العلم إلّا سؤددٌ عزّ صاحبه
أنيرى ظلام الشرق بعد انسداله ... فعند طلوع الشمس تجلو غياهبه
ولا تقنطى من رحمة الله مرةً ... إذا شيم من برق انخذالك خالبه

وددت بلادى أن تسود بنفسها لأكتب فيها خير ماأنا كاتبه !

يدعو الأمة إلى الجهاد

ومن قوله سنة ١٩٠٨ يدعو الأمة إلى الجهاد والذود عن حقوقها واستقلالها :

هَلُمَّ ندافع جهدنا عن بلادنا دفاعَ كماة أو ضراغم غاب
كذلــكم الرئبال تعروه سورةٌ إذا احتُلَّ يوما خيسه بذئاب
ومن فقد استقلالَه عاش هَينا يسام صنوفا من أذًى وعذاب
هلم نَخُضْ غمر الصعاب إلى العلا ونفرقْ من الإقدام كلَّ عُباب
عسى يسعد الجد الذى مال نجمه وتشرق شمس المجد بعد غياب
ألم نَكُ كاليونان أهلاً لمجلس يدافع عنا عند كل مصاب
ألم نَكُ كالبلغار والصرب فى الحجا وأخصب منهن اخضرار جَناب
ألم نك أرقى من ممالك لم تقم لدأبٍ ولم تهمم لأىّ طلاب
أليست بلاد النيل أوّلَ أمة أملطت عن العرفان كل نقاب
علومٌ وأخلاقٌ وفضلٌ وهمة وتذليل أوعارٍ ودكُّ صعاب

وقال يفند مطاعن كرومر على المصريين :

فحتّام ذيَّالك العميد ينوشنـــا بناجذ سرحان وظفر عقاب
فطوراً يعادينا بتقرير كاشح وطوراً يناوينا بنشر كتاب
وياليته ردَّ الدليل بمثـــله وخفَّض من طعن له وضراب
إذا عجز المقهور عن قهر خصمه لدى البطش لم يلجأ لغير سباب

يرثى مصطفى كامل

وقال سنة ١٩٠٨ فى رثاء مصطفى كامل من قصيدة تزيد على ستين بيتاً :

ما بال دمعكَ لا هامٍ ولا جارى　　هل اكتفيت بما فى القلب من نار ؟
جفَّت دموعك من عينيك واستترت　　فيها لواعج أحزان وأكدار
ضاع الصواب ونفس المرء ساهمة　　ما بين أقضيةٍ تجرى وأقدار

* * *

يا طائرَ البين لا قرّبت من سكنٍ　　ولا هدأت بأفنان وأوكار
نعيتَ خير فتى كنا نؤمله　　يوم الرجاء لأوطان وأوطار
فليمرح الذئب ما شاءت مهانته　　فقد غفَتْ عنه عَيْنُ الضيغم الضارى
لا أيّدَ الله أعداء أذلّهمُ　　حتى أقاموا بدار الذل والعار

* * *

يا بائعَ الصبر إن الناس فى جزع　　فبع لهم كل مثقال بدينار
ما زال يدأب حتى خانه قدرٌ　　ألقى عليه عصا دأبٍ وتسيار

وقال يصف الجنازة واحتشاد الجموع فيها :

أعززْ على حامليه فوق أعينهم　　أن يرجعوا بأكفٍ منه أصفار
كأنما النعش عرشٌ زانه مَلِكٌ　　يمشى الهوينا بإجلال وإكبار
كأنما الناس حول النعش مائجةً　　أمواج مضطرب الآذىّ زخّار
فلو يعدُّون ما أوفى بهم عدد　　كصيِّب القطر لا يحصى بمقدار
كأنما لجَب الباكين من هلع　　هزيم رعد أجشُّ الصوت هدّار

كأنما الأرض قد سدَّت طرائقها بالناس من ثابت فيها وسيَّار

ومن قصيدة أخرى له سنة ١٩٠٨ فى رثائه :

أَمَلٌ نأى عن أرض مصر وزالا أصمَى القلوبَ وقطَّع الأوصالا
يا نائباً عنا وكنت محسَّداً فينا كما كنت الشريف فعالا
مدَّت إليك يد المنون فأنشبت بقلوبنا قضبا لها ونصالا

إلى أن قال :

إنا سنُبقى ذكر فضلك خالدا لنكون فى صدق الوفاء مثالا
قد كنت أفضل من يذود لسانُه عنا وأصدَق من يقول مقالا
فليسقِ شؤبوبُ الحَيَا لك موحشا قد ضم مجداً بينه وجلالا

يؤيد فريد فى جهاده

قال سنة ١٩٠٨ مخاطبا محمد فريد رئيس الحزب الوطنى مؤيدا له فى جهاده :

إجهرْ برأيك إن الحق قد غَلَبا هذا يراعُك يحكى السيفَ ما كتبا
أرى المضلين قد زاغت بصائرهم ومن يظن الدجى صبحا فقد كذبا
سِرْ فى طريقك لا تحفل بذمِّهم ولا يهزك مغرور إذا غضبا
لا أنت ترجو افتقاراً منهم نشَباً ولا تؤمل من إحسانهم رُتَبا
لا زلت بالحق بين القوم تخذلهم حتى تراهم وكُلٌّ فى الوغى هربا
فاهزم كتائبهم وافلل مضاربهم واسلل يراعك واكتب عنهمُ العجبا

يندد بوزارة مصطفى فهمى

وقال فى نوفمبر سنة ١٩٠٨ يندد بوزارة مصطفى فهمى على أثر سقوطها ، وكانت موالية للاحتلال :

ما للوزارة ذات الضعف والفشل   باتت على دارسٍ أعْفَى من الطلل؟
وزارة بلغَت بالوهن غايتَها   فى كل نائبة أو حادث جلل
ترحلت غير مبكىٍّ على أحد   وودعت غير مأسوف على رجل
إن زال مجد الفتى أو زال منصبه   فذكره بعد فى التاريخ لم يزل
ياهيئة الصُّمِّ بينى غيرَ راجعة   إلى جمودك فى أيامك الأول
وزارة مالها فى الخير صالحة   ولا على صولة الأيام من قِبَل
كانت تماثيل بين القوم قائمة   بلا لسان ولا قلب ولا عمل

يندد بالخديو عباس ،

وقال فى ديسمبر سنة ١٩٠٨ حين تنكر الخديو عباس الثانى للحركة الوطنية ، وحيل بين جموع الشعب والاقتراب من موكبه لمطالبته بالدستور :

خطوبٌ مالها أبداً نصير   وأمرٌ حل فى مصر خطير
لئن كُرِهت حياة الشعب يوما   فخير لو تفتحت القبور

* * *

أيا ربَّ الأريكة قد رضينا   بأنك لا تُزار ولا تزور
وهَبنْا نطلب الدستور جهرا   ألا يرضيك ذيَّاك الشعور ؟
أغيرك فى الملوك وأنت أدرى   له شعبٌ على البلوى صبور ؟

فهل خدعتك فى البهتان ناس أرادوا أن يسوء بنا المصير ؟
(أمور يضحك السفهاء منها ويبكى من عواقبها الخبير)

يمجد الوطنية فى رأس السنة الهجرية

وقال سنة ١٩٠٩ فى الاحتفال بعيد رأس السنه الهجرية (١٣٢٧) الذى أقامته لجنة الحزب الوطنى الفرعية ببولاق بمدرسة الشعب يمجد الوطنية ويخاطب فريداً :

قد مثلونا فى التعصب مثلما قد شاءت الآثام والأوزارُ
كذبٌ قد أبتدعوه حتى مالهم فى مصر إلّا الـكيد والإضرار
بانَ الضلالُ من الهدى وبدا لنا فى منهج الحَقِّ القديم منار
ياأمة ثبتت على كيد العدى لاتجزعى إن الثبات فخار
سيرى إلى طلب (الجلاء) ولاتنى تُمنحْ من العلياء ماتختار
أفريد لا تخذل بلادك بعدما جُمعت لديك أولئك الأنصار
هذى الشبيبة قل لها لا تحجمى ما فى ثبات المقدمين شنار
لك من يراع الـكاتبين صوارم ولديك منهم جحفل جرار
ترمى العداة إليك سهم سمومها ويذود عنك الواحد القهار
دعهم كما شاءوا ليوم حسابهم فلهم كما شاء الهوى أطوار
إنّا قد اخترناك خير مدافع يرضَى به الرحمنُ والمختار

وفى سنة ١٩١١ ألقى قصيدة أخرى فى تحية السنة الهجرية (١٣٢٩) بالاحتفال الذى أقامته الطلبة لهذه المناسبة بدار التمثيل العربى يوم أول يناير

سنة ١٩١١ ، وقد حضره المرحوم محمد فريد ، وأشار الشاعر فى مطلع قصيدته إلى ما أصاب الحركة الوطنية من اضطهاد فى العام السابق . قال :

تَجلَّى العام فاستجلوا الهلالا ... فإنى شِمْتُه للسعد فالا
سأطريه متى عزّت بلادى ... وقد رُزقت كما رُزق الكمالا
وأمدحه متى قمنا بمصر ... وأرجعنا لها ذاك الجلالا
فأما والبلاد وساكنوها ... يزيد الدهر حالتهم نكالا
فلست بناظم فيه قريضا ... ولا أنا قائل فيه مقالا

***

إلام نطالب الأعوام خيراً ... ولم تنعم لنا الأعوام بالا ؟
تمر وتنقضى منها ليـــال ... بأرزاء الزمان غدَتْ حُبالى
وتلك ممالك الإسلام كادت ... صروف الدهر تخبلها خبالا
فلست أخصها بالذكر عنا ... ونحن من البلاء أشد حالا

***

أيا عاما تقضى بئسَ سهمٌ ... رميت به الغوانى والرجالا
فقالوا هل صروف العام كانت ... نزاعاً قلت بل كانت نِزالا
همومٌ لو رَشَقْت بها فؤاداً ... لكانت فى جوانبه نبالا
لقــد حمّلتنا للضيم عبئا ... ثقيـــلا لا نطيق له احتمالا
وقد أجريت دمع القوم حتى ... كأنَّا كلنا قوم ثـكالى
ولولا ذكر أحمد(١) كل عام ... لما صُغْنا لك الذكر الحلالا

---

(١) يقصد الرسول عليه الصلاة والسلام.

المضى فى الجهاد

أرى فِرَقاً قد افترقت بمصر ورامت عن أواصلها انفصالا
أناس أخلصوا من بعد زيغ وثابوا بعد أن ألِفوا الضلالا
وأقوام قد أرتدوا جهاراً فساءوا فى عواقبهم مآلا
وقال الناكصون كفى غلُوًّا وإلّا ذقتم منه الوبالا
خلائق فى المكارم لم يعدوا يمينا للفعال ولا شمالا
أولئك عصبة بالخزى باءوا فسمّوا الخزى والجبن اعتدالا

وقال يخاطب الشباب :

أنابتةَ البلاد وخيرَ نشء غَدَوا للنشء بعدهم مثالا
عليكم بالإخاء ولا تَفلّوا عرى القُربىَ فتنخذلوا انخذالا
سيندب حظه الوطن المفدى إذا لم تحسنوا عنه النضالا
فجِدّوا فى علومكم صغارا ولا تشكوا السآمة والكلالا
فمن رام الكواكب والدرارى بلا علم فقد رام المحالا
وإن صرتم رجالَ النيل يوما فلا تنسوا بربكم القتالا
وذودوا عنه ما اسطعتم برأى حصيف واجعلوا الحسنى جدالا
وما زال الرئيس (١) لكم كفيلا على رغم الخطوب ولن يَزالا
وكونوا للأجانب خير عون تزيدوا عروة الود اتصالا

(١) يريد الزعيم محمد فريد وكان حاضرا الاحتفال . وكانت النيابه العامة قد استدعته لاستجوابه فى تهمة صحفية باطلة ، ثم أحالته إلى محكمة الجنايات ، وقد حوكم فعلا وقضت عليه المحكمة ظلما فى ٢٣ يناير سنة ١٩١١ بالحبس ستة أشهر .

إذا عشتم وإياهم بخير محونتم عنكم قيلا وقالا
لقد أوجزت خيفة أن يقولوا : نسيم فى قصيدته تغالى

الجهاد فى سبيل الدستور

وقال يستحث الأمة على طلب الدستور وعلى الاتحاد والثبات فى ميدان الجهاد :

فلا تفكوا عرى القربى ولو رجعت عنكم شفار الظبا مخضوبةً بدمِ
ولا تضيعوا من الدستور فرصته فتقرعوا السنّ من ذلٍ ومن ندم
إن تيأسوا فانتهاء اليأس مسكنة أو تسأموا فاحتمال الذل فى السأم
ما نال قط المعانى وهى دانية قومٌ نيامٌ وشعبٌ غير ملتئم
خيرٌ لنا الموت من عيش نكابده مع الهوان إذا كنتم ذوى شمم

ذكرى مصطفى كامل

وقال فى فبراير سنة ١٩٠٩ فى ذكرى مرور العام الأول على وفاة مصطفى كامل، وقد ألقى هذه القصيدة فى دار اللواء بين يدى محمد فريد وأعضاء الحزب الوطنى قبل أن يتحرك موكب الذكرى بالمسير :

ما بال عينك بالمدامع تسجمُ رِفقاً بنفسك فالقضاء محتم
قد عادت الذكرى فجدّدَ عودُها بين الحشا جرحا يثور فيؤلم
يا يوم كامل كنت يوماً قاتماً كالليل أقبل وهو أسود أقتم
يا يوم لا كانت طلائعك التى بالنحس أنذر وجهها المتجهم

وختمها بقوله مخاطبا محمد فريد :

أفـريدُ يا ابن الأكرمـين تحيـةٌ مـن شاعر لعقود مـدحك يَنْظِمُ
أفريد يقرأُكَ السلامَ معـاشرٌ مدُّوا إليك يد الولاء وسـلَّموا
حصَّنت بيضتهم وصُنْتَ ذمارهم بعزيمةٍ قد أصغَرت ما استعظموا
رَكِبُوا مطايا الحزم نحو رئيسهم إذْ أنت بينهم الأجلّ الأحزم
فاضرب برأيك فى مواقفَ جمة فالرأى فى بعض المواقف مخذم

يهاجم الاحتلال فى إبان سلطانه

قال سنة ١٩٠٩ من قصيدة يحمل فيها على الاحتلال ويفضح نكثه بعهوده ويستنهض الهمم للجهاد ، وقد بدأها يستصرخ الإنسانية لتمد إلى مصر المكافحة يد العون والتأييد ، وهى من عيون الشعر الوطنى :

ياناشِرِينَ لواء العدل فى الأمم اللهَ فى أمة أنَّت من الألِم
مُدُّوا إلينا يدا بيضاء نشكرها عند التحدث شكر الروض للدِّيمِ
إنَّا مُنِينـا بأقوام جبـابرة ما بين مغتصب منهم ومحتكم(١)
لو استطاعوا لساقونا أمامهم مـا بـين متَّهم منـا ومجـترم
جاءوا إلينا وفى أيْمانِهم شرف يموِّهون به فى العهد والقسم
قالوا لنا : إننا جئنا بلادكم نبنى لكم ركن مجد غير منهدم
حتى تخدرت الأعصاب وانسدلت على العقول سجوفُ البطل والوهم
ولم يزالوا على هذا الدعاء وهم لا يقصدون سوى الإخماد للهمم

(١) يريد المحتلين .

حتى إذا انتبهت منا جوارحُنا ... وأدرك الحالَ فهمُ الحاذق الفَهِم
حَـكّوا القلوب فأذكوها وربّتما ... أدّى إلى النار حكّ البارد الشبم
فلا عهــود لهم ترعى ولا ذمم ... كما استباحوا لدينا النـكث فى الذمم
صبّوا على مصر سَوْطا من تعنتهم ... وأججوا فى حشاها جَمْرَ بَغْيهم
هم أحرجونا بهذا الضيم من زمن ... فإن هممنا بدفع الضيم لم نُلَمَ

***

ياقائمين بأمر النيــل حَسْبُكم ... ما أحرج القوم من ظلم ومن غشم
ناموا هنيئاً قريرى العين أن لنـا ... عَيْناً من الشعب لم تغفل ولم تنم

وقال فيها يدعو الشعب إلى الاعتماد على نفسه :

وأنتَ ياشعبَ وادى النيل كن حَكَما ... فليس غيرك من مستنصف حكم
كم أمة حكمت فى مصر وارتحلت ... عنها خليفة جــد بعد لم يقم
سَلْ أمة الروم هل أبقت لنا أثراً ... يبقى على الدهر أو سَلْ أمة العجم
مضوا ولم يتركوا فى مصر مأثرة ... ينبيك عنها لسان النيل والهرم
هذى عجائب هذا القطر من زمن ... وتلك حالات وادى النيل من قدم

يحيي جريدة العَلَم

قام فى سنة ١٩١٠ خلاف على ملـكية (اللواء) بين بعض ورثة المرحوم مصطفى كامل ، طرح أمره أمام القضاء ، وعين حارس قضائى على اللواء ، وكانت صحيفة الحزب الوطنى ، وأراد الحارس أن يتدخل فى تحريره وتوجيه سياسته ، فرفض المرحوم محمد فريد هذا التدخل ، وأنشأ جريدة (العلَم)

وجعلها لسان حال الحزب الوطنى ، وابتدأ ظهورها يوم ٧ مارس سنة ١٩١٠ ، فحياها نسيم بقصيدة بديعة ، قال :

ألاَ فليخفق (العَلَمُ) الجديدُ يميناً إن طالعه سعيدُ
أياَ عَلَم البلاد عليك منى سلامُ الله ماخفقت بنود
أرى الأعلام معلقها بناء ومعقلُك الجوانحُ والكبود
بِرَبكَّ خَبِّر الأقوام عنى بما تنوى الوزارة والعميد(١)
رفعتَ لنا وبالأبصار شك من الشبهات والأيام سُودُ
فجئنا من لدنك بكل فأل تحدّاه التيمّن والسعود
وإن كنا نرى الأعلام شتى فأنت وربِّك العَلَمُ الفريد

***

أيا (علَمَ) البلاد أرى احتلالا كأنّا عنده نفرٌ عبيد
أصرّ على الجفاء ونحن شعب أضرّ به التعسف والوعيد
وكم من جذوة فى القلب شبَّت فلم يدرك تأجُّجَهاَ الخمودُ
فقلْ لهم أثيروا كل عسف فريحُ العاسفين لها ركود
متى ينأى احتلال النيل عنا وتصدق منه هاتيك الوعود ؟
قَضَوْا فينا بما شاءوا وصدُّوا كما راموا فهل نفع الصدود ؟
لقد فرِحوا بما أوتوا فجاروا وللباغى إذا عقلوا حدود
ضروب فى المكايد يوم تُحْصَى عليهم ليس يحصيها العديد

(١) وزارة محمد سعيد . والعميد إلدون جورست معتمد بريطانيا .

وكم ودّوا الشقاء لأهل مصر كما شقيت بظلمهم (الهنود)
مكايد يفزع التاريخ منها ويصدف عن إعادتها المعيد

***

أقول الحقَّ لا أخشى انتقاما يَهمّ إليه (طاغيةٌ) مريد
أإن أنَّ المضيم فقال رفقا تُشدُّ له السلاسلُ والقيود ؟
إذا مدّوا حبال السوء يوما فإن الله يومئذ شهيد

***

أيا (عَلَمَ) البلاد إليك شعرا تردده التهائم والنجـود
ودونك عقد نظمى من جمان ومن درر يقال لها قصيد
يريد الشامتون بنا نكالا (ويأبى الله إلاّ ما يريد)
فـكن فى الحق مثل الحق يمضى يـكُنْ لك بينهم بأسٌ شديد
ولا تتبع هواهم بعـد علْمٍ يضلوا فى الغواية أو يزيدوا
فليس بنافع فيهم رشـاد ولا من بينهم رجل رشيد

إلى الزعيم محمد فريد فى سجنه

فى سنة ١٩١١ حوكم الزعيم محمد فريد أمام محـكمة الجنايات بتهمة أنه حبّذ الجرائم وأهان الحكومة إذ كتب مقدمة لـكتاب (وطنيتى) الذى تضمن قصائد نظمها الأستاذ على الغاياتى ، ومع أن هذه المقدمة كتبها الزعيم دون أن يطلع على محتويات الـكتاب وقبل أن يتم المؤلف وضعه ثم سافر الزعيم إلى أوروبا فى مايو ولم يظهر الـكتاب إلاّ فى شهر يوليه ، وليس فى المقدمة ما يقع

تحت أى نص من قانون العقوبات . ومع ذلك فقد أقامت عليه النيابة الدعوى العمومية ، وكان الغرض من محاكمته إرهابه وتهديد أنصاره واضطهاد الحركة الوطنية ، وقد حكم عليه فى ٢٣ يناير سنة ١٩١١ بالحبس ستة أشهر فى هذه التهمة الباطلة ، ونفذ فيه الحكم يوم صدوره .

فنظم أحمد نسيم قصيدة من روائع الشعر الوطنى بعنوان (إلى الرئيس فى سجنه) حيَّاه فيها أبلغ تحية ، وعبر عن الشعور العام بإزائه أصدق تعبير ، قال :

ياليتَ سجنكَ لم يكن بمقدَّر ... فاصبرْ على المقدور ستة أشهر
قد جلَّ رزء الشعر حتى خلتهُ ... بعض الرثاء وأنت لما تقبر
لولا احترام الحاكمين وحكمهم ... لجعلته مثل الشواظ الأحمر
أقصَرتَ فى ماقلتَ حتى لم تَسَلْ ... أمقصرا أم كنتَ غير مقصر (١)
وتركت أقيال الدفاع فلم تعن ... بالمِدْرَه المشهور أو بالأشْهَرِ
يكفيك عطفُ العالمين ووجدهم ... من أكبرٍ يطأ الثَّرَى أو أصْغر
حتى لقد ماد (البقيع) و (يثرب) ... وتزلزلت أرض (الصَّفا) و(المشعر)
والتاعَ قلبُ (محمد) لمحمد ... رب المحامد والعــلا والمفخر

***

إنى نظرتك فى اتهامك واقفاً ... فظننتُ أنك واقف فى المِنْبر
لتقول شعبى أو بلادى إننى ... لهَـوا كُما بين اللَّظَى المتَسَعِّر
ولقـد رأيتك جالساً مستبسلا ... خلف الشِّباك جلوس من لم يُذْعَر

(١) يشير إلى إيجاز الفقيد فى جوابه على أسئلة المحكمة وعدم استعانته بمحامين للدفاع عنه إيمانا منه ببطلان التهمة وتحديا للمؤامرة التى اتخذت شكل المحاكمة .

فرأيتُ في هذا الشباكِ مَعانياً ... فهى العرينُ وأنت أجرأ قَسْوَر
ولقد لمحتك ماشـــيا فى ثُـلَّةٍ ... تعـــتز بينهم بقـــدر أوفر
فسألت هل هذا المسور «خالد» ... أم «جوهر» يختال بين العسكر

***

أفريدُ يا ابنَ الأكرمينَ تحيةً ... من شاعر بسوى الأسى لم يشعر
فى مصر قوم ناوأوك بشرِّهم ... فارددْ مكايدَهم إليهم وانحر
ذكروك فى حب البلاد وأهلها ... ماقيمةُ الإنسان إن لم يُذكر ؟
لو كنتَ ممن تاجروا بضميرهم ... للعبتَ لعبا بالنضار الأصفر
أو كنتَ ممن يطلبون مراتبا ... لشأوت فى العلياء نجم المشترى
وسبقت أجرام السماء وفُتَّها ... من مظـــلم فى ذاته أو نيِّر

***

أ (محمدُ) كن فى النوائب ضَيْغَماً ... مستجمعا للطارىء المتنمـــر
إن بتَّ أنت من الفوادح جازعا ... ما فضل مفتول الذراع غضنفر ؟
أشرقْ لعلك بين سجنك مشرقا ... تهدى سبيل الطارق المتنور
فالشعب بعدك بات ينتجع العُلا ... وغدا مُناهُ ورود هذا الـكوثر
أنعمْ بسؤددك العظيم ومرحبا ... بك من كريم الأصل زاكى العنصُر
أعزِزْ علينا يا ابن «أحمد» حالةٌ ... جاءت بعيش بالهموم مكدر

***

فكأنه بدرٌ يحجب نورَه ... ظلماتُ غيم فى السماء كَـنَهْوَر

أو دُرّةٍ مكنونة فى زاخر أو دمعة مخبوءة فى محجر
أو زهرة فيحاء خيف ذبولُها وضياع نفحتها إذا لم تستتر
أو ناظر غمضت عليه جفونه حذرا عليه من القذى والعثير
أو أنت سر الكائنات محجب أو بعض مكنون القضاء المضمر

***

إلى أن قال :

أمحمد ما أنت أولُ مبتَلًى بالفادحات من الزمان الأكدر
إنى عهدتك خير من يسدى الورى رأياً وخير مفكر ومدبِّر
فاشهرْ لدى الأهوال عزما صادقا فلربَّ عزمٍ كالحُسام الأبتر
ما الناس إلا اثنان ذاك ميسِّرٌ للصالحات وذاك غير ميسر
جلّ الإله فقد أرانا علمه من كل شىء فى الوجود مسخر
بانت مراحمه بأكمل رونق وبدت مآثره بأكمل مظهر
لولا الفؤاد وما أصاب دفينه ما كنتُ عن ذكراك بالمتأخر
لولا مراس الداء صغت قصيدة أربت على شعر الأديب المكثر

***

عفواً رئيسَ المخلصين فإننى ما رمت إلاّ جل عفوك فاغفر
قدجئتُ أزجى فى القريض خريدة قد بات يحسدنى عليها (البحترى)
عطرية فيحاء طورا عن شذا وَرَدٍ وطورا عن أريج العنبر
فيها معان صاغها لك مبدع جم البيان خياله لم يحصر

فاخلع عليها من خلالك نفحة　　حتى تضوع بنفح مسك أذفر
لى فيك ملء الخافقين لآلىء　　زهر تبيع بها الرواة وتشترى
فعليك منى ما حييت تحيـة　　وسلام كسرى فى الملوك وقيصر

يحيي الوحدة الوطنية

قال سنة ١٩١٩ يحيي الوحدة الوطنية والتآخى بين المسلمين والأقباط :

أقباط مصر ومسلموها ضمّهم　　دين المسيح وشرعة الإسلام
الناشئون على الطهارة والتقى　　والقائمون بمصر خـير قيام
والخالدون إلى السكينة كلما　　جاء الزمان بشـدة وعرام
برح الخفاء وبان أنّا أمـة　　لم تبغ غـير محبـة ووئام
إنّا لنرجو أن نعيش بغبطة　　توحى السلام وتنتهى بسلام

يرثى فريدا

قال سنة ١٩١٩ من قصيدة فى رثاء محمد فريد :

رمانا الزمان بإحدى الكبر　　ومنه العظات ومنـه العبر !
شهيـد تصارع فى حومة　　رماه القضاء بها والقدر
وخلف من بعده أمـة　　كسرب النجوم فقدن القمر
أتى جثة سافرت للبـلى　　ولم تسترح من عناء السفر
منّى أوردته حياض الردى　　وورد الردى ماله من صدر
تعلقها عنـد شرخ الصبا　　ولم يجفها عند مس الكبر

وأينع فى روضها غرسه ولم يبق إلا اجتناء الثمر
وأى امرىء عاش أقصى المدى فنال من العيش أقصى الوطر ؟

***

إلى أن قال :

هنيئا لميت نعته العلى وطوبى لحى وعى وادّكر
وحسب فريد مُنى نالها فقد حصدت كفه ما بذر
فتى أغمض الموت أجفانه وأطبقها بعد طول السهر
أفاض على قومه ماله فأدى الحقوق وأسدى البدر
طوبل نجاد الجدى عائل لكل ضريك إليه افتقر
رأى الحرص عارا على نفسه فهان على نفسه ما ادخر
وكان بصيرا بعقبي الندى يرى المال يفنى وتبقى السير
وأخلد ما للفتى ذكره إذا نزل القبر لا ما يذر
وكم صامت ناطق فى الثرى بآى فصاح كآى السور
وليس الذى ذكره خامل كمن شاع صيب له وانتشر
وليس بميت أغر اسمه على صفحات العلى مستطر
خطيب المنابر منطيقها وأسلس من فوق جمع نثر
فإن يكب يوما بضماره فكم من جواد كبا أو عثر
وما زال ينهب فى عدوه فيافى الفجائع حتى ضمر
وحنى دهنه بأعنائها كوارث كاسرة للفقر

وختمها بقوله :

أرى « كاملا » راح فى شرخه وأودى « فريد » حميد الأثر
زعيما بلاد خلت منهما ، « أبو بكر » مات وولى « عمر »
عزاء العـــلا عنهما أمة تنـادت لتجديد مجد دثر
وشعب سعى نحو آماله بعز توقد حتى اســـتعر
وما من ضعيف القوى واهن تشبث بالحق إلا انتصر

يحيي جريدة الأخبار

قال سنة ١٩٢٠ يحيي المرحوم أمين الرافعى لمناسبة إصداره جريدة الأخبار :

يا وحىُ أسعفنى بنظم قلادة صِيغت لآلئها من الأشعـار
هذا (أمين الرافعى) ومن له خير السجايا الغرّ والآثار
يا (رافعىّ) لأنت أصدق مخلص للنيـــل فى الإعلان والإسرار
جرّد يراع المخلصين وذُدْ بها بطش القوى وصولة الجبّار
واحذر على (الأخبار) من آفاتها إن (الرواة) لآفة الأخبار
اليوم هنأتُ البلاد بكاتب ملـكت يداه صحيفة الأحرار

يندد بالانقسام ويدعو إلى التآخى

وقال سنة ١٩٢١ حين اشتد الانقسام بين سعد وعدلى وأنصارهما ، يندد بهذا الانقسام ويدعو إلى توحيد الصفوف :

قالوا انقسمنا فقلنـا فتنة عَمَم بها تُفلّ مواضى العزم والهمم

ولم نكن غير جيش راكب طرقا شتى المسالك من سهل ومن أكم
حتى يرفَّ لواء الفوز منعقدا على الزمان بحق غير مهتضم
وكيف تُقْسَم والتاريخ ينبئنا أن الفلاح لشعب غير منقسم
فحاذروا أن تحلوا عقد شملكم فتقرعوا السن من حزن ومن ندم
ونظموا ما استطعتم من صفوفكم فالجيش إن يَعْرُه الإخلال ينهزم
ولا أحدثكم عن إرثكم عجبا فمنه كان بزوغ المجد والكرم

***

والمجد يدرك بالأعمال منجزة لا يدرك المجد بالألفاظ والكَلِم

***

أحمد الكاشف

١٨٧٨ – ١٩٤٨



من الرعيل الأول من شعراء الوطنية ، ولد سنة **١٨٧٨** بالقرشية من بلاد مركز السنطة غربية ، وهو ابن المرحوم ذو الفقار الكاشف ، وجدُّه من ضباط الجيش المصرى الذين خاضوا غمار المعارك فى عهد محمد على ، تلقى علومه الأولية فى منزل والده بالقرشية ، ثم التحق بمدرسة الأقباط الابتدائية بطنطا حتى استوفى دراسته ، ثم عاد إلى بلدته وأقام فيها ، ومالت نفسه منذ صباه إلى الشعر والأدب ، وكان الشعر طبيعة وسليقة ، فعكف على المطالعة وأكب على كتب الأدب ودواوين الشعراء المتقدمين يدرسها ويستوعبها ، فحاكاهم فى الأسلوب والبلاغة ، واتجهت نفسه إلى نظم الشعر فى المعانى الوطنية ، فجادت قريحته بشعر وطنى من الطراز الرفيع ، ووقف حياته على هذا اللون من الشعر ، وعاش عمره عيوفا أبيا ، معتكفاً فى بلدته (القرشية) ، وفى ذلك يقول عن نفسه :

ولقد تحاشيتُ المدائنَ زاهـداً   وبدوْت أطلب وحدةً وسكونا
لا أرتضى غـير الطبيعة مأنَساً   والذكرَ كأساً والقريضَ خدينا

وله قصائد عصماء نظمها فى مختلف المناسبات ، وعبر فيها أبلغ تعبير عن

أحاسيسه ومشاعره الوطنية ، وظل وفياً لمبادئه طول حياته ، وتألق شعره في سماء الأدب والوطنية ، وبلغ الذروة في هذا المجال .

اتفاقية السودان

قال عن اتفاقية السودان التي أكرهت مصر على إمضائها سنة ١٨٩٩ على أثر انتصار الجيش المصري في السودان .

انتصرنا وما الذي قد جنينا ه من النصر بعد طول العناء ؟
ما جنينا سوى (الوفاق) جزاءا إن هذا الوفاق شرّ جزاء
وإذا شارك الضعيف قويا في منال فحظّه كالهباء

الجندي في المعركة

وطني أنت الحبيب الدائم لك في قلبي المقام الأشرف
وغرامي بك طبعٌ لازم سرّني أني به متصف

لك أسعى دائباً مجتهدا برجاء ثابت مقتدر
لا أبالي في طريقي أبدا طال ليلي أو تمادى سهري

وطني أفديك بالروح إذا مسَّك الدهر بسوء لا يطاق
وأرى اللّذة في دفع الأذى عنك بالنيران والبيض الرقاق

دمت يا نيل أبرّ الأنهر بنفوس كم رأت منك وفاء
دمت تجري يا شبيه الكوثر مُهْدِيَ الوادي هناء ورخاء

دمت ياصحراء ميدان الجنود بين قطريك اللذين اتحدا
مظهرا للبأس من بيض وسود يضمن النصر لنا والسؤددا

قصيدته فى اللورد كرومر سنة ١٩٠٧

لما رحل اللورد كرومر عن مصر على أثر حادثة دنشواى ، شيَّعه الكاشف بقصيدة ندَّد فيها بطغيانه وجبروته ، قال :

أعيا عزائمكَ القضاء الأغلبُ وطوى صحيفتَكَ الزمان القُلَّبُ
أرأيت كيف يُفاجأ السَّباق فى غاياته ويقاطَع المتوثِّب
ولبثت تبدو فى زخارف مخلص للقوم تخفى ما اعتزمت وتحجب
غافلتهم حينا فلم يَتلفَّتوا إلاّ ونابُك فيهم والمخلب

وذكر حادثة دنشواى وكيف فرح المصريون بإقصائه عن منصبه :

وختمت عهدك بالذى اهتزت له أركان (مكة) واستعاذت (يثرب)
وتنفس الصعداء شعبٌ حاملٌ هماً يضيق به الفضاء الأرحب
ماذا كسبتَ وأنت عنا راحلٌ إلاّ الجفاء وبئس هذا المكسب

ينذر الإنجليز

وقال يخاطب الإنجليز وينذرهم سوء العاقبة :

قلدتم الرومان فى استعمارهم هلاّ ذكرتم منتهى الرومان ؟
اليوم سؤددكم وسؤددنا غدا كم أدرك المتمادى المتوانى

رحماكم فينا لنذكركم إذا دار الزمان وحالت الحالان
إنا لنرجو من بنينا عدّةً لا عُدَّةَ الجيران والضيفان

يندد بوزارة مصطفى فهمى

قال فى ابريل سنة ١٩٠٨ يدعو وزارة مصطفى فهمى إلى الاستقالة ، وكانت بغيضة إلى الشعب :

أفى كل يوم يشهد النيل نابغا يعيش فنرجوه ويُقضَى فنجزع(١)
وليس لكم فى موسم الحىّ مظهر وليس لكم فى مأتم الميت مفزع
لقد سئمت تلك الكراسىُّ مكثكم فهلا شعرتم وهى تشكو وتضرع(٢)
وهلاّ اعتزلتم منصباً لا ينيلكم من الأمر إلاَّ أن تَذِلُّوا وتخضعوا ؟
أخاف عليكم أن تموتوا وأنتم أضر من العادى علينا وأشنع
فإن شئتم أن يعفوَ النيل عنكم ويكبركم أبناء مصر ويرفعوا
فخلّوا وزارات البلاد لأهلها إذا أرعد الجبار لم يتزعزعوا
إذن لرأيتم ما رأى من كرامة ومرحمة ذاك الشهيد المشيَّع(٣)

يمجد الفلاح ويمدحه

وقال يمدح (الفلاح المصرى) :

إذا استبقيتُ فى الدنيا حبيبا فخير أَحِبَّتِى فلاحُ مصرَ

(١) يشير إلى مصطفى كامل وقد توفى فى فبراير سنة ١٩٠٨ .
(٢) مكثت وزارة مصطفى فهمى تتولى الحكم ثلاثه عشر عاما من نوفمبر سنة ١٨٩٥ إلى نوفمبر سنة ١٩٠٨ ، وكان عهدها خضوعا وتسليما للاحتلال البريطانى .
(٣) يشير إلى مصطفى كامل .

كريم يمـــلأ الوادى ثراه ولا يَلْقَى سوى الإجحاف أجرا !
فقيرٌ ما أراه شـكا افتقارا ولو يُجزى على تعب لأَثْرَى
فحراثٌ يشقُّ الأرض عندى ويخرج من ثراه الخصب تبرا
كسيف فى يد الجنـدى لاق به جيشــا وحِصْنا مُشْمخرًّا

صلته بمصطفى كامل

كان الـكاشف صديقاً و نصيرا لمصطفى كامل ، وكان لدعوة الزعيم و تعاليمه صداها فى قصائده ، وكان مصطفى يقدره ويعجب به ويسميه (شاعر الغربية النابغة) ، وكثيراً ما كان هو يردد كلمات مصطفى كامل ومعانيها ويصوغها فى قالب شعرى رفيع .

قال عن صلة الخطابة بالشعر :

ولئن هززت العالمين فإن من تلك الخطابة هـذه الأشعارا

وقال يردد كلمة مصطفى كامل (لولم أكن مصريا لوددت أن أكون مصريا):

لو كنتُ فى الخلد أو فى غيره ملـكا وددت لو أننى فى مصر إنسان !

وقال فى محاربة اليأس :

وما معنى القنوط وأنت حىٌّ وما معنى القنوط مع الحيـــاة ؟

وقال فى قيمة الاستقلال :

إن البلاد بلا استقلال صاحبها قَفْرٌ لديه وإن أصبحن جنات

ولما مات الزعيم رثاه الـكاشف بمرثية رائعة بلغت نحو مائة بيت، قال فيها :

لهفى عليك وقد رحلت اليوم لم تدرك لغرسك فى البلاد ثمارا

إلى أن قال يشير إلى الرحلة التى كان يعتزم الزعيم القيام بها فى الشرق :

لهفى وما لاقتك (يثرب) ضيفها   وخطيبها المسترسل المكثارا
لهفى عليك ولم تسر متفقدا   فى الهند إخوانا لمصر حيارى
لهفى ولم تنقل من اليابان ما   يهب البلاد حضارة وعمارا
قد كنت مزمع هجرة لو قدرت   قربت أعوانا لمصر كبارا
وجمعت بين السابقين وأمة   مهضومة تتتبع الآثارا

ثم يستنكر على وزراء مصر وقتئذ تخلفهم عن تشييع جنازة الزعيم خشية إغضاب الإنجليز ، قال :

ويل الذين تخلَّفوا عن مشهد   مَشَت الملائك حوله إكبارا
هل يعرضون ترفُّعا وتكبُّرا   أم يسكنون تهيُّبا وحذارا ؟

ثم يصف احتشاد الأمة يوم تشييع الجنازة قال :

يا قائد الأبطال هذا جيشك الـ   جرّار فانظر جيشك الجرارا
يوم كيوم الحشر ضمَّهم وكم   رحّبت فى أرب لهم مضمارا
فلئن بكوا فلقد بكيتهم وهم   غرباء فى أوطانهم وأسارى
أو يحملوك على رءوسهم فقد   أصعدتهم فوق النجوم فخارا

وختم مرثيته بقوله :

أشهدتُ مصر على علاك ونيلها   وصعيدها والنَّبْت والأحجارا
لو لم تسل قطع النفوس لشيدوا   منها لك التمثال والتذكارا
ما مات من ورثت مناه أمة   تجرى على منهاجه استمرارا

يحمل على سياسة الوفاق ، ويعاتب الخديو عباس الثانى

فى سنة ١٩٠٩ كانت سياسة الوفاق بين الخديو عباس الثانى وإنجلترا تسيطر على الجو السياسى فى مصر ، وكان هدف هذه السياسة محاربة الحركة الوطنية ، وبدت مظاهر هذه السياسة فى تنكر الخديو للكفاح الشعبى ومناصرته للاحتلال وسياسته .

نظم الكاشف هذه القصيدة سنة ١٩٠٩ يحمل فيها على سياسة الوفاق ويخاطب الخديو عباس الثانى ويعاتبه ويحذره مغبة الاستنامة إلى وعود الإنجليز، وهى من أبلغ قصائده وأقواها :

أهلاً وسهلا بالوفاق ومرحباً ... لو كان فيه قضاء ما وعدوكا
إن كنتَ مشترطَ (الجلاء) فواجبٌ ... لك أن نودّهم كما ودّوكا
خير لنا أن يعلنوا البغضاء من ... أن يعلنوا ذا الموثق المفكوكا
حاسنتَهم لتردّ عنا شبهة ... كم حاربوك بها وما حربوكا ؟
ما كان حُبًّا ما ترى لكنه ... كَتَمَ المخاتلُ سرّه المهتوكا
أرأيت كيف وشى بكل مهذب ... حر فكان الآفك المأفوكا ؟
اليومَ يشكونا إليك وما بنا ... غير الوفاء وفى غد يشكوكا
أعيا على أوهامه ووعيده ... هذا المراس فقام يستصفيكا

***

ماذا ترى فى غاصبين يسوءهم ... أنّا نحس وأننا نرجوكا
أتخاف شكوى المخلصين ولم تخف ... فيما مضى عدوان مضطهديكا ؟
ياليتهم جعلوا القيود لكل ذى ... نظر وما انتقموا بأن حجبوكا

هل كان مُسْمِعُكَ السلامَ مشاغبا أم كان غير مشوّق رائيكا ؟
إنّا وإيّاك ابتليناهم فهل صَدَقوا الورى يوما وهل صدقوكا ؟
أوْلى بهم وقد اتّهمنا نصحهم أن لا تصـدقهم إذا نصحوكا



أرِهم مراسك قبل أن يستأسدوا إنّا لنخشاهم إذا أمنـوكا
ياحبذا يوم (الجلاء) ولا نرى جندا يصول ولا دما مسفوكا

يخاطب اللورد كتشنر

في سنة ١٩١١ عين اللورد كتشنر معتمداً لبريطانيا في مصر ، وكان معروفا عنه الصلَف والغطرسة ، فاستقبله الكاشف بقصيدة رائعة تفيض وطنية وشمماً وإباءً . قال في مطلعها :

مهلاً لتمتحن الطريق خطاكا إن كلفوك لغاية إدراكا
في مصر شعبٌ لا يُضام ومالك(١) متفرد لا يقبل الإشراكا
ما أنت حابس نيلها يوماً ولا أهرامُها مهدومةٌ بقواكا
الله أكبرُ من جيوشك سطوة والدهر أبعد من مَدَى مَرْماكا

إلى أن قال :

هل يُذنب الجرحى إذا هم حاولوا دون الضواري صيحةً وحراكا ؟
لسنا قطيعاً غابَ راعيه كما كنا ولستَ الضيغم الفتاكا

(١) لعله يقصد بالمالك الأمة فهي مصدر السلطات ولا تقبل إشراكا في سيادتها .

إن كنت طلق الوجه أو متجهما ... فالله يعلم منتهى نجواكا
ولعل شأنك فى مشيبك غيرما ... أسلفته فى عنفوان صباكا

إلى أن قال :

واذكرْ لوادى النيل نعمته عسى ... تُعطِى بنيه بعض ماأعطاكا
فإذا تجاوزت الكنانة فافتتح ... ماشاء عزمك واصعد الأفلاكا
فى غير مصر ذرائعٌ ومواقع ... للمستزيد مطامعا وعراكا
ولئن غضبت على الأُباة فصبرهم ... أولى وأجمل من رجاء رضاكا
فاعرف لهم عذر الحريص إذا هم ... لم يسلموا لك ماتنال يداكا

يبشر بالاشتراكية

فى أعقاب الحرب العالمية الأولى وبعد توقيع معاهدة الصلح فى فرساى (مايو سنة ١٩١٩) بين ألمانيا والحلفاء ، نظم الكاشف قصيدة عصماء تناول فيها شتى المعانى السياسية والوطنية . فمن قوله يبشر بالاشتراكية :

للاشتراكية العقُبَى إذا شملت ... شَتَّى الشعوب وجاراها المجارونا
فلا الكثيرون ملكاً للأقلّينا ... ولا الأقلون ملكٌ للكثيرينا
ولا نرى واحداً ملأى خزائنهُ ... بالمغْنيات وآلافا يجوعونا
ولا نرى درة فى رأس محتكم ... تهفو إليها قلوب المستظلينا

يندد بغدر الإنجليز وتنكرهم لمصر

وقال في هذه القصيدة يندد بغدر الإنجليز وتنكرهم لمصر بعد أن عاونتهم في تلك الحرب :

يا نائلين من الحرب العوان سوى   ما كان منتظراً منها ومَظْنونا
نَجوْتُم من رزاياها ومالَكُم   لا تذكرون رفاقا غير ناجينا ؟
مَدُّ الحديدَ لكم في كل مرحلة   وذللوا لكُم أطوادها لينا(١)
ورابطوا لأعاديكم على هدف   وألحقوا النيلَ بالأردن ساقينا
وكم عتبنا على قوم لأجلكم   وهم إلينا الأحبَّاء المحبُّونا
وقلتُمُ لم ينل قومٌ بغير دمٍ   حريةً فبذلناه مضحِّينا
ونال من دمنا في عصر جندكم   ما نال منه عداكم في فلسطينا
فهل غسلتم خطايا الأبرياء به   أم لا تزال خَطيئات البريئينا ؟
أتستهينون بالإنسان ماثلكُمْ   وتؤثرون عليه الماء والطينا ؟
هَبُوا حِمَى مصر والسودان مزرعةً   أيرهق الأجراء المستغلُّونا ؟
ورثتم خصمَكم ميْتاً ، وصاحبكم   حيًا ، ومازلتمُ في الأرض تَسْعونا

***

جربتمو مصر في تقييدها زمنا   فجربوا مصر في إطلاقها حينا
أمنتمُ مصر فيما نال أمتكم   فأى شيء على مصر تخافونا ؟

---

(١) يشير إلى تسخير العمال المصريين في مد السكك الحديدية في سيناء إلى العريش أثناء الحرب العالمية الأولى .

وقلتمُ : مصر للهند السبيل فإن ضاع السبيل أضعنا الهند ساهينا
أمَا إلى الهند إلا مصر من سُبُل ملأى شواهين أو ملأى سراحينا(١)
يهدد الهندَ أهلوه وجيرته ولا يزال سبيل الهند مأمونا
خافوا سوانا وأعطونا أمانينا فما تضرُّكمُ يوماً أمانينا
وإن فردا لذى ملك يبرُّ به خيرٌ له من جماعات يثورونا
عن أى شىء لمصرٍ تسألون وقد هزَّت مسائل مصر الهند والصينا(٢)
بالسيف والنار يدعو الناس جندكمُ وتطلبون من الصرعى مجيبينا
ضُعوا السلاسل عنا واطلبوا جدلا تروا أدلة مصر والبراهينا
وربما قبلت دعواكم دولٌ وأهل مصر أباةٌ غير راضينا
لَيْتَ الذى حَرَمَ الألمان غايتَهم أخاف قوما سواهم لا يبالونا
وليت من زاد قوما قوةً وغنًى يرعى ويحرس أقواماً مساكينا
أتسفكون لمظلوم دماءكمُ وبالكلام على عانٍ تضنُّونَا ؟
وهل وفيتم بميثاقٍ لمصر كما رعيتمُ العهد للبلجيك موفينا ؟
كم أعجبتكم من الأحرار عزَّتُهم كانوا موالين أو كانوا معادينا
فهل ذكرتم وأكبرتم لنا غرَضا كما ذكرتم وأكبرتم (وشنطونا)(٣)

---

(١) السراحين : الذئاب .

(٢) يشير إلى تأليف الحكومة البريطانية اللجنة المعروفة بلجنة ملنر بدعوى البحث عن أسباب ثورة سنة ١٩١٩ والوسائل لملافاة هذه الأسباب .

(٣) جورج واشنطون محرر أمريكا ، وكان على رأس الجيش الوطنى الأمريكى الذى حارب الإنجليز وقد اعترفت بريطانيا باستقلال الولايات المتحدة سنة ١٧٨٣ بعد أن انتهت الحرب بظفر الأمريكان .

كم أنجب البطلُ الأحداثَ عالية وأنجب الحدثُ الأبطال عالينا
كنا أمانة دهر عندكم وأتى وقتُ الأداء فهل أنتم مؤدُّونا ؟
وقد أقرَّ لمصرٍ كل منتصف بحق مصر فهل أنتم مقرونا ؟
قد أصرت على استقلالها فعلى أى المآرب أصبحتم مصرينا ؟

يحذر قومه من التحالف مع بريطانيا

وفى هذه القصيدة (التى نظمها فى أواخر سنة ١٩١٩) يحذر قومه من فكرة التحالف بين مصر وبريطانيا . قال :

أوَاهبون لمصرٍ كل ما طلبت أم آخذون بمقدار ومُعطونا ؟
وإن رفعتم عن الوادى حمايتكم فما اسم لاحقها فيما تُسَمُّونا ؟
وإن تروا بدلا منها (محالفةً) فمن لنا بضمانات المساوينا ؟
إنا لنعجز عن حق الحليف وعن حق الشريك وأنتم تستزيدونا
وما مجاورة الأقوى وشركته إلا كما جاور العصفورُ شاهينا
ادعوا بنى مصر أندادا لكم ودعوا ولاة مصر ملوكا أو سلاطينا
وغادروها لأكفاء تجاربُهمْ تُغنيهم عن تكاليف المشيرينا
يفدون مصرَ وإن شاكت منابتها وإن جرى نيلُها مهلا وغسلينا
وإن تدفق فى البيداء منصرفا وإن أقام وراء السدّ مخزونا
أحرار مصر تباريهم حرائرُها ففاديات كما نرجو وفادينا

يندد بالاستعمار والطغيان

وفى هذه القصيدة يندد بالاستعمار والطغيان ويحملهما مسئولية الحرب الطاحنة التى اكتوت الشعوب بنارها . قال :

أمْضَى على الصلح قَوْمٌ يعبثون به ... وقد نأى عنه قومٌ غير مُمْضِينا
تنفس الصعداء اليومَ بعضُهُم ... ولم يزل بعضهمُ أسوان محزونا
هل يعرف الدهر حرباً كالتى شهدت ... تلك الثمانى يتلوها ثمانونا
صناعةٌ هى يعتزّ الملوك بها ... على العباد الأذلّاء المطيعينا
أم كانتِ المرضَ الموروثَ فى دولٍ ... أعيتْ طبائعُها السّودُ المداوينا
ما كان أكبر آثام الأنام وما ... أذكى وأغلى الضحايا والقرابينا
أين الأسرَّةُ والتيجان أسألُها ... عن الملوك الطغاة المستبدّينا
الرافعين على الأشلاء دورهمُ ... المالئين دماً تلك الميادينا
جَنَتْ على ملكهم أسلاب غيرهم ... فهل تذكر هذا المستغلونا ؟

إلى أن قال :

دانت لعسكر (ولسونٍ) جبابرةٌ ... وأين ما صنعت آراء ولسونا[١] ؟
أغرى البرية باستقلالهم ونأى ... عنهم وهم بالذى أغرى يهيمونا

---

(١) ولسون الرئيس الأسبق لجمهورية الولايات المتحدة الأمريكية . يشير الشاعر فى هذا البيت والأبيات التالية إلى مبادىء ولسن التى أعلنها حين دخول أمريكا الحرب إلى جانب بريطانيا وحلفائها وكيف تنكر لها بعد انتصار الحلفاء .

القوة سناد الحق

والحق فى كل عصر فاقدٌ سنداً ... إن لم يجد طلباً بالبأس مقرونا
فذو السلاح هو المرهوب جانبُه ... إذا انثنى الأعزل المغلوب مغبونا

أمل مصر فى بنيها

وختم هذه القصيدة الرائعة بقوله :

من لم ير اليومَ فى العمران موضعه ... لم يلق فى غده دنيا ولا دينا
ونحن أولى بأن نرعَى مواطننا ... نوفى المكاييل فيها والموازينا

مؤتمر لوزان

الحق للقوة

فى سنة ١٩٢٣ ترامت الأنباء عن مؤتمر لوزان بأنه يخذل مطالب الشعوب الشرقية فقال الكاشف يدعوها إلى القوة والتعاون فى مكافحة الاستعمار :

عودوا إلى البأس بعد اللين فهو لكم ... قد يفعل البأس ما لا تفعل الخُطَبُ
لاحق للشرق إلاّ فى معـــاقله ... والحق منقلب فى الغرب مغترب
هل يملك الحكم فى (لوزان) خصمُكم ... ودونه فى سوى لوزان مضطرب
ما كان (كرزون) بالموفى لأمته ... ودون ما يبتغيه الهول والنّوَب

إلى أن قال :

إنى لأشفق من يوم على دُولٍ ... يقضى الحديدُ عليها فيه واللهب
ممالكَ الشرق والإسلام تذكرةً ... فالشرق أسوان والإسلام ينتحب
أين الأمانةُ والميثاق بينكم ... والبيت منتهبٌ و (القدس) مغتصب

مجدُ الرجال على مقدار ما بذلوا   من الدم الحرّ لاالدمع الذى سكبوا
ذودوا عن الوطن الغالى وعن شرف   بَذْلُ النفوسِ له بعض الذى يجبُ
ومن أراد حياة العز طيبة   فالأرض تحمله حرا أو الشهُبُ

***

يا وافدَ الشرق جوّابا بلا سند   فى الغرب ينتظر العقبي ويرتقب
مصير كل قبيل بعد جولته   ما خطّه فى فروق الفتية النجب
فصل الخطاب لهم بعد القضاء غدا   فى سائر الأمر جّد القوم أو لعبوا
أين السلام وأين العاملون له ؟   وأنه أمــل الأبرار والأرب
كل يمد وراء الغيب غايته   وليس يعـــلم ما يأتى به رجب

يتندر على عيد ١٥ مارس سنة ١٩٢٢

قال من قصيدة له فى مارس سنة ١٩٢٣ يتندر على عيد الاستقلال الذى جعلوا تاريخه يوم ١٥ مارس سنة ١٩٢٢ حيث أعلن الملك فؤاد استقلال مصر على أثر صدور تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ :

ياعيدَ الاســتقلال أنــتَ له خيال أم حقيقهْ ؟
للعِتقِ أم للـــرقّ ما خطُّوه فى تلك الوثيقهْ
أبمهرجانٍ تحتفى الـظمأى وتحتفل الغريقه ؟
وتنـــال مصر مرامها من بعد ماسدوا طريقه (١)
يتكلفون(٢) الصـــالحــات لهـــا وتأباها السليقه

(١) يشير إلى الإنجليز الذين وضعوا العقبات أمام مصر فى جهادها لتحقيق أهدافها .
(٢) الإشارة هنا أيضاً إلى الانجليز .

إن أطلقوا أمس البــلا د فهم ليسـت طليقه
وحديقــة أضْحَتْ ولـ كن للغريب جنى الحديقه
وإن اســتبدَّ بنيلهــا قَتَلَ الشقيقة بالشقيقه(١)

***

وأحرَّ أكـباد إلى حرِّية الوادى مشــوقه
هــذا زكىٌّ دَمِي لها أجد الرضا فى أن أريقَه

***

أتخاذلٌ زعمــاء مصـ ـرَ أمام هاوية عميقه ؟
أى العقاب أحق بالـ ـرجل الذى يؤذى رفيقه ؟
عاد الغريمُ لمصر يعـ ـبس بعد خدعته الدقيقه
فإن افترقتم عنــده كنتم جميعكم فَرِيقَــهْ

يحذر من نوايا الإنجليز ويدعو النواب إلى أداء واجباتهم

وقال من قصيدة له يوم ١٥ مارس سنة ١٩٢٤ وهو اليوم الذى اجتمع فيه البرلمان الأول وكان سعد زغلول يتولى رآسة وزارة الأغلبية .

سلاما على حصنكم والعلَمْ ورعْياً لندوتكم فى الأممْ
سلاما على ذلك الملتْقىَ سلاما على ذلك المزْدَحم

إلى أن قال :

أمانة مســتوثق معلنٍ لـكم من سرائره ما كَتَمْ
وهذا غريمُكم(٢) الملتوى تَجمل بعد الأذى واحتشم

---

(١) مصر والسودان .
(٢) يقصد الاحتلال .

تولّى بغاياته عابساً وعاودها فاتنا فابتسمْ
إلى أجلٍ أم إلى منتهى مراميه يلزمكم ماالتزم
وهل ينجلى الأفق أم يرتمى بعاصفة بعد هذا النسّمْ
ولوكان يعرف عقْبى النزا ع فى الحق من زمن لا نحسم

وقال يدعو إلى التآخى وصفاء القلوب بين المواطنين :

وليس يقالُ فريقٌ هفاَ وليس يقال فريق ظَلَمْ
يضيع على مصر هذا النعيـ ـم إن لم يكن كل بيت أجم
وما أنا بالآمن المطمئنّ إلى المستعد الذى لم ينم(١)
أعد المَرابطَ فى المسلكين ومن مَلَك المسلكين اقتحم
وهل يترك الذئبُ عاداته وإن لَبسَ الذئب ثوب الغنم ؟

***

وداهيــة مرجف بالذى تعدّى به غيره فانهزم
وليس الذى قاله حجةً فقد ألِفَ الناس هذا النغّمَ
وهل يستطيع اغتصاب الرقا ب مَن بمِراس النفوس اصطدم
وما صنعت بالمغُير القلا ع صُنْعَ إبائكم والشممْ
وحَسْبُكم شملكم عُدّةً وحسبكم صبركم معتصم
وما أحسن العفو من قادر إذا ما اشتهى حاقدٌ وانتقم

***

(١) يريد الانجليز .

سيجلو عن الأرض جبّارُها ... ويلبث فيها كريمُ الشيمْ
ولا دولة لسوى المصلحين ... ولا مُلْك إلّا لأهل الهمم

عيوب الحزبية

وقال سنة ١٩٢٥ من قصيدة له حين اشتد التناحر بين الأحزاب ، يدعو إلى نبذ الخصام :

وقفتُ وما أدرى أعُدّ حوادثاً ... تدور أمامى أم أعدّ ذنوبا
تحملت عن قومى نصيباً من الأسى ... ولم أرجُ من أجر الجهاد نصيبا
وأمعنتُ فى غيب المقادير علّنى ... أرى فرجا للأمتين قريبا
وليس بمغنٍ أمة خصبُ أرضها ... إذا لم يكن خلق الرجال خصيبا

***

تنازع قومى اليومَ جنداً وقادةً ... فلم أر إلّا سالبا وسليبا
مبادىء أحزاب أرى أم منافعا ... توالت صنوفا بينهم وضروبا ؟
تقضّت حروب العالمين ولم أزل ... أرى بين أبناء البلاد حروبا
بقومى على قومى استعان غريبهم ... فصال شمالا واستطال جنوبا
فمن لهم بالمنقذ الأمر حازمْا ... إذا لم يطيعوا نافذا وحسيبا
يردهم بعد القطيعة والنوى ... رِفاقا كما يلقى العليل طبيبا

قريتى

قصيدة نظمها بهذا العنوان سنة ١٩٣٦ ، يصور فيها حياته فى بلدته (القرشية) ويؤثرها على حياة المدن ، قال :

جمعت فى العيد حولى سائر الآل ... وملتقى الآل حولى كلّ آمالى

أباً دعَوْنى وما لى فيهم ولد ولست للقوم غير العمّ والخال
كأننى وهم فى الدار مطلع منهم على أمم شتى وأجيال

إلى أن قال فى إيثاره الإقامة فى الريف :

أقمت فى الريف لا أشقى بطاغية من الرجال ولا لاهٍ وختّالِ
وعشت بالرطب من بقل وفاكهة فيما ملكت وماء فيه سلسال
أطلت فيها اعتزال العالمين ولى بكل ناحية همى وأشغالى
لقيت فى عِشْرة الجهال عاطفةً لم ألقها من رجال غير جهال

يحذر قومه من مفاوضات سنة ١٩٣٦

وعرج فى هذه القصيدة بالمفاوضات التى كانت جارية وقتئذ بين مصر وبريطانيا وأسفرت عن معاهدة سنة ١٩٣٦ ، فحذر قومه من مغبة هذه المفاوضات ، قال :

ولم أزل بينهم للخصم متقّيا دخائلا هى فى ذهنى وفى بالى
أخشى على رسلهم نيّاته وهم منه أمام جلاميــد وأدغال
وما تزال كما كانت سياستهُ يدور فيها بأشكال وألوان
وموضع الند أرجو عنده لهم لا موضع الصيد من أنياب رئبال
وقد يكون لهم من ضيقهم فرجٌ كما تُدَافع أهوالٌ بأهوال

وظل الكاشف فى قريته وعزلته ، وفيًّا لشعره ومبادئه ، إلى أن أدركته الوفاة فى ٢٩ مايو سنة ١٩٤٨ .

***

محمد عبد المطلب

١٨٧٠ – ١٩٣١



هو الشاعر البدوى البليغ ، والمجاهد الوطنى الصميم ، محمد عبد المطلب ، ولد سنة ١٨٧٠ ببلدة (باصونه) من قرى مديرية جرجا لأبوين عربيين مصريين من سلالة قبيلة جهينة إحدى قبائل جزيرة العرب ، وكان والده رجلا صالحا متفقها ، فأرسل ابنه إلى الأزهر وتلقى فيه العلم نحو سبع سنين ، ثم انتقل إلى (دار العلوم) ومكث بها أربع سنوات ، وتخرج منها عالما أديبا ، وتولى التدريس فى مدارس الحكومة ، واختير مدرساً بمدرسة (القضاء الشرعى) ، ثم مدرساً فى (دار العلوم) ، ونضج علمه ، واكتمل شعره وأدبه ، فصار من فطاحل الشعراء الذين يشار إليهم بالبنان ، ولما شبت ثورة سنة ١٩١٩ ساهم فيها بشعره وأدبه وجهاده ، وخلّد حوادثها بقصائده الغر ، وكان حجة فى الأدب واللغة ، وشعره يجمع بين البلاغة والجزالة وروعة الأسلوب ، وبلغ فى مكانته الشعرية منزلة فطاحل الشعراء المتقدمين ، وكانت الروح الوطنية الدفاقة تتجلى فى معظم أشعاره وقصائده ، وله فى هذه الناحية إنتاج ضخم يصلح فى ذاته أن يكون ديوانا مجتمعا من الشعر الوطنى ، وقد ظل على إنتاجه الشعرى إلى أن أدركته الوفاة سنة ١٩٣١ .

روحه الوطنية

إن أحسن وصف لروحه الوطنية ومساهمته فى الجهاد وخاصة فى ثورة سنة ١٩١٩ ما قاله فى رثائه صديقه وزميله الشاعر محمد الهراوى إذ يقول عن (جهاده الوطنى) :

فذاك وإن جَدّت خطوبٌ وأجْلَبَتْ ... فإنك للجُلَّى وللحادث الجِدِّ
تخاطر والجند المدجّج محدق ... وتمضى وصوت (الموزريّات) كالرعد
فتبكى وتستبكى العيون على الحِمْى ... وتعدو على العادى عليه وتستعدى
وتخطب حتى تستثير وتنثنى ... وقد حَمِيَتْ آنافُ قومك من وَقْد
وما هالك الجندُ الذى كان محدقا ... ونفسك من فرط الحمية فى جُند
نزلت عن النفس الكريمة فديةً ... إلى الوطن العانى ، كذلك مَنْ يفدى

مصر أثناء الحرب العالمية الأولى

١٩١٤ — ١٩١٨

قال من قصيدة له يصف ما عانته مصر أثناء الحرب العالمية الأولى ، وينعى على الإنجليز بغيهم وعدوانهم وإعلانهم الحماية فى ديسمبر سنة ١٩١٤ ، ويندد بفظائع السلطة العسكرية البريطانية فى سنى الحرب :

وعادت رياض النيل ناراً جحيمُها ... يُشَبّ لغير الخائن المتملق
فكم سيدٍ بين الغيابات حتفُه ... وآخر بالأصفاد والسوط مرهق(١)
ترى أدمع النعمى بناعم جسمه ... نجيعَ دمٍ من جلده المتمزق

(١) يريد بالغيابات السجون والمنفى .

يقضّى الليـــالى بين ظلم وظلمة طريدَ الـكرى فى جوف أغبرَ مطبق
وتمسى نَجِيّ الحزن جارةُ بيتـه سـوادَ الدجى بالمدمع المترقرق
وفى حجرها لو أبصروا ذو تمائم يكلّمها بالعين من غـــير منطِق
إذا فزعت فى الخدر من هول ماترى فلا راحماً تلقى ولا عطف مشفق
ودارةِ عزّ أوحشت من أنيسها وما كان فيها من جلال ورَوْنق
تحمّـل أهلوها على غـــير موعد وبانوا على حكم الزمان المفرِّق
ينادى لسان الحـال من شرُفاتها « قفوا ودِّعونا قبل وشْك التفرّق »
ولم يُنْسِها التوديعُ موقف شامت يقلّب فى الغادين أجفـان مُحْنَق
وما ملّهم فيهـــا ثواء وإنمـا نَجَوْا بالنوى من ظُلْم أرعنَ أحمق
يناديه فينا قائدَ الجيش(١) قومُه وما قادهم إلا إلى شر مأزق
تعسف بالأحكام غـــيرَ موفق وما ظالم فى حكمه بمــوفق
فـكم ساقَ من مصرٍ إلى الموت فتيةً زهاها الصّبا فى عنفوان وريِّق(٢)
جمـــوعٌ كآجال النعام تلفّها يدُ القمر للآجال من كل منعق(٣)
له عُصَبٌ فى غورها وصعيدها تَخيّرُ أبنـاء الشباب وتنتقى(٤)
ففى كلّ إقليم حُجولُ مُقيَّدٍ لغير عَصِىٍّ أو حبالُ مُرَبَّق(٥)

---

(١) يريد قائد جيش الاحتلال .

(٢) الريق : أول الشباب .

(٣) آجال أى القطيع والمنعق من نعق الراعى غنمه إذا زجرها .

(٤) يريد بالغور الوجه البحرى وتخير أى تتخير .

(٥) الحجول القيود ، وربق أى شد .

وفى كل وادٍ منهمُ سوطُ مُعجِل يهـــدّد بالتنكيل كل مُعوِّق
ومن لم يَسُقْه السوط والسيف ساقه إلى حيث شاءوا جهدُ عيشٍ مرمِّق (١)

يوم إعلان الحماية

وقال عن إعلان الحماية فى ديسمبر سنة ١٩١٤ :

بلاءٌ على القطرين أغطش ليـله ضحى يوم نحس بالخطوب مؤوَّق (٢)
دَجَتْ يوم إعلان (الحماية) شمسهُ فيالك من يوم على مصر أورق (٣)
به لَقِحَتْ سود الليالى فليته قضى فى بطون الغيب لم يتخلَّق
قضينا به يوم المــدلَّه بالأسى وبتنا على ليل السليم المؤرَّق (٤)
عَشيةَ يدعو «مكسويل (٥)» سَرَاتها لعيدين يوم الجمع يوم التفرق
يُبَوِّئُ عرشَ النيل من شاء جانفاً (٦) فننُشده والخطب بالخطب يلتقى
«رويدكِ حتى تنظرى عمَّ تنجلى غيابة هذا العارض المتألق»
فمن دون عرش النيل كلُّ مدرّب كَمِىٍّ متى يُرعِد له الهول يُبرِق
بصير بأسباب الردى غَرْب سيفه لبوس المنايا بين هام ومفرق
ثَوتْ نفسُه من بأسه فى مِجَنَّةٍ (٧) متى يدْنُ منها طائفُ الموت يُصعَق

---

(١) المرمق من يشبع جوعا ويمسك رمقا .
(٢) أغطش ليله أظلمه ومؤوق اسم مفعول فعله أوق . يقال أوقه أى حمله المشقة.
(٣) الأورق الذى لونه إلى الرماد . يريد أنه مغبر بالخطوب .
(٤) المدله : الذاهل .
(٥) الجنرال مكسويل قائد القوات البريطانية حين إعلان الحماية .
(٦) جانفا أى ظالما .
(٧) المجنة : الترس

نقض العهود والمواثيق

وقال يهاجم الإنجليز وينعى عليهم نقضهم للعهود والمواثيق :

فسائلْ بنا أعلاجَ « لندن » هل وفَوْا ... بعهدٍ لنا بين الأنام ومَوْثِق
لدى فتنة لم يغن عن مصر عندها ... حميــة حام أو تقيَّة متق
جرت عَمَماً لم تبق أرضاً أمينةً ... ولا بلداً بنّاؤهــا لم يحرّق
ثلاثين عاماً لا ترى مصرُ منهمُ ... سوى صَلَف المستـكبر المتعزّق(١)
ثلاثين عاماً لم تَشِم برقَ راحة ... ولاطيب مخضرّمن العيش غَيْدق(٢)
ثلاثين عاماً بين يأس وحسرة ... وهول زمان بالحوادث مِتأَق(٣)
إذا ودَّعت (عاماً) من الجور أبقعاً ... تفيء إلى عام من البؤس أبلق
ثلاثين عاماً بالهوان تسومها ... سفاهةُ غارٍ فى المكايد مغرق
يرى نفسه فوق القوانين بيننا ... متى ما نذكِّره القوانينَ يحنق
يبيح غداً ما حرَّم اليوم بالهوى ... لغير الهوى فى حكمه لم يوفَّق
إلاهة جبَّــار وإمرة خاطل ... وتدبير أعمى فى الحكومة أحمق
إذا ما شكوناهم عميداً فأمرنا ... لأعلم منــه بالنكاية أحذق
يقرب خوّانا ويرفع جاهــلا ... ويُسعد أشقاها ويَشْقَى به التقّي
إذا ما مضى هذا أتى ذاك بعده ... على النهج لم يعدل ولم يترفق

---

(١) المتعزق : العسر الخلق .
(٢) الغيدق : الرخص الناعم .
(٣) متأق أى مملوء .

إفساد التعليم

وقال يذكر إفساد التعليم والدور المشئوم الذى قام به دنلوب فى هذا الصدد :

وبالعلم سَلْ «دنلوبهم[1]» لم يدع ... ذَوَاقاً من العرفان للمتذوّق
هو الجهل فينا حشدته لحكمة ... يدُ الله تنكيلا بشعب مدوق[2]
رمتنا به حمى أصابت بلاده ... تطاير عنها كل فَدْم حَبَلّق[3]
تحلَّ بنا فيمن تمرّق منهمُ ... فيا عجباً للسارب المتمرق
ولو وزنوا فى غير مصر مقامه ... لأرخصه فى السوم كل مُدَنِّق
فأصبح داءً فى المعارف قاتلا ... يسدد فيها كل سهم مفوَّق
فواها على تلك العقول التى ثوَتْ ... بكفّيه فى لحدٍ من الجهل ضيِّق
ثلاثين عاماً يسكُبُ النيلُ حسرةً ... على العلم دمعَ الواله المتشوِّق
وما وردوا من عذبه غير لامع ... من الآل فى بيدائها مُتَرَيِّق
ولولاه كانت مصر بالعلم روضة ... تلألأ بالأنوار للمتأنّق
أ « دنلوب » ماتلك المبانى رفيعةً ... متى ما تسامق هامُها النجم تَسْمُق
وما العلم أن يعلو رتاجٌ وقُبة ... على فدُن بالأرجوان مزوَّق
أ«دنلوب»هل أرضيتَ قومك غايةً ... أم العَيْر[4] إن يَبْعُد به الشّوط ينفق

---

(١) المستر دنلوب وكان سكرتيرا عاما ثم مستشارا لوزارة المعارف والمسئول الأول عن انحطاط التعليم فى عهد الاحتلال .

(٢) المدوق : المهزول .

(٣) الفدم : الأحمق ، والحبلق : الصغير القصير .

(٤) العير : الحمار ، وينفق : يهلك ويموت .

ثورة سنة ١٩١٩

وله قصائد غراء فى ثورة سنة ١٩١٩ أرخ فيها جهاد المصريين والمصريات وفظائع الإنجليز فى قمع الثورة .

حضارة مصر ومجدها

قال من قصيدة له أنشدها سنة ١٩١٩ فى الاحتفال بعيد النيروز يشيد بحضارة مصر ومجدها وفضلها على العالم :

فلا . يا ابنةَ البيتِ الذى عند بابه   تخرّ ملوك العالمين إذا مرّوا
رويدَكِ إنّا فى العُلا يوم نَنْتمى   كلانا أبوه النيلُ أو أمه مصر
لنا ذِرْوة المجدِ الذى تحت ظلّه   تناسلتِ الأحقاب واعتمل الدهر
لنا آية الأهرام يتلو قديمَها   حديثُ الليالى فهى فى فمها ذِكْرُ
ملأْنا بها لوحَ الوجود مَتاقباً   إذا ما خلا عصرٌ تلاه بها عصر
وللعلم من آثارنا فى جبالنا   على الدهر آياتٌ بها ينطق الصَّخر
ولِلْمُلْك منا كلُّ أروع نظّمت   على تاجه الأفلاكُ والأنجم الزهر
ومنّا الذى ساق الأساطيل شُرَّعا   على البحر يستحيي لصولتها البحر
إذا جهلوا «مينا» و«خوفو» و«كفرعا»   فليس «برمسيس» على ملكه نكر
وإن أنكروا مُلْكَ «ابن يعقوب» بيننا   «فموسى» على ما أنكروا شاهدٌ بَرّ
لنا كلّ ما فى الأرض من مدنية   بها تعمرُ الأمصار والبلد القَفْر

***

جزى الله مصراً ما جزى أهلَ نعمةٍ   على الناس يَعْيا دونها العَدُّ والحَصْر

فكم كشفتْ من ظلمةٍ «عينُ شمسها» فما ثَمَّ سهلٌ لا يضئُ ولا وَعْر
لنا فى الورى حقُّ المعلّم لو رعَوْا لنا ذِمَّةً والدهر شيمتُه الغدر
فهل يُنكر اليونان أنا هُداتهمْ إلى حكمةٍ فى العالمين بها برّزوا
وهل نَسِي الرومان للنيل أنعماً بما ورثوا منها سما لهمُ الفخر
فنحن الأولى قد أورثوا كلّ أمةٍ من الفضل ما يغْنى به الحمد والشكر
إذا اعتزّ قومٌ بالجديد سمتْ بنا مكارمُ فى طيّ الزمانِ لها نَشْر

الوحدة بين العنصرين

وقال يشيد بالوحدة بين عنصرى الأمة :

بنينا على آداب عيسى وأحمدٍ منازلَ عزٍّ دونها يَقع النّسر
فنحن على الإنجيل والذِّكر أمة يؤيّدها الأنجيلُ بالحقّ والذكرُ
لنا كل ما فى مصرَ والحقِّ قائمٌ تؤيده الآيات والحجج الغرّ
فلن يستطيع الدهر تفريقَ بَيْنِنا وان جرّ قوم بالسّعاية ما جرُّوا
كلانا على دينٍ به هو مؤمن ولكنَّ خِذلان البلاد هو الكفر
إذا ما دعتْ مصر ابنَها نهض ابنُها لنجدتها سيَّان مرقس أو عمرو
ترى ذكرَ مصرٍ فى الهيا كل قُربةً وفى صلوات المسلمين لها ذِكر
فلا يحسبنّ الناس أنّا تزلزلتْ بنا قَدَمٌ أو مَسَّ وَحدتنا الضرّ
ألمْ ترنا فى كلّ عيد ومَوْسم حليفَىْ ولاءٍ لا جفاءٌ ولا هجر
إذا كان عيد الفطر فالكل مُفْطِر يهلّل بالبشرى ويزهو به البِشر
وإن جاء بالنيروز يومٌ تزاحمت عليهمْ به الأفراحُ وانتعش القطر

فياعيدَ أهلِ النيلِ عِدْ أهلَك المنى ... تجلّى منارُ الحق وانبلج الفجر
وصافحْ بشعبَيْك السعادةَ مُقبلاً ... بمصر على الأفراح وليَقل الشعر :
تلاقت أمانينا على خيرِ غايةٍ ... وسارت بنا الآمال يقدمُها النصر

ثورة الأمة سنة ١٩١٩

ومن قصيدة أخرى أنشدها فى حفلة لعقائل السيدات فى مسرح برنتانيا سنة ١٩١٩ :

مصرُ أمّى ، فداء أمى حياتى ... سلمتْ أمُّنا من العاديات(١)
يا رياح الحياة فى مصرَ هُبّي ... روِّحينا بطِيب ريّا الحياة
يا سماء الحياة فى مصر جودِى ... أنفُساً فوق نيلها صاديات(٢)
ما لأمّ الأمصار حمّلها الدهـ ... ـر صنوف الآلام والمُوجِعات ؟
ما رعى ذمةً لها يوم كانت ... زينةً فى عصوره الخاليات
إن تناستْ قديمَ مصرَ ليالٍ ... أنـكرت صالحاتها الباقيات
فاسألوهن عن حديثٍ حديثٍ ... لبنيها عَدُّوه فى المعجزات
دَهِش الناس يومَ قيل صحتْ مصـ ... ـرُ وكانت فى غَفْلة وسُبات
إذ لقينا الخطوبَ وهى شدادٌ ... فتولّت جموعُها مُدْبِرات
وركبنا متنَ الزمان ذَلولا ... فمضيْنا لغاية الغايات
بين شِيب بالحزم تحدو شبابا ... صادقى العزم ثاقبى النظرات

---

(١) العاديات : الأحداث والنوائب .
(٢) صاديات : عطشى .

دور المرأة فى الثورة

وقال يشيد بدور المرأة فى الثورة :

وغوانٍ سمعن داعىَ مصرٍ بين تلك القصور والغرفات
أفزعتْهنّ حادثات الليالى فى بنيهنّ بالرّدى راميات
فترامين من وراء خدور كنّ فيها البدورَ مختدرات(١)
سافراتٍ ولسنَ أهلَ سفور حاسراتٍ من شِدّة الحسرات
وكتبْن الوفاء للنيل عهدا فى قلوب بحبّه داميات
وتواصين لا يضيّعن دِينا أو يعطّلن سُنّة المؤمنات
إيهِ . لله سعيُكنّ جميلا يا بناتِ الأنجاب والمنجِبات
ظلموا النيل يوم عدّوا بنات النّـيل جهلا فى زُمرة الجاهلات
زعموهن بالحجاب عن العـلم ونور العِرفان محتجبات
بنتُ مصر كالشمس يحجبها الليـل وراء الآفاق والظلمات
وهى فى أُفْقها ضياء ونور ساطع فى بدورها النيّرات
أوْ هى المسك ينفُذ العَرف عنه من وراء الأستار والحجُرات
عرفتْ كيف يكبُر المرء طفلا كيف يقفو أباه فى المكرُمات
أبصرت منبِتَ المحامد فيه فتولّتْه بالتُّقى والأناة
وغذَتْه المجدَ الذى ورِثته عن كرام الآباء والأمهات
يا ابنة النيل أنتِ للنيل ذخر خالد فى آثاره الخالدات

---

(١) مختدرات : مستترات فى خدورهن .

وثبة مصر

ومن قصيدة له سنة ١٩٢٠ يصف وثبة مصر :

تــكلّمَ وادى النيل فليسمع الدهرُ وأملَى على الأيام فليــكتب الشِّعْرُ !
لحسبُ العوادى نَهْمَةُ النيل زاجراً وحسبُ الليالى أن يُقال صحتْ مصر (١)
صحتْ بعدما أزرَى بها الصبرُ والأنى (٢) ويا ربمــا أزرى بصاحبه الصبر
لعمْرك ما صبرُ الأبىّ مهانةً ولــكنّ صمت الليث يعقبه الزأر
فلا تحسبوا أنّا وَنَيْنا عن العلا ولا زَهِدتْ فينا مناقبنا الغرّ
ولا أنــكرتنا شمسُ جيل ولا انطوى لنا عَلَم بين الدهور ولا ذكر
وفى الناس من شابت قرون «وأعصر» وهُمْ فى بطون الغيب عرفانُهم نكرُ
وهل مصرُ إلا آية أزليةٌ مقدّسَة والنيلُ فى لوحها سطر
تفلّقت الأجيال حول وجودنا ونحن الجبال الشمّ والزهر النضر
لئن كان ماضينا فخاراً فإنما بحاضرنا تعلو المحامدُ والفخرُ
وَقفنا لرَيب الدهر حتى تغلّلتْ مضارُبه وانشقّ عن ليلة الفجر
حرامٌ علينا أن نعيش أذِلةً وذو الذل أولى ما يكون به القبر !

***

(١) النهمة : الصوت .
(٢) الأنى : الأناة .

فظائع الإنجليز فى قمع الثورة

وقال حين اشتد عدوان الإنجليز فى قمع الثورة سنة ١٩١٩ وفتكوا فى طريقهم ببعض القرى كالعزيزية والبدرشين :

يامصرُ ما بال الأسى لك حالًا   لو أنَّ مفجوعا يردّ سؤالا
ظلم الزمانُ بَنِيَّ فى أحداثه   وعدا عليهم بالخطوبِ وَصَالاَ
يا ناشرِى عَلَم السلامِ ، ألم تَرَوْا   للسِّلم فى أرجاء مصر مجالا ؟
ما العدل ؟ ما حريةُ الأمم التى   سارت رسائلكم بها أرسالا ؟
ماعهد(ولْسُن[1])أين ولسن هلْ درى   أنّا بمصر نكابد الأهوالا ؟
أَمِنَ العدالة عنده أن يُبتلى   شعبٌ يريد بأرضه استقلالا ؟
سفراءَ (ولسن) هل لكم أن تُبلغوا   عن مصرَ صوتاً بالشَّكاة تعالَى ؟
صرخاتُ أهل النيل منْ أحلافكم   طارَ الزمانُ لوقعها إجفالا ؟
أضحت شعوب الأرض فى بُحبوحة   يتفيئون من السلام ظلالا
وهُمُ أحق العالمين بوِرْده   صفواً وشربِ رحِيقِه سَلْسالا
لكنهم سِيموا الردى فتواردوا   شِرَعَ[2] المنايا مُسرِعين عجالا
تَعِسوا بحكم الإنجليز وطالما اعـ   ـتمدوا عليه وخادعوا الآمالا
ما بال أبناء الحضارة أوْغَلُوا   فى أرض مصر نكايةً ونكالا

---

(١) ويلسن : الرئيس الأسبق للولايات المتحدة الأمريكية . ويريد بعهده مبادئه المشهورة التى أعلنها عند دخول أمريكا الحرب العالمية الأولى وأساسها احترام حرية الشعوب واستقلالها .

(٢) شرع ، جمع شرعة وهى المورد .

وَثبوا على القطرين وَثبةَ قاهر هَتك الستورَ ومزَّق الأوصالا
نزلوا بأرض النيل منزلَ غادرٍ نصب الخداعَ حبَائلا وحِبالا
حلفوا لأهل الأرض حِلفة فاجرٍ لبِسَ المسوح مُرائياً محْتالا
أن يبسطوا ظِل الحضارةِ فوقه ويعلِّموا من أهله الجهّالا
حتى إذا ملكوا أزِمَّةَ أمره ساموا بَنيه الضَّيمَ والإذْلالا
واستنزفوا ثمراتِ مصرَ كأنما خُلِقت لهم ثمراتُها أنْفالا
فاذا بدَا وجه الخداع وأشرقت شمسُ العدالة فى الورَى تتلالا
نَغضوا(١) رءوسهمُ لغيْلة أمة خُلِقت تعافُ الغادرَ المغتالا

شجاعة المصريات فى الثورة

وقال فى هذه القصيدة يصف شجاعة النساء المصريات فى مقاومة الإنجليز :

تلك العقائل يرتمين مع الظُبا مستقبلات للردى استقبالا
تُغْضى عيون بنى البلاد مهابةً من حولهِن وتنحنى إجلالا
وأرى ابن لندن نحوَهن مصوِّبا بيضَ الظبا متوثبا مجتالا
يابن اللَّكيعة(٢) إنهن عقائل يَفْدِين من فتكاتك الأنجالا
يابن اللكيعة إنهن عقائل يسألْن حقا لا يرُدْن قتالا
يابن اللكيعة ماحملن صوارما لبنى أبيك ولا دعون نِزَالا
أبناؤهن إذا الأصول تقارعت كانوا الكرامَ وكنتمُ الأنذالا

---

(١) نغضوا رءوسهم : حركوها وهزوها .
(٢) اللكيعة : اللئيمة .

يابن السكينة تلك سُبَّتك التى صدع المقطمَ خزيُها فأمالا
وارحمتاه لقرية مفجوعـــة والليلُ يُرخى فوقها أسدالا
محزونة خَبَأَ القضاء لأهلها تحتَ الظلامِ وَقيعةً ونَــكالا
من غادة غال البغاةُ عفافها فبكى الحجابُ عفافها المغْتالا
ومصونة فى الخِدرِ طار بلبها صيحاتُ كلب فى الحظيرةِ جالا
ماذا أرى ؟ جِنٌّ أحاط بمضجعى أمْ تلك أحلامٌ تَمُرُّ خيالا ؟
ما هذه الجلَبات ؟ لا أدرى لها معنى ولست أعِى لهُنّ مقالا
أنا لست نائمة ؟ وهذى جِنة (١) تدنو كأعجازِ النخيل طِوالا
ويلاه ! ما لأبى عَليٍّ نائماً ؟ والبيتُ من وَقع الحوافر زالا
أعلىُّ نادِ أباك ، لا ، أنا خائف يا أمُّ لا تتــكلمى ؟ لا لا لا
هذِى جنود الإنجليز رأيتها (بالبدرشين) تقتّل الأطفالا
صاحوا بصحن البيت صيحة فاتك عاتٍ يرى النفسَ الحرامَ حلالا
فإذا متَاع البيتِ يُنْهَب بينهم وقد استحلوا نَهْبَهَ استحلالا
ولرُبَّ دار بالقنابل أصبحت قبراً تضَمَّن نســوةً وعيالا
وأبٍ تحيط به هنالك صبيةٌ تبكى عليه وتُكثِر الإعوالا
ظُلْماً تَشُول به القنابل فهو فى جوِّ السماء مع القشاعِم شَالا (٢)
يارَبّ ، إنَّ الإنجليز تعمدوا إرهاق مِصر سفاهةً وضلالا

---

(١) جنة : جن.

(٢) تشول : تعلو ، والقشاعم : النسور .

يارَب ، مصرُ بكَ استجارضعيفها ... في عَبْرَة تُذْرِى الدموعَ سِجالا
فأذِقْ عدوَّكَ سُوءَ ما مكروا به ... واجعل عواقبه عليـــــهِ وَبالا

يخاطب مؤتمر الصلح بباريس سنة ١٩١٩

ومن قصيدة له أنشأها حين اعتقل سعد زغلول لأول مرة في أوائل سنة ١٩١٩ ، يذكر الثورة ويعاتب مؤتمر الصلح في إهماله مطالب مصر :

يا دماء الشباب تجرى على الأر ... ضِ جِسادا(١) به ثَرَى مصر يُطلى
ما لباريس لا ترى أهلَ مصرٍ ... بين أهل السلام للعدل أهلا ؟
كل شـــــعب له بمؤتمر الصلـ ... ـح نصير من البعوث ومولى
ليت شعرى فهل أتاه كتابٌ ... أو تلَقى من جانب النيل رُسْلا ؟
أو دَرَى أننا نُراد اختلاسا ... في بياض النهار والشمس تُجلى
ســــفراءَ الملوك ، ضجة مصر ... حولكم من زمازم(٢) الرعد أعلى
كم رفعنا إليكمُ في شكاةٍ ... حُجَّة كالصباح أوْ هي أجلى
وســـــألناكمُ البلاغَ فلم نسمـ ... ـع جواباً يَردّ في الغِمد نصلا
إنَّ للنيـــــل ذمةً وعهوداً ... هيَ دَينٌ عليكمُ ليس يَبْلى
لو حقَنْتم تلك الدماء اللواتى ... أهرقتها بنادق القوم سَيْلا
كان سهلا عليكمُ أن تصونوا ... أنفساً ، وِرْدُها الردى كان سهلا

---

(١) الجساد (بالكسر) : الزعفران .

(٢) الزمازم ، جمع زمزمة ، وهي الصوت البعيد المدوى .

يندد بفظائع الإنجليز فى إخماد الثورة

وقال فى هذه القصيدة موجها حديثه إلى المارشال أللنبى الذى عهدت إليه بريطانيا قمع الثورة :

أيها القائدُ المُدِلّ علينا ... قاتلَ الله مَن علينا أدلاّ
صَلَفٌ بين أهل مصرَ وعُجْبٌ ... كان هذا بأرض (بلجيك [١]) أولى
صَلَف جدَّ فى مواطن هزل ... فإذا جد جِدّها عاد هزلا
علم الناس أن مصرَ بلادٌ ... لم تكن للحروب والسيف قبلا
منعتها الأيامُ حمل المواضى [٢] ... وهى زَيْنُ السيوف هزاً وحملا
فلِمَ الكبرياء بين أناس ... تركتهم حوادث الدهر عُزلا ؟
أيها القائد الذى حيَّر السيـ ... ـف بدار الأمان [٣] شَيماً وسلا
علِّم الخيل كيف تحتال فى غيـ ... ـر بلاد ولم تُجِزْ للحرب خيلا
إنما يحمدُ المَخيلةَ [٤] يومٌ ... أشرف الموتُ فوقه أو أطلا
ما لمصرٍ تُجْزَى جزاءَ سنمارَ ... لديكم وبالدنيّة تُبلى
وأراكم لولا بنوها سُقيتم ... من حياض المنون عَلا ونَهلا
سائلوا الشامَ هل بغير بنينا ... جُبتُم الوعرَ من فلسطين سَهلا

---

(١) يشير إلى هزيمة الحلفاء أمام الزحف الألمانى فى بلجيكا إبان الحرب العالمية الأولى .

(٢) المواضى : السيوف .

(٣) الشيم : اغماد السيف .

(٤) المخيلة : الكبر .

أو مددتم بغير أبنـاء مصر في بلادِ العراق للفوز كَهْلا
إبْلُ مصر وأتنها(١) تعرف الفضـ ـل عليكم ، لا تنكر العُجْمُ فضلا
لو درى النبـل ماسيلقى بنوه حَرّم الأرضَ غيرةً أن تُغلا

كم ظفِرتم منه بمـا عجز (التا ميز) عنه وناء بالعبء حملا
كلَّ عام تجبى إليكم حبوبٌ تفضخ الجاريات وزْناً وكيلا(٢)
وقناطيرُ من نضـار يوافيـ ـكم بها القطنُ كلَّ عام أهَلَّا
نِعَمٌ لو أردتمـوهن شكراً ما وفيتم منهـا القليلَ الأقلاَّ
ما جهلتم لمصرَ فيهـا صنيعاً إن تقولوا قد يُنكر الفضلُ جهلا
ألسيتم لمصرَ ما منحتـكم من هِبات ما جاوزت بعدُ حولا
أم نسيتم أبناءها يفتك المو تُ بهم في الوغى وباءً وقتلا

وختمها بقوله :

معشرَ الإنجليز مصر لأهليـ ـها ومن ظن غير ذلك ضَلّا
معشرَ الإنجليز مصر أستقلت وجديرٌ بالنيل أن يستقلا

يخاطب مؤتمر الصلح أيضاً وينادي بالاستمرار في الكفاح

ومن قصيدة أخرى له سنة ١٩١٩ يخاطب مؤتمر الصلح بباريس، وينذر بالاستمرار في الكفاح إذا لم تجب مطالب مصر :

أباريسُ إن كانت لضيفٍ كرامة لديك فضيف النيل أبلغُ من يُثْنِي

(١) الأتن : الحمير ؛ والعجم : البهائم ...
(٢) الجاريات : السفن ؛ وتفضخها : تكسرها لثقلها وكثرتها .

أباريسُ إن تُدنى العدالةُ وافداً ... عليكِ فأهلُ النيل أكرمُ من تدنى
أباريسُ كم للنيل عندك من يد ... تَناقلها التاريخُ قرناً إلى قرن
ومن شُكرها أن تعرفوا حق أهله ... وألا تسُوموا (وَفْدَهُ) صفقة الغبن
حرامٌ عليكم أنَ يراق له دم ... حرامٌ وأنتم قادرون على الحقن
فيا أمراء الغرب دعوة مُسْمع ... يُصرّح فى رفع الشكاةِ ولا يكنى
سلوا حِلْفكم عما جرَى فى ديارنا ... وما جرحوا مما يَشين وما يضنى
وما هـذهِ الغارات يعلو صريخها ... مؤججةً، هذى ترُوعُ وذِى تُفنى
وما هذه الأجسادُ فى كل بلدة ... مُصرَّعةً فوقَ التراب بلا دَفن
إذا طفح الخزَّان من دم أهله ... فَثَمَّ دمٌ فى الثغر يُربى على الخزَن
نَرى الحرب فيما بينكم جنَّ عودها ... فما بالها فى مصرَ ناضرةَ الغصن ؟
على غير ما ذنبٍ جنينا فما لنا ... نُسَامُ الدنايا لم نحاربْ ولم نَجْنِ
فيا عجب شعب يساق بأرضه ... أسيراً إلى دار المذلة والسجن

***

ملوكَ الوَرَى، لن يتركَ النيل حقه ... ولو مزَّقونا بالمثقفة اللُّدْن(١)
ملوكَ الوَرَى، لن يتركَ النيل حقه ... ولو طحنوه بالمقذَّفة الدُّكْن(٢)
ظننا بهم خيراً من الدهر حِقْبة ... فـكانت قصارانا بهم خيبةُ الظن
صبرنا وأشهدنا الأنام عليهم ... إلى أن رَمَونا بالمهانَة والجبن
ثلاثين عاماً بعدها سبعة خلت ... طوال الليالى السود حالـكة الدجن

---

(١) يريد بالمثقفة اللدن الرماح المقومة .

(٢) يريد بالمقذفة الرصاص والقنابل . والدكن : ما تضرب إلى السواد .

عواصفُ بأس ينشدها النيل تحتها   نقمتُ الرضا حتى على ضاحك المُزْن
سَقونا بهـا مرًّا من العيش آجنا   ويا ليتهم لم يرهقوا الناس بالمَنّ
فإن تُنصفوا أبنـاء مصر فمِنّةٌ   لـكم أبداً نُثنى عليها بمـا نثنى
وإلاّ رددناها عليهم كريهـة   وللدهر شأن لا يُقاس على شأن

رثاؤه لمحمد فريد

ولما جاء نعى الزعيم محمد فريد فى منفاه (نوفمبر سنة ١٩١٩) — وكانت مصر فى إبان الثورة — رثاه بقصيدة مؤثرة تفيض وطنية وبلاغة قال :

سَلُوا جفنَ عينى ماله بات ينزفُ   وعهدى به إن سُمْتَه الدمعَ يأنفُ
ويارُبَّ همٍّ يملك النفسَ بالأَسى   ويعدو على العين الجمود فتذرف
وما أنا ! ما دمعى ! وفى مصر أَنَّة   بها الطير نوح والغمائم وُكَّف(١)
بكين غريباً طوَّح البينُ دارَه   فلا العَوْدُ مأمول ولا الدارُ تُعرف

***

وما أنـكرتْ مصرُ ابنها فنَبَتْ به   ولـكنه دهرٌ على الحر يُجْنفُ(٢)
نوى غربةٍ ، بعـد المعاد قرارُها   فيـا طول ما يستشرف المُتشوّف
وكنا حسبنا شُـقةَ البينْ تنطوى   فيأوى إلى مِرباعه المُتصيِّف(٣)
وأطمعنا فى الملتقى لمـعُ بارقٍ   من السِّلم فى ليل الحوادث يَخْطف

(١) وكف : مرسلات بمائها .
(٢) أجنف : جار وعدا
(٣) المرباع : المكان ينبت فى الربيع ؛ والمتصيف : المصطاف .

فلم نر سلماً ينتهى النأى عندها   بناءٍ ولا حتمَ الردى يتخلّف

***

بعينىَ من نادى مناديه للنوى   فوَدّع لا يأنِى ولا يتــوقّف
يُدافع آلاماً تياسرن قلبَــه   لها حُرَقٌ تُدمى القلوب فتنطُف
ففى قلبه ممـا دهى النيلَ زفرةٌ   يكاد لها من تحتــه البحر ينشَف
وفى عينه من لوعة البين عَـبرةٌ   يكفكفها كِبراً فلا تتـكفكف
وفى نفسه عُتْبَى على البـلد الذى   قسا أهلُه جهلا عليــه وأجْنَفو
برمتِ بنـا يا مصر لا عن جناية   يعُنّى عليها جارم أو يُعنّف
وكيف تناست مصر حسنَ بلائنا   إذ الدهر ألوى والحوادث تَعصِف
مواقفنا يا أمُّ فيــك شهودُها   تؤيدنا يوم العتاب وتُنصِف
رويدك نفساً أنـكرت فعل قومها   بذى حَدَب يقْسى عليه فيرأف
على رغم قومى ما لقيتُ وإنمــا   هو الدهر فى أحكامه يتعسَّف

***

سلامٌ على قومى ، وداعاً بنى أبى   وللنيـــل ما ألقى وما أتـكلف
ويا موقفَ التوديع هل تُسعد المنى   فيجمعَنا يومٌ بمصر وموقف
أخاف المنايا أن يكنّ رواصداً   ومالىَ من أسبابهـا أتخـوّف
تحدثنى طــيرٌ جرَيْنَ بوارحاً   بأن المطايا بى إلى الموت تزحف
ويحزننى وِرد المنــايا ولم تزل   بلادىَ تحبو فى الإسار وترسُف
حرامٌ علينـا أرضُها وسمــاؤها   أليّــةَ(١) من لا يمترى حين يَحلف

---

(١) الألية : القسم .

ويا فُلْكُ باسم الله مجراك أقلعى ... فإما الرَّدَى أو يُنصف النيلَ مُنصفُ
فما كان إلا أن طوى البحر والثرى ... وحجَّبه سترٌ من الغيب مُسجَف(١)
فدون تلاقينا ليـــال وأشهرٌ ... وبين ديارينا جبال وصَفْصفُ(٢)

***

هنا لك ألقى فى بنى الغربِ رحله ... على همة من همّها الدهرُ يَـكْلَف
بعيـــد المرامى لا تهـــد صفاتَه ... عوادٍ إذا صبّت على « الألب(٣) » تحْرَف
تقذّفه فى زاخر اليأس همة ... جدير بها الليث الهصور المقذَّف
وهيهات أن يخشى أخو الحق قوةً ... سوى الحق أو يعنو لبأس فيضعُف
ثوى فى بلاد الغرب بالنيل عاتباً ... وفى الغرب للعانى مَراد ومألف
يصرّف أحداث الليالى غواشماً ... وأنيابُها من شدة البأس تَصْرِف
فطوراً تراه فى « جنيف » لباسُه ... على القرّ أسمال به يتلقف
إذا صَفِرت من ذات دنياه كفُّه ... تجلّد لا يشكو ولا يتأفّف
ويأوى إلى بيت وطيء عمادُه ... وفى مصرَ يبكيه البناء المطنَّف
ويكنفه من فتية النيلْ أنجمٌ ... بهم نعتلى هامَ الفخار ونَشرف
إذا احتدمت للبأس نارٌ فعلْهَمٌ(٤) ... على البأس ماضٍ ذو غرارين مُرْهَف
وإن ذُكر المجد القديم فإنما ... بذكرهم تلهو القِيان وتعزِف

(١) أسجف الستر : أرسله .
(٢) الصفصف : الفلاة .
(٣) جبال الألب المشهورة .
(٤) العلهم : الضخم العظيم .

إذا ما انتمى قوم لدُنيا جدودِهِم نَمَتْهم لعُلياها معدٌّ وخِندف(١)
وإن ذكروا أبناء فرعون رجَّعت مناقبَهم ورُقْقٌ من الفخر هُتَّف

***

فيا مُسمعَ الأحرارِ من كل أمة مُنَى قومه والحرّ للحر يُنصف
لقد فجع « الفسطاطَ » فيك وأهلَه من الغرب ناعٍ قام باسمك يهتف
لقد فجعونا فيك يوم تتابعت رسائلهم بالموجعات وأرجفوا
فيا ويح يومٍ قال فيه غريبها على فُرُش البلوى ببرلين مُدنَف
بروحىَ إذ جاء الأطباء خُشَّعاً وقاموا بأكناف السرير وطوَّفوا
يعلّله بالقول منهم مُبشِّرٌ وتبكى له منهم قلوبٌ وتُرجف
تَجوَّفه الداء العضال وهل نجا من الموت مُضنًى داؤه يتجوَّف
قضى الله أن يُسْقَى « فريد » بأرضنا كؤوساً بالاستسقاء للنفس تخطِف
يعز على « برلين » أن يغلب الردى عليك بَنيها ، والردى ليس يُصرَف
أطباءه : لو يستطيع فداءه بنو مصر غَالوا فى الفداء وأسرفوا
قليلٌ عليه لو يُفدِّيه قومه بما جمعوا من تالدٍ أو تَطَرّفوا
فليتَ الليالى سالمت فيه أمةً براها الأسى من بعده والتلهف
عرفنا له بِرَّ الوفىّ بعهـــدها إذا خان قومٌ عهدَ مصر فلم يَفُوا
أفاض عليها نفسه بعد ماله ومالَ بهم عنها متاعٌ وزُخرف
ولولا رجال مؤمنون نَجَوْا بها لراحت بها ريح من الغدر زَفْزَف(٢)

---

(١) معد وخندف حيان من العرب ؛ يريد أن أصولهم عريقة فى النسب والشرف .
(٢) زفزف : شديدة الهبوب فى دوام .

يندد بالفرقة والانقسام ، ويدعو إلى الوحدة

وحين حدث الانشقاق فى الوفد سنة ١٩٢١ وقام الخلاف بين سعد وعدلى وانقسمت الأمة تبعا لذلك ، نظم قصيدة يندد فيها بالفرقة والانقسام ، ويدعو إلى توحيد الصفوف قال فيها :

كنا أشقاء الإخاء فما لنا ... صِرْنا بنى العَلاَّت والأخياف(١) ؟
بالأمس كان إخاؤنا مثلا وكنا زينة الخلطاء والأُلاَّف
كنّا إمامَ المَشرقين ، سبيلُنا ... قَصْدٌ ومشْرعنا نميرٌ صافى
يترسمون على الحياة طريقنا ... للحق فى الإيضاع والإيجاف
فإذا بنا جارت هَوَادى رَكْبنا ... عن منهج الآباء والأسلاف
عَبثتْ بوحدتنا الخطوبُ وأعملت ... فى غَرْس أيدينا يدُ الإتلاف
والخصم يحجل بيننا للشر فى ... ثوبين ثوب مُوافق ومنافى
مُتنمرّ يُغرى العداوة بيننا ... بالكيد والتفريق والإرجاف
أوَليس فيما قد مضى من عِبْرة ... لبنى أبى ، والأمْرُ ليس بخافى ؟
أوَ لم يَرَوْا أو يسمعوا نُذُرَ الردى ... تَطْوى إلينا لُجةَ الرَّجّاف(٢)
هـذى تُلوِّح بالوعيد وتلك تر ... مينا به فى لهجة الأَجلاف(٣)
جعلوا صحافتهم مظاهرَ كيدهم ... فتزاورت جنفاً عن الإنصاف

(١) العلات : جمع علة ، وهى الضرة . والأخياف : الذين أمهم واحدة وآباؤهم شتى .

(٢) الرجاف : البحر ؛ سمى به لاضطرابه .

(٣) الأجلاف : جمع جلف ؛ وهو الرجل الجافى .

صحف يضيع الحق فى ألوانها صوراً يزيد بها على الآلاف
الحق فيها كل ما شاء الهوى حُكْمٌ تؤيده بلا استئناف
فليعتبرْ قومى كفى ما قد جرى من ذات خلف بيننا وتنافى
لا تُوجِعوا تلك القلوبَ فحسبها جام أصاب من الزمان الجافى
عشر كواملُ فى الخلاف فهل بها من ذلك الداء المبرّح شافى
شربت من الأيام كل مرنَّق من كل مر بالخطوب زُعاف
أبنى أبى ، ردوا القلوب إلى الهدى وتنبهوا فالدهر ليس بغافى
الوفد منا والحكومة بعضنا هذا أخو هذا بغير خلاف
والشر غايته البوار ومن أبى فالله للشعب المروَّع كافى

***

أحمد زكى أبو شادى

ولد سنة ١٨٩٢



هو الشاعر المجدد ، والأديب الحر المفكر ، الدكتور أحمد زكى أبو شادى .

ولد سنة **١٨٩٢** بالقاهرة ، من أسرة عريقة فى الوطنية ، وأبوه المرحوم محمد أبو شادى أحد كبار المحامين الذين نالوا المكانة الرفيعة فى عالم المحاماة وممن جاهدوا فى الحركة الوطنية ، ووالدته السيدة أمينة نجيب من السيدات الأديبات الشاعرات ، وكان أخوها المرحوم مصطفى نجيب[1] أديباً وطنياً وصديقاً و نصيراً للمرحوم مصطفى كامل .

أتم دراسته الابتدائية ثم الثانوية فى المدارس المصرية ، وظهرت مواهبه الشعرية والأدبية فى هذه المرحلة من الدراسة ، وكان من تلاميذ مصطفى كامل فى الوطنية ، ودخل كلية الطب بالقاهرة ، ولم تصرفه الدراسات الطبية والعلمية عن الاستمرار فى دراساته الأدبية ، فأحب الشعر وتذوقه ، وأقبل على نظمه وهو فى هذه السن المبكرة ، وشعره رقيق ممتع ، يمجد الوطنية وينزع إلى الحرية والتجديد والخروج على الأساليب القديمة ، واحتفظ بهذا الطابع على تعاقب

---

(١) والد الأديب الأستاذ سليمان نجيب .

السنين ، وأكمل دراسته الطبية فى انجلترا ، وتعمق فى الآداب الإنجليزية إلى جانب دراسته من قبل للآداب العربية ، وازداد تعلقاً بالتجديد فى الأدب والشعر ، ولما عاد إلى مصر تنقل فى مناصب الحكومة وصار أستاذاً للبكترولوجيا بكلية الطب بجامعة الإسكندرية ومديراً للمعمل البكترولوجى بالمستشفى الحكومى بها .

كان ولا يزال يصدر فى شعره عن إلهامه وعقيدته وإيمانه ، وفى ذلك يقول عن نفسه :

وهل كان شعرى غير إيمان مهجتى وعِشْقى وإحساسى ولَحنى المردَّد

وكون مدرسة أدبية تزعمها ترمى إلى الثورة على القديم والدعوة إلى الحرية فى الفكر والأدب والفن ، وكان لهذه المدرسة مجلة أدبية تسمى مجلة (أبولو) الشعرية الأدبية ، أصدرها أبوشادى فى القاهرة سنة ١٩٣٢ وكانت ندوة لأنصار الجديد من الشعراء والأدباء ، وتكاد تكون المجلة الشعرية الوحيدة التى ظهرت فى العالم العربى ، وقد استمرت نحو ثلاث سنوات ثم احتجبت .

وقد صادف أبوشادى فى حياته الحكومية والأدبية عنتا وأذى من رؤسائه وأنداده ، واستهدف من أجل نزعته الحرة لشتى ضروب المناوأة ، فاعتزم الهجرة من مصر ، وهاجر فعلا إلى نيويورك فى سنة ١٩٤٦ ، وهناك رحبت به الدوائر الأدبية والعلمية ترحيباً عظيما ، وأخذ ينشر فى الصحف والمجلات العربية والأفرنجية فى أمريكا ثمار أدبه وشعره ، ونفحات آرائه وأفكاره ، كما أخذ يذيع من « صوت أمريكا » مرتين فى الأسبوع ، وأسس فى نيويورك (رابطة مينرفا) الشعرية الأدبية على غرار (جمعية أبولو) وقدرته الحكومة الأمريكية والجامعات والمعاهد والمؤسسات الثقافيه فى العالم الجديد ، وانتخب أستاذاً

للأدب العربى بمعهد آسيا بنيويورك ، وهو يتولاه إلى اليوم[1] بجدارة تفخر بها مصر ، ويعد أبو شادى رائداً من رواد النهضة الأدبية والفكرية الحديثة ، وهو رغم هجرته إلى العالم الجديد دائم الصلة بوطنه بواسطة الصحافة فى أمريكا وفى مصر ، وبواسطة مريديه وتلاميذه الممتازين الذين اقتبسوا من روحه التقدمية وتعلقه بالحرية وإيمانه بما يقول ويكتب .

وهو فى أحاديثه ومحاضراته لا يفتأ يذكر مصر ويناضل عنها ويحن إليها ويشيد بها وبعلمائها وأدبائها وكتابها وتاريخها ، وهو فى غربته خير سفير أدبى لمصر فى العالم الجديد .

وله عدة دواوين من الشعر نحى فيها منحى التجديد والابتكار . وحلّق فى سماء الفن والخيال والسمو الفكرى .

نذكر منها ديوان « أنداء الفجر » وهو أول دواوينه ومختارات من نظمه سنة ١٩١٠ . و « أنين ورنين » وهو صور من شعر الشباب . و « الشفق الباكى » وقد ظهر سنة ١٩٢٤ . و « الينبوع » . و « أشعة وظلال » وقد نشر سنة ١٩٣١ . و « أطياف الربيع » . و « فوق العباب » وقد طبع سنة ١٩٣٥ . و « عودة الراعى » وقد ظهر سنة ١٩٤٢ .

ومن آخر دواوينه « من السماء » وقد ظهر فى نيويورك سنة ١٩٤٩ ويضم معظم شعره من سنة ١٩٤١ إلى سنة ١٩٤٩ .

هذا ما عدا ما أخرجه من الكتب والمؤلفات والقصص والمسرحيات .

رثاؤه لمصطفى كامل

قال من قصيدة له فى فبراير سنة ١٩٠٨ ، وكان ما يزال طالباً بالمدرسة الثانوية يرثى مصطفى كامل :

(١) وقت ظهور الطبعة الأولى من هذا الكتاب سنة ١٩٥٤

يا مصر حلّق طيرُ اليأس في أفق　　داج بأحزان شعب كان ساليها
مات الرئيس فماتت بعده همم　　قد كان نبراس فكر منه يجليها

إلى أن قال :

سارت به أمة أحيا مداركها　　حتى إلى القبر وارت فيه حاميها
ودّت لو أن صروف الدهر تأتيها　　وتلكم النفس هذا الشعب يفديها
والكلّ يلبس ثوبا للحداد أسى　　على الفقيد وما من ثمت يهديها
أبصارها نكست من فوقها كتبت　　عبارة كان صدق الحس يمليها
يامصر الفتاة مرور العمر تذكره　　لروحه لم تزل تعدو أمانيها

مفخرة رشيد

وله في سنة ١٩٢٥ قصيدة وطنية من نيف وستين بيتا ، نظمها تمجيداً لذكرى معركة رشيد التي وقعت يوم ٣١ مارس سنة ١٨٠٧ بين المصريين والإنجليز وفاز فيها أبطال رشيد على الجيش البريطاني الذي زحف على مدينتهم يريد احتلالها ، فصمدوا له وقابلوه في الشوارع واستبسلوا في الدفاع عن مدينتهم حتى صدوه عنها وهزموه وارتد عن المدينة بعد أن فقد في المعركة ١٧٠ قتيلا و ٢٥٠ جريحاً و ١٢٠ أسيرا[١] ، وكانت هذه المعركة حقاً مفخرة لرشيد وأشاد أبو شادي أيضاً في قصيدته بالمعركة الثانية التي وقعت في (الحماد) وانتهت كذلك بهزيمة الجيش البريطاني .

(١) راجع في تفصيل معركة رشيد كتابنا (تاريخ الحركة القومية الجزء الثالث — عصر محمد علي)

قال :

رَوّحينا بأحاديث الجــلال ... وَبنَفْحٍ من هواهم غيرِ بالِ
وَاسْمَحِى (يا مصرُ) أن نُزجى لهمْ ... مُنْتَهى فَخْرِ رجالٍ برجالِ
ما عَرَفْنا قدرَنا إنْ لم نَحُزْ ... سِيرةً منهم تُغذّينا بحالِ
وبآمــالٍ لِآتٍ غالبٍ ... إنَّ آتى المَجْدِ من ماضى الخيالِ
خاطىءٌ مَنْ ظَنَّ ماضيه بلا ... مُرْشِدٍ يَهْدِى إلى غالى المآلِ
مانَما شعبٌ بلا جُهْدٍ مضَى ... وَتبَقَّى فيـه تَذْكارُ الفعالِ
هى أحلامٌ وَأعمالٌ بَنَتْ ... فى سنينٍ وسنينٍ كلَّ غالِ
هو مَهْدٌ وُلِدَتْ فيـه العُلَى ... بأناةٍ وكفـاحٍ ونوالِ
لم تجىءْ طَفْرَةَ جيلٍ لاعبٍ ... إنما جاءت على طُولِ الّليالى
كابرٌ عن كابرٍ قد صانَها ... بمراعاةٍ وأخـلاقِ المعالى

إلى أن قال محييا ذكرى أبطال رشيد الذين صدوا جيش الغزاة المستعمرين :

رَوّحينا (مصر) مِنْ ذكراهمو ... تلكَ ذكرى عن بُلوغ لِمُحَالِ !
بلّغينا كيف أوْدَى عزْمُهمْ ... بصعابٍ قُمْنَ أقْسَى من جبال !
كيف هزُّوا قُوَّةً أكبرَها ... عالَمُ القوَّةِ والحربِ الضَّلالِ !
كيف ضَحَّوْا للرمال دَمهمْ ... فى دفاع العزِّ عن تلك الرِّمال !
كيف أفنَوْا من جُنودٍ صَوّبَتْ ... نحوهم أقوى مُعدّات القتال !
كيف كيف استبسلوا فى وَاجب ... وَأقاموا المُلكَ وضّاء الخلال ؟!

***

يا (رشيدُ) الذكرُ حيٌّ خالدٌ لعظيم الجُهْد معدوم المثالِ
أنتَ ثغرٌ ناطقٌ فى رَسْمِهِ حُرْمَةَ الماضين (للنيلِ) الزّلالِ

***

إلى أن قال :

مثلَ ماأذكى لها شُبانها فتحدَّوا خَصْمَهُمْ قبلَ السؤالِ
كالجرادِ نَشْرُهُمْ فيكَ على رَبَوَاتٍ يرقبون وتلال
فإذا العادونَ جاءوا ما بهمْ ثقةٌ إلا وضاعت فى مَلالِ
وأتتْ فرقهمْ فى نَشْوَةٍ عَنْكَ فارتدّتْ خيالاً فى خيالِ !(١)
بين قَتْلَى وَحيارى هربوا وَضحايا لإسارٍ وعقال
ثم جاءوا فى خميسٍ لجبٍ وعَوادٍ لم تكنْ جالتْ ببالِ(٢)
مِنْ متاريسٍ كَفَتْ رؤيتها لحسابٍ وَعتابٍ ونكالٍ !
وعديدٍ بين باغى مَدفَعٍ أسودِ الوَجْهِ وإمْدادٍ مُوَالِ !
وَأبَوْا إلا حصاراً هائلاً فدفعت الحَصْرَ دفعاً بالعوالى !
وَغنمت كلَّ ما كانَ لهمْ من شُموخ وَإباءٍ قبلَ مالِ
رحلوا رحلةَ جانٍ ضائع بئس يومُ الخُسْر من يوم ارتحالِ

***

(١) يقصد معركة رشيد .

(٢) يقصد معركة (الحماد) التى تقع جنوبى رشيد بين النيل وادكو؛ وقد وقعت فيها المعركة الثانية بين الإنجليز والمصريين يوم ٢١ إبريل سنة ١٨٠٧ ؛ وكانت أشد وأقوى من معركة رشيد ، وهزم فيها الجيش البريطانى أيضا هزيمة ساحقة ، انتهت بفشل الحملة البريطانية وجلاء الإنجليز عن الديار المصرية فى سبتمبر سنة ١٨٠٧ .

هكذا بالبأسِ تحيـــا أُمّةٌ لا بخوفٍ أو غُلوٍّ أو خَبالِ
هكذا بالوَحْـدَةِ الحسناءِ لا يعْدَمُ الإصباحَ أبنـاءُ الهلالِ
إنَّ شعباً يتحدَّى (انجلترا) فى مجالِ الحقِّ شعبٌ لا يُنالُ
وَبنيْن ينشـدون مثـل ما أحسن الآباء أوْلَى باكتمالِ
إنما الأمّــةُ من أفرادِها فى ثبــاتٍ ووفاءٍ ونِزالِ

إلى أن قال :

إيهِ قومى قُمْتُ فيكمْ ذاكراً (نافرين) الأمسَ فى مُشْجى المقالِ
وأنا اليـومَ طَروبٌ ذاكرٌ دُرَّة التاريخِ شعّتْ كاللآلى
فلنا كلتاهما عنـوانُ ما يحفظُ التاريخُ من غالٍ وحالِ
أىُّ مصرىّ درى ما لقّنَا منْ عظاتٍ ثمّ أضحى وهو سالٍ ؟
أىُّ جمْعٍ مِنْ خصالٍ حُرّةٍ لم تـكرّمْ جَمْعَ هاتيك الخصالِ ؟
أىُّ شعبٍ فى جلالٍ وسنىً يدّعى أنّا عبيدٌ ومَوَالٍ ؟
كُلُّنَا فَرْدٌ له أُمّتُـهُ حَظُّه بل قصْدُه فى كلّ حالِ
لأسباتٌ — هانَ أم طالَ بنا — ما يؤدّى بِعُلانا لانحلالِ
فى طلابِ المجد — أن تمضى بنا فترةٌ للهو أو دورُ انتقالِ
خابَ مَنْ ظنّ الرقادَ ميتةً كم أسودٍ رقدتْ تحت الظلالِ !

***

آن رَجْعُ الجِهْدِ قومى فانفضوا سِنَةَ اللّهو وهيّا للمَجالِ !
بسلاحِ العلمِ قبل السّيف قدْ صارتْ الحرْبُ أعاجيبَ اشتغالِ

ربَّ خيطٍ منْ نسيج القطن لا يبلغُ المدفعُ منه كفعالِ
علمُ فيـــه الفنونُ قوّةٌ والصناعاتُ ، وليستْ للجدالِ
عمــلٌ مُسْتَتْبَعٌ لا ينقضى لاقتصادٍ وانتفاعٍ واشتمالِ

***

أمّتى ! أحلَى دُعائى دعْوَةٌ لك مِنْ قلْبي بها أسمى ابتهالى ؟

رثاؤه لفريد

قال سنة ١٩١٩ من قصيدة له فى رثاء محمد فريد :

سلوا (برلين) عمن حل فيها يفتت كبده المرض العنيد
مضى يستوهب الأيام عمرا تتم به المســاعى والجهود
فلم يذهب بعلتـــه طبيب ولم يكتب له عمر جديد
وخرّ على السرير وحب مصر على تبريح علتـــــه يزيد
فيا لهفى عليك وأنت كهل غريب عن أحبته بعيد
تموت فلا ترى مثواك أم ولا أخت ولا زوج ودود
ولا يروى ثراك أخ شقيق بدمعته ولا طفل وليــــد

الحياة كفاح

قال سنة ١٩٢٣ من قصيدة له عن (المجاهد الجريح) يصف الحياة وأنها كفاح وجهاد :

شهدتُ من الدنيا المعارك والمُنَى تشوق الفتى نحو المعارك والخَطْب

فصرتُ كجنديٍّ جريحٍ مضمَّد يئن ولكن كم يحنُّ إلى الحرب
ويهرب من حكم الحجا فى وثوبه إلى ساحة الهيجاء والموقف الصعب
توالت جراحاتى وأوذيتُ دائما وهيهات أُتقى من سلاحى ومن دَأْبى

يدعو الشعب إلى مجاهدة الفساد

وقال من قصيدة له فى ديوانه (عودة الراعى) سنة ١٩٤٢ :

ياشعبُ قمْ وانشد حقو قك فالخنوع هو الممات
تشكو الغريب وعلة الشـــكوى الزعامات الموات

***

قد عمت الفوضى وقد دب الفساد بكل شىّ
فإذا سكنت فلن تُعبـــدَّ ولن يفى لك أىّ حىّ

***

ما دمت تقبل أن تـكـــون من الضحايا كالعبيد
سيسومُك القُـوَّام والأســـياد ألوانَ القيود

***

ياشعبُ كيف تطالب الغُـــرباء بالبرِّ السـخىّ
وتطيق مُلـكَكَ فى محا باةٍ وفى نهب وغىّ

***

هيهات يُعطى الحقَّ من ألف التهاون فى الحقوق

هذا هو العدل الصحيـــح وغيره عَيْن المروق

***

انهض وحاكم بائعيـــك إلى الهوى وإلى الفساد
أو متْ ذليلا لا يُقا س بذُلّه حتى الجماد

يودع مصر

وقال يودع مصر ويذكر أسباب هجرته فى قصيدة له عنوانها (لم ارتحلت ؟) :

سألونى لم ارتحلت ؟ كأنى لم أجبهم بسيرتى نصف قَرن
شادياً بالطليق من شعرى الباكى أغنى لمجـــدهم ما أغنّى
وحياتى لعزهم فى كفاح ككفاح الشعاع فى وسط دجن
مُثُل لن تحـد نوعا وعدا كنجوم السماء فى كل فن
وتبلغت بالعذاب وبالبؤس مرارا وكل حظى التجنّى
وكأنى وحدى المسىء بإحسانى لعصرى أو أنه لم يسعنى
ما كفاهم أنى أعانى وجودى فى وجود بقاؤه محض غبن
ما كفاهم أنى أواصل ليلى بنهارى لأجلهم وسط مَنّ
ما كفاهم أنى أضحّى بروحى حينما عز من يضحى ويفنى
ما كفاهم أنى تناسيت نفسى فوق نسيانهم حقوقى وأمنى
ما كفاهم أنى لهم ذلك الرائد يشقى كالراح فى أسر دن
ما كفاهم أنى ارتضيت شقائى لى جزاء ويهدمون وأبنى

ما كفاهم هذا وهـذا فنادوا بعقوقى وما رعوا حق سنى
ثم حالوا بين المثاليـــة العلـ ـيا لفكرى وبين شعبي وبينى
فترحلت حيث تحترم الأحرار وحيث الهواء طلق لذهنى
وأظل الوفىّ رغم اغترابى لبـــلادى ما غيبت قط عنى

القلب الباكى

ومن قصيدة نظمها فى عيد ميلاده عام ١٩٤٨ يناجى فيها الوطن قائلا :

يا مصر لولاك ما فارقت فى حرقى أزكى الجنان ، ولا عوقبْت ، لولاك
أهواك فى غربتى أضعاف ما سمحت به المقادير فى قربى ، وأهواك
ما العيد عندى عيد فى مباهجه أنا الغريب فعيـدى يوم ألقاك
على ســلام وفى حرية شملت لا أن أعود لأغـلال وأشراك
الثلج حولى أحنى فى تحرره على فؤادى من ضيم بدنياك
والنفى أسعد أيامى إذا فرضوا ذل الجبـــاه لمأفون وأفاك
يارُبّ مقترب فى حكم مغترب وضاحك كل مافى قلبـــه باك

الحنين إلى الوطن

قال يصف حنينه إلى الوطن وتعلقه به فى غربته :

نَفْيان : نفىُ مغرّب عن أمتى عانٍ ، ونفى معذَّب فى وحدتى
وحيالى الأفراح شتى مالهـا حدّ ، فلا ألقى النعيم بنعمتى
قالوا فررتَ وما فررتُ وإنما كافحتُ فى وطنٍ به حريتى

وضربت بالحرمان أمثالَ الهُدى · للعاملين وكم شقيتُ لأمتى
لم أُعن بالأشكال قدرَ عنايتى · بتمسكى بمبادئى فى ثورتى
حرقَ البخورَ لمن أذلّ بلاده · وحرقتُ فى إعزازها من مهجتى
وجعلتُ ماعانيتُ قربانا لها · وأظلّ فى سقمى وفى شيخوختى
وطنى ! رضيتك منصفاً فى قدره · جهدى وإخلاصى وغاية غيرتى

يتشوق إلى مصر

ومن قصيدة له فى حفلة أقيمت لتكريمه فى نيويورك سنة ١٩٥٠ :

تركتُ مصر وقلبى لوعة ولظًى · لجنّةٍ ضُيّعت فى نَوْم جنّان
فِدًى لها — لو أباحت — كلُّ ماملكت · نفسى وما وهبت فى حبها الجانى
تركتُها وبودى غير ماحكمت · به المقادير فى أشجان لهفان
وقلت عَلِّى على بعْدٍ أشارفها · وأنفخ الصورَ إن فاتته نيرانى
اثنان خُلِّدت الدنيا لأجلهما · الحبُّ والنيلُ مذكانا بإنسان

الوطن بأبنائه

قال فى اعتراف المواطنين بأقدار الرجال وأنه من مظاهر الوطنية السليمة :

إذا عرفَ الرجال حقوق بعضٍ · لبعضٍ نُزّهوا عن كل ضعفٍ
فتنتظم البلاد بهم وتسمو · ويغدو الفرد معدودا بألف

تاملات

ومن قوله فى قصيدة له بعنوان (أقصى الظنون) :

ما الخلقُ ، ما هذه الدنيــا ومنشؤها ؟   ما الفــكرُ ما الجوهر الباقى وما العدم؟
مسائلٌ هى للأحقاب باقيــةٌ   كما سيبقى الردى والشك والألم
أجلُّ فرضٍ لها وَهْمٌ وأيسره   وَهْمٌ وقد يستوى الدهماء والعلم

الوطنية والعروبة

ومن قصيدة له يعبر فيها عن وطنيته وعروبته :

إن العروبة والــكنانة ملتى   دين يوحّده الوفىّ العــابد
فلموطنى روحى وكل جوارحى   ولــكم حنينى والشعور الماجد
يكفى لنا النسب العتيد مجمعاً   فجميعنا صَيدٌ رماه الصائد

نداء الحرية

ومن قصيدة له سنة ١٩٥١ يناجى الشعب ويمجد جهاده ضد الاحتلال فى معركة القتال :

بوركت ياشعب الــكنانة ثائراً   حرًّا ويا وطن البطولة قاهرا
أُزجى إليك تحيتى من خاطرٍ   دامٍ ومن قلب يذوب مشاعرا
يأبى النفاق ولا يبوح بغيرما   جعل الحياة نفائسا وذخائرا
ليس الصديق هو المُقرَّب وحده   ولَرُبَّ مهجور يُظن الهاجرا

إن كان غيّبنى العتاةُ فمهجتى ... لكَ أين كنت مكافحاً ومناصرا
آبى مساومة الطغاة وإن أذق ... شر الأذاة، مواليا لك ذاكرا
إن كان يعوزُنا السلاح فربما ... خلق الإباء بنا السلاح الباترا!

***

وحشٌ للاستعمار يمعن شره ... باسم الحضارة والتقدم ساخرا
وكأنما حسب العقول نفاية ... للناس، أو بعض الهواجس دائرا
هل يصلح المذياع من آثامه ... حين الرصاص يصيح أرعن كافرا؟
حين الفظائع قد خَطَبْن بألسن ... للنار واعتلت الجراحُ منابرا؟
حين الأساطير التى يدلى بها ... سبت بصائر للورى وسرائرا؟
حين الخرائب صارخات حوله ... مثل اليتامى لا تمثل عامرا؟

***

إن كان حسن الظن ذنبا أولا ... فيه، فكيف يعد ذنباً آخرا؟
هو غاية الإجرام للوطن الذى ... عانى وعانى من أذاه خسائرا
لن يمنح الوطن المفدَّى صفحه ... لفتى يخادع أو يخادع صابرا
ويرى بالاستعمار بعض خلاصه ... هل كان الاستعمار إلا جائرا؟
قَرْنٌ من التغرير عَلَّم نشأنا ... أن يحذروه مفاوضا ومشاورا

حذراً بنى وطنى! فذاك عدوكم ... مهما تقلب فى المظاهر ماكرا
لا تمنحوه سوى القطيعة وحدها ... فمن القطيعة ما يكون الزاجرا
أو ما يكون به الخلاص ليومكم ... وعد نؤمل فيه بعثاً باهرا!
حذراً بنى وطنى وكونوا وحدة ... فعّالة، لا ضجة وحناجرا!

ليست سلامتكم مجالا هيِّنا إن السلامة قد تكون مخاطِرا
لاتأسفوا — مهما حزنتم — للألى ذهبوا الضحايا فى (القناة) حرائرا
حمل الأديم من النجيع وصية تبقى لأحقاب تدوم ذواكرا
خلُّوا التغنى بالجدود وفضلهم مهما تلألأ روعة ومفاخرا
فهو الغنىُّ بذاته عن ذكره إلاّ لِيلْهم عافياً أو شاعرا
وخذوا بأسباب لِمنْعة حاضر إن الحقيقة ما تمثل حاضرا
كونوا من الشهداء فى إعجازكم بثباتكم ، لا تجعلوه العابرا
لا عذْرَ بعد اليوم عند تهاون إن التفوق لا يطيق معاذرا !

يهاجم فاروقاً قبل خلعه

ومن قصيدة له نشرها فى مجلة (الشهداء) التى تصدر فى حلب — عدد أبريل سنة ١٩٥١ ، يهاجم فيها فاروقاً قبل خلعه بعام ، ويشبهه بالكركدنّ ، وهى من بليغ شعره الوطنى ، قال :

مِنْ دَمعةِ الشعب ومن كدِّهِ ومن دم الأمة فى نَرْدِهِ
ملَّك الحسد على صفوها ياليتها تملك من حَدِّهِ
كم يجعل الدين حبالاته ليخنق المصلح فى مهده
قد عَضَّها النحس ، وما عضَّهُ إلاّ فم يرشف فى وجده
يمرِّغ الأمة فى رجسه ويسرق الأمة فى رنده
عانت به وبأوشابه فى قُرْبه الجانى وفى بعده
منتفخاً ، يمزح مستغرقاً فى ، اللهو كالصائد فى صيده

كالكركدنّ الذى يزدهى في قبحه يسخر من قــده
لم تعطه غانيةٌ قبــلةً إلاّ كمن تهزأ من رشده
أو بادلتــه نــكتة حلوة إلاّ ومغزاها مدى نقــده

***

حتام يا قوم ضلالاتــكُم تمــكّن الفاجرَ من قصده ؟
كنا نرجّيه مثال الهــدى فأصبح الغاشم فى حقــده
كنا نغنيــه أغانى العلى فأصبح المبدل من حمــده
كنا نفديه بأرواحنا فى روحه العالى وفى زهده
ما باله أضحى فتى ماجناً الشارد الخادع فى وعده ؟
حتام يستهزىء من مجدكم ؟ حتام ؟ والخسةُ من مجده
حتام يسترســل فى غيّه ؟ حتام ؟ والسوقةُ من جنده
حتام أعلاكم له صاغرٌ ؟ حتام ؟ بل أهون من عَبْدِهِ
أعقلكم دون دفين الثرى لو يعقل الميّت فى لحده

يحيي ثورة ٢٣ يولية سنة ١٩٥٢

وقال سنة ١٩٥٢ من قصيدة له محييا ثورة ٢٣ يوليه سنة ١٩٥٢ :

بوركت يا وطنى العزيز محرَّرًا سَمْحاً ، وفى كل القلوب حبيبا
لو أستطيع كتبتُ شعرى من دمى حتى أزيد بشعرى الترحيبا
لو أستطيع سألت كل خميلة وبعثت بالشعر المنوَّر طيبا
لو أستطيع زففت ما أنا عاشق ليكون قربانا أعز قريبا

لو أستطيع بعثت من ضحك الضحى كنزا ، ومن لهف الغروب نسيبا
لو أستطيع وهبت كل مكافح عمراً تكرر فى الخلود عجيبا
لو أستطيع أعدتُ أعواماً مضت لتقصَّ أحلاما رأت ووجيبا
لو أستطيع بذلتُ أضعاف الذى حُملت فى إيثارى التعذيبا
لو أستطيع غسلت ساحة دوركم بمدامعى ، ورششتها تطييبا
لو أستطيع هربت من شيخوختى ورجعت أرفل فى الشباب قشيبا

ينادى بإلغاء الملكية

من قصيدة له فى أكتوبر سنة ١٩٥٢ يدعو إلى إلغاء الملكية :

اقطعوها وانبذُوا مَن دعاها نعمةً ، إنا شبعنا مِنْ أذاها
قد خُدعنا فى الذى قالوا لنا عن جَنَاها ، بئس ما يُجْنِى جناها
أثَرٌ أحيـــا قرونا سلفت وأمات العصر(١) فى بَغْىٍ تناهى
قلتُ « أحيا » ليته الحُلم الذى كان أحيا الأمس إصلاحا وجاها
إنما أحيا شرورا ســـلفت زَوّقوها كى يَعدّوه إلهًا
خدعونا حقبـــةً واستسهلوا أن يُضلّوا الشعب فى الذل فتاها(٢)
كم تغنّينا بحب صادق فرأينا مَنْ هَوَى فيمن تباهى
سلطةُ الشعب هى الأمُّ التى أنمت الأحرارَ ، لا دعوى سواها

---

(١) أى العصر الحاضر .
(٢) فتاة ، أى فضل .

يحيي الجمهورية المصرية

وقال من قصيدة له فى ١٩ يونيه سنة ١٩٥٣ يحيي الجمهورية المصرية بعد إعلانها(١) :

إذا الحـكمُ للجمهور أصبح رائداً   أبَى الحقُّ أن يَلْقَى به العارَ والظُّلْما
فيا أمة (النيـــل) المبارك حاذرى
— وقد نِلْتِ ما تَهْوِيْنَ — أن تَخْلُقِى الضَّيْما
ولا تقبلى التفريق فى أى مظهر   فمن يقبل التفريق يستأهل الرَّجْما

***

أُعيذكِ من وَهْمٍ يصير عقيدةً   فـكم أمة هانت بإعزازها الوهما
أُعيذ (جمالا(٢)) والزعيم (محمدا(٣))   بحِذْقهما مِن حَدِّ مطلبك الأسمى
قد انتزعا من قبلُ حَظك عنوةً   وما برحا والدهر كالطائش الأعمى
تَجَبَّر واستعلى فردَّاه صاغرا   وقد كان كالمحموم سكران بالحُمَّى
وها أنتِ بالعهد الجديد طليقةٌ   ومُنْجبةٌ أعلام نهضتك الشُّمَّا
ففى كل شبر من ثراك خميلةٌ   وقد كانت الويلات تغتاله قَضْما
وفى كل ركن من ربوعك ملجأُ   تلوذُ به خيرُ المواهب أو تُحْمَى

***

فيا (مصر) عَضِّى بالنواجذ حُرَّةً   على ما كسبتِ اليومَ واغتنمى اليوما
وهيَّا أعدِّى للغد المرتجَى عُلًى   تبزُّ بإعجاز لها كلَّ ما تَمَّا

---

(١) أعلنت الجمهورية فى مصر يوم ١٨ يونية سنة ١٩٥٣ .

(٢) جمال عبد الناصر .

(٣) محمد نجيب .

إخاءً وتَنظيما وعلما وهمــة   وفنًّا تهزّ الغافلين أو الصُّمَّا
ولا تشتكى من لاعج اليُتْم بعدما   أزلْتِ بهذا النَّصر من دَمِك اليُتْما
ألاَ فى سبيل المجد ما قد غَنِمتِه   وها هو قد أضحى لـكل الورى غُنْما
فإنك للأقوام أُمثولة الهدى   وما خصَّ شعبا يستفيق ولا قَوْما

***

تبارك رَبِّى حين يُنصف أمةً   تعافُ ذليلَ العيش واليأسَ والنَّوْما
عزيزٌ على مِثلى البِعادُ وقد زَهَتْ   منائرك الزهراء تستقبل السِّلْما
عزيز وفى قلبى حنان مؤرق   وحسبى — على رغمى — مفارقتى الأُمَّا
إذا جئت هذا اليوم أُزجى تهانئى   فمن قلب محروم تهلّل إذ يُدْمَى
ولـكنّ نفس الحر نفسٌ عجيبةٌ   تعيشُ على الأضداد مهما تـكن غُرْما

يذكر مصر ويحن إليها

وقال من قصيدة أخرى يذكر مصر ويحن إليها :

لا تنهروا روحى لفرط ولوعها   دَمْعى الذى تأبون بعضُ مودعها
أَلْقَتْ بى الأحداثُ، دون ربوعها   وأظلُّ أحيا فى صميم ربوعها
تثب الرُّؤَى حولى بأنفاس الربى   ونوافح الغدران حول ربيعها
وتهزنى الذكرى فأشرق بالأسى   والذكريات وهو بهـا كنوعها

***

كَمْ واهمٍ أنى سلوت وما درى   معنى السـلوّ وحرقتى لجموعها
إن الفتى الوافى بكى حصباءها   كبكائه لسمائها وزروعهـــا

دنيا الصباحة والجمال تلألأت بجنانها ، وتراقصت بولوعها
أجد الخضوع لها أحبَّ عبادة شتان بين عبادتى وخضوعها

***

لو أستطيع طردت عن أزهارها غير الندى والشمس غب طلوعها
وحميتها مما أغار تجنياً وجعلت أضلاعى أبرّ دروعها
وبعثتها من نومها ، وجعلتها فى عزمها كالشمس بعد هجوعها
وَأثرتها لعظائم ومفاخر سيان بين وَضيعها وَرفيعها

***

مصر الحبيبة جنةٌ لا أشتهى منها الخيار ، فخيرها بجميعها
أهوى لها الإعزاز كيف تمثلت بحياتها وَتصورت بصنيعها
إن كان عاقبنى الزمان بغربتى فلقد أفاء علىّ حلم بديعها
أو لم تنل عينى شعاع سنائها فلقد جنت عينى طيوف نزوعها
وتركتنى فى حيرة لا تنتهى والنفس حيرتها أشد صدوعها
ركعتْ بمحراب الجمال بوهمها وَتبتَّلت فى حبها وَركوعها
وَأذابت الأحلام فى ألحانها وَالدمع وَالتقبيل يوم رجوعها !
لا تنهروا روحى لفرط ولوعها دمعى الذى تأبون بعض دموعها

ذكرى الشهداء

وقال فى (ذكرى الشهداء) :

ذكرى يرددها الزمان الوافى ألقى الشموس لها من الأفواف
شعَّت على مرِّ السنين ، وعمرها عمر البطولة بآل كل شغاف

متغلغلا بنُهى الفوارس، دافعا　　من يحجمون إلى الخلود الضافى
اليوم يوم صلاتنا لجلالهـا　　واليوم نقرؤها الحنان الوافى
وعلى الثرى نَجْثُـو، نقبل تربة　　عبقت بحر شعورها الرفاف
ما كان بالخافى على مستلهم　　شهم، وليس على الأبىّ بخاف

* * *

إنا بنى الأحرار نعرف قدرها　　ونشيمها فى النور والأطياف
وبكل معنى للعظائم شامخ　　وبكل نبع للحقيقة صاف
لامجد غير الحق يبقى ناصعا　　سمحا على رغم الردى المتلاف

* * *

هذى مقابرهم وتلك دماؤهم　　مثل النجوم ونورها الشفاف
هيهات يدركها الطغاة وربما　　سجدوا لها رغما عن الآناف
سيجىء يوم للحساب، قضاتهم　　تلك العظام، بغضبة الإنصاف!

* * *

يا أمة الأحرار دومى حرة　　والتضحيات لك الجلال الـكافى
وبحسبك الشهداء ضمخ ذكرهم　　هذا الأثير، وشاع فى الألطاف
يوم كهذا اليوم تهتف عنده　　مهج الشعوب العانيات هتافى
وتعزه الدنيا التى حلمت به　　حلمى، وتزأر وثبة الآلاف!

يهاجم الإستعمار وينادى بالثورة عليه

ومن قصيدة له يهاجم فيها الاستعمار وينادى بالثورة عليه ، نظمها سنة ١٩٥٣ لمناسبة الصراع بين الحرية والاستعمار فى تونس ، قال فى مطلعها :

ثوروا على الظلم العتىّ جهارا — لا ترهبوه وإن يكن جبارا !
النار لم تخلق لغير مجاهد — طلب العظائم حين خاض النارا
لا بد من صَهْر اليقين بشعلة — حتى يخلص رائعاً قهارا
خلّوا الرصاص مدويًّا من حولكم — لا بد أن يَهْوَى وأن يتوارى
هذى البداية للنهاية ، لم يدم — حكم أسفّ به الدخيل فبارا
مُرَّا كش ثارت عليه ، وفى غد — سترى الجزائر تصفع الجبّارا

***

أمُم العروبة نخوة وأرومة — وثقافة ، أتقدس استعمارا ؟
خسئوا وضلوا ، والخسيس بطبعه — يلقى الكرامة والمكارم عارا
يا ويلهم ، ومن الضحايا حولهم — لُسُنٌ تحدث فى الصموت مرارا

***

«فرحات»(١) ليس بأول أو آخر — لجرائم روعننا تكرارا
ما كان الاستعمار إلاَّ سُبة — ولو أنها لبست حلى ووقارا
يلهو به المستعمرون كأن نسوا — عقبى الذين يلاعبون النارا

---

(١) الزعيم العمالى التونسى الذى اغتاله الفرنسيون .

قالوا : «هو النعم الجزيلة فيضه» واستنطقوا الأدهار والآثارا
فتضاحكت منهم ، وفاضت عبرة ودما ، وآلاما حوت ، وشرارا

إلى أن قال :

إن قدر المستعمرون خضوعها أبدا فقد فقدوا لهم أعمارا
ومن الشعوب الساكنات ثوائر فى حين يسمع غيرها هدارا
لن يستطعَ الذلَّ من تجرى بهم تلك الدماء وتخلق الأحرارا

***

عبد الحليم المصرى

١٨٨٧ - ١٩٢٢



من الشعراء الضباط . ولد فى مايو سنة ١٨٨٧ ، وبعد أن أتم دراسته الابتدائية دخل المدرسة الحربية وتخرج منها سنة ١٩٠٦ فى التاسعة عشرة من عمره ، وألحق ضابطاً بالأورطة السادسة عشرة من المشاة فى كسلا .

تعشق الشعر والحرية منذ صباه ، فجاد فى التغنى بالوطنية والحرية .

وظل يغرد بالشعر ويتغنى به إلى أن توفى فى يوليه سنة ١٩٢٢ ، وكان حين وفاته فى ريعان الشباب ، فكان لوفاته وقع أليم فى النفوس .

كانت له فى الشعر مكانة ممتازة ، عبر عنها حافظ إبراهيم بقوله فى رثائه :

لكَ الله قد أسرعت فى السير قبلنا ... وآثرت يا « مصرىُّ » سكنى المقابر
وقد كنتَ فينا يا فتى الشعر زهرةً ... تفتح للأذهان قبل النواظر
فلهفى على تلك الأنامل فى البِلَى ... فكم نَسَجَتْ قبل البلى من مفاخر
ويا ويح للأشعار قبل نَجِيِّها ... وويح القوافى ساقها غير شاعر
تزودت من دنياك ذكراً مخلَّدا ... وذاك لعمرى نِعْمَ زاد المسافر

وللمصرى ديوان شعر من ثلاثة أجزاء .

فجر الأمل

من قصيدة له نظمها سنة ١٩٠٩ :

ترعرع عهد اليمن واخضلَّ جانبُهْ ورَدَّ علينا اللهُ ما الدهر سالبُهْ
مضى زمنٌ كنا فريسة حربه وجاء زمانٌ ما نزال نحاربه
فلم يغلب الدهر العصىَّ مجاهدا من الشرق إلا قام ألفٌ يغالبه
فيا شرقُ قد جاشت بنفسك أنفسٌ فعدِّدْ لهـا بالله ما أنت طالبه
فإما أصابت من مُناها طلبة وإما تمشت للقضـــاء تطالبه
تقول له إما احتسبت جزاءنا وإما محونا اليوم ما أنت كاتبه
جزا كنّ عنى الله يا خير أنفس ورواك من ماء المجرة ساكبه
إذا ما النفوس الطاهرات تضامنت على فوزها أبدى لها الفوز حاجبه

إلى أن قال مخاطبا الزعيم محمد فريد :

(محمد) لا يَلْوِ الـكرى لك عزمةً عن البأس حتى أن نرن نوادبه
نهزت بأنباء البـــلاد ولم تمل عن الجد حتى نظم الدر ثاقبه
طلعت بهم فى باسم الصبح عابسا فقالوا أبو حفص بَدا وكتائبه
كأنى وأنت اليوم تدعو إلى الهدى وأكتب ما يملى الرسول وكاتبه
فجرد شَبا تلك اليراعة صـــارما وضارب به من لا نطيق نضاربه
لقد روعت منا الهموم جوانحا وفرت من الجفن الحريص سواربه

ثم قال مخاطبا الـكتابة :

فيا غادة فى الشرق قد غار نجمها أطلِّى عـــلى واد نَمَتْكِ جوانبه

لقد كان روضا وارف الظل فى العلى بلابلهُ تشـدو وتصفو مشاربه
فأصبح تذروه الرياح عواصفا ترامى نواحيه وينهال كاتبه
إلى أن دعا داعى الصلاح حياله فألفى رجالا كالأسود تجاوبه
دعوتُ أناسا ليس يدعوهمو امرؤٌ إلى رغبـة إلا وتمت رغائبُهْ

يصف قصر أنس الوجود ويشيد بعظمة مصر

وَقَفْتُ عليك دموعى أيها الطلل عينى إليك وقلبى للأولى رحلوا
أرسلت بالعين فى سقياك هامية وفى الطلول البوالى ترسل المقل
لولا بقية أطلال لما عرَفت عيوننا أين كانت دورُنا الأُوَل
ليت الأحبة حين البعد طاح بهم أدناهم الشوق أو أقصانى الأجل
يا عالما بالهوى أرشد فتاك إلى غير البكاء فقد ضاقت به الحيل
تبكى على دورهم مثلى وتعذلنى أن أبكها وكلانا خطبه جلل
يا أيهـا الطلل المزورّ جانبه هوِّن عليك كلانا بعدهم طلل
وقفتَ باليم ربما لاحراك به واليم مضطرب والموج مقتبل
رَيَّاك من جنة الفردوس سارية وأنت كالركن فيـه تحمد القبل
الدهر ملّ وآى الدهر كامنـة فى وجهك الطلق لا يبدو بها ملل
قرأت فيهن سر العالمين فيا شتان ما بين من قالوا ومن عملوا

وختمها بقوله :

فمن يجاريك فيما شدت يا (أنس) المرء مرتحـل والذكر مقتبل

يكرم الشيخ عبد العزيز جاويش بعد خروجه من السجن

ومن قصيدة له سنة ١٩٠٩ فى حفلة تكريم الشيخ عبد العزيز جاويش لمناسبة خروجه من السجن بعد استيفائه مدة الحبس (ثلاثة أشهر) التى حكم بها عليه فى أغسطس سنة ١٩٠٩ عن مقالة له فى (ذكرى دنشواى) :

تصف السجون وما بها   من جائر للمستجير
أيام كنتَ تخال نفسك   بين سكان القبور
متقلبا فوق الفرا   ش تَقَلُّبَ العانى الأسير
وتود رؤية زائر   يحنو على ذاك المزور
ما خفتَ من سجن الخيا   ل وخفتَ من سجن الضمير
فى جانب الوطن العزيـ   ـز تهون هائلة الأمور

أسود النيل

من قصيدة قالها سنة ١٩٠٩ فى الاحتفال برأس السنة الهجرية سنة ١٣٢٧ :

مالى أرى السودانَ طعمة آكل   هل أطمعتهم مصر فى السودان ؟
أنَسَوْا أسود النيل يوم تضرجوا   بدم العدى حين التقى الجيشان
متسابقين إلى الحصون كأنها   أوكارهم شيدت على الأفنان
متقاسمين العاديات كأنهم   فى الحرب مشتركان مختصمان

صوت الشعب

من قصيدة له يخاطب الخديو عباس الثانى ويطالبه بالدستور :

رُدَّ الوديعـــة لا مالا ولا شـــانا   لم نرجُ فى جانب الدستور إحسانا
لولا ولاؤك لم نبسط إليـك يدا   من الرجاء ولم نسألك غفرانا

يناجى الحرية

من قصيدة له فى مناجاة الحرية سنة ١٩١٠ :

حـَلَالها البينُ فانجابت عن المقل   ولم تودع قبيل السير من رجل
كأنمـا لم يضفها القوم فى بلد   ولم يؤهـل بهـا فى منزل حفـل

إلى أن قال .

عودى أطِلِّى علينـا إننـا نفر   إن حِلْت عنا فإنا عنك لم نحل
الدهر غـيّرنا حتى إذا بصرت   بنـا الديار غدت منا على دخل
رُدِّى علينا عهوداً منك ناضرة   يا رُبَّ عهـد تولى ثم لم يؤل
كنا وكنتِ وكان الدهر، فانقرضت   أيامنـا وتولينا على عجـل
أصبحتِ فى غير وادى النيل ثاويةً   والشمس فى الحوت غير الشمس فى الحمل
أيسجنون يراعا لم يُثر فِتَنـا   ويعقلون لسانا غـير منعقل(١)

وختمها بقوله مخاطبا المواطنين :

أتى زمان نهـوضٍ وانقضى زمنٌ   كان البكاء يُرى فيه من الحيل
فراقبـوا الله يوماً فى كنانته   إن الكنانة أضحت مطمح الدول

(١) يشير إلى تقييد حرية الصحافة .

عزيز فهمى

شاعر الحرية والشباب

١٩٠٩ — ١٩٥٢



هو الدكتور عزيز فهمى ، من أعلام الحرية والأدب ، وأبطال الوطنية والجهاد .

ولد سنة ١٩٠٩ بطنطا ، وهو نجل الأستاذ عبد السلام فهمى جمعه رئيس مجلس النواب السابق ومن المجاهدين فى الحركة الوطنية .

تلقى علومـــه الابتدائية والثانوية فى المدرسة الإبتدائية ثم فى المدرسة الثانوية بطنطا ، ثم انتقل إلى مدرسة الجيزة الثانوية حيث نال منها شهادة البكالوريا .

وبدت عليه منذ أن كان يتلقى التعليم الثانوى ميوله نحو الحرية والأدب والشعر ، وأنشأ وهو فى مدرسة الجيزة الثانوية مجلة أدبية كان ينشر فيها آراءه وأشعاره .

وانتقل إلى التعليم العالى بالقاهرة ، وجمع بين دراسة الحقوق فى كلية الحقوق ودراسة الأدب بالانتساب إلى كلية الآداب ، فنال ليسانس الآداب سنة ١٩٣٢ ، والحقوق فى سنة ١٩٣٣ ، وكانت رسالته التى قدمها إلى كلية الآداب فى المقارنة فى الشعر العربى بين العصر الأموى والعصر العباسى .

وكان طموحاً إلى الاستزادة من العلوم والآداب ، فسافر إلى باريس

سنة ۱۹۳۳ ، والتحق بجامعتها وحصل منها سنة ۱۹۳۸ على الدكتوراه فى القانون. وكان موضوع رسالته (الامتيازات الأجنبية فى مصر ومعاهدة مونترو) ، وكانت أول رسالة من مصرى عن هذه المعاهدة ، والتحق فى الوقت نفسه بالسوربون للحصول على الدكتوراه فى الأدب .

وقد شبت الحرب العالمية الثانية وهو فى باريس ، فعاد إلى مصر سنة ١٩٤٢ مملوءاً وطنية وتضحية ، مستكملا دراساته العلمية والأدبية .

وشغل منصب وكيل نيابة بالمحاكم المختلطة وقتا قصيرا ، ثم ضاق صدرا بالقيود الحكومية ، فاستقال مؤثرا العمل الحر والجهاد الحر ، واشتغل بالمحاماة والصحافة ، ووقف قلمه ولسانه ، وقلبه وجنانه ، على الجهاد فى سبيل الحرية ، ومكافحة الاستعمار والطغيان و الفساد .

كان أديبا شاعرا ، وخطيبا مفوها ، يجمع بين بلاغة العبارة وسلاسة الأسلوب ، وقوة التفكير ، وغزارة المادة ، والشجاعة الأدبية ، كان يدافع عن الحرية بقلمه ولسانه على صفحات الجرائد ، وبلسانه فوق المنابر ، وفى ساحات القضاء ، وتحت قبة البرلمان .

وقد اعتقل وحقق معه غير مرة بتهمة العيب فى الذات الملكية ، أو التحريض على الإخلال بالنظام ،وكان فى المحاماة يدافع عن الحرية وعن المتهمين فى جرائم الرأى ، ويهاجم الطغيان والقلم السياسى والإجراءات التعسفية .

دخل البرلمان سنة ١٩٥٠ نائباً عن دائرة الجمالية بالقاهرة فكانت صفحته فى دار النيابة أقوى صفحات حياته التى قضاها فى الكفاح الوطنى ، وعلى هذا انتخب مرشحاً من الوفد ، فإنه لم يتقيد بسياسة الحكومة الوفدية ، وعارضها فيما يستحق المعارضة من تصرفاتها ، وله فى ذلك المواقف المشرفة ، وظهرت مواهبه البرلمانية كخطيب ومناضل برلمانى من الطراز الرفيع ، كان يناضل عن

الحرية فى كل مناسبة ، وله المواقف المشهودة فى معارضة نظام الاشتباه السياسى ، ومعارضة القانون المعدل لنظام مجلس الدولة وهو القانون الذى قدمته الحكومة الوفدية إلى البرلمان للانتقاص من سلطات المجلس واستقلاله ، ودوّى صوته مجلجلا معارضاً مشروعات تقييد حرية الصحافة سنة ١٩٥١ ، وكان لمعارضته لهذه المشروعات دوىّ كبير وصدى استحسان عظيم فى الرأى العام ، وبلغت مكانته الوطنية والبرلمانية ذروتها فى معارضته لهذه المشروعات حتى انتهت بسحبها من البرلمان ، فكانت هذه النتيجة أعظم انتصار للفقيد فى حياته السياسية والوطنية.

ولما شبت معركة القنال بين الفدائيين والإنجليز عقب إلغاء معاهدة سنة ١٩٣٦ فى أكتوبر سنة ١٩٥١ ، سافر إلى منطقة القنال ، وساهم فى حركات المقاومة ضد القوات البريطانية ، واستهدف للقتل غير مرة ، فكان ذلك منه غاية البذل والتضحية .

وكانت وفاته يوم أول مايو سنة ١٩٥٢ فى حادثة فاجعة ، بل مأساة أليمة ، إذ كان يعتزم السفر إلى الفشن فى صبيحة ذلك اليوم ليترافع أمام محكمتها فى إحدى القضايا ، وكان ينوى السفر بالقطار ، ولكن مواعيد السفر كانت قد تغيرت ابتداء من أول مايو لحلول الصيف ، وقد فاته أن يعرف الموعد الجديد للسفر ، فلم يدرك قطار الصباح ، فاستأجر سيارة ركبها قاصداً الفشن ، وفيما هى تسير فى الطريق الزراعى وقع لها قبل العياط ببضعة كيلو مترات حادث فجائى ، قلبها رأساً على عقب وهوى بها فى الترعة المحازية للطريق ، فمات الفقيد غريقا ، وكانت وفاته فجيعة للوطن وبنيه ، إذ فقدوا بوفاته مجاهداً صادقاً بين المجاهدين الأحرار .

كانت وطنيته فوق حزبيته ، وعقيدته أساس شخصيته ، كان يرى فى الحياة

السياسية رسالة يؤديها ، لا يبتغى منها لنفسه مغنما ولا نفعا ، ولا يقصد إلاّ وجه الله والوطن ، فلا غرو أن حزنت الأمة لوفاته حزنا عظيما .

اسلمى مصر

قال رحمه الله من قصيدة له سنة ١٩٣١ بعنوان (اسلمى مصر) :

اسلمى مصرُ على مرّ القرونْ   حسبُكِ اللهُ نصيراً ومعينْ
لن تُضامى أنت يا مهد الخلو   د وهذا بعض أشبال العرين
من تكن ليلاه مصر لا يَهِنْ   ساعة البذل ولو ذاق المنون

إلى أن قال :

لا رعاكَ الله يا عهداً مضى   عهد بغى وافتئات وأفون
محنة لا عهد للناس بها   جزع الصبر لها ، والصابرون
عصفت بالحرث والنسل معا   وأعادت عهد كسرى ونرُون
ونضت سيفا بَتوكا كلما   هبّ ، ذُقنا بين حدّية المنون
دولة الحجاج أن قيست بها   مَثَلٌ فى الرفق عند المنصفين

وهوى الأوطان للاحرار دين

إلى أن قال فى تمجيد التضحية :

فى يمين الله ما ضحيتمو   لا يُضيع الله أجْرَ المخلصينْ
فى هوى مصر يضحى عن حِجاً   ورضاء كل مُسْتَبْقٍ ضنين

لن يَضيع العُرفُ عند الله إنْ ضَيَّع الخير أصيل وهجين
هو عند الناس جودٌ ووفا وهو عند الله إيمان ودين
ولبانات الهوى شتى كنا ر ، سلِ التاريخ عنها والمنون
فهوى ليلى بقيس متعة وهوى الأوطان للأحرار دين
هى ليلانا جميعا فانظروا هل قسطنا ما علينا من ديون ؟
هل جمعنا من أفانين المنى ما تمنته على مرّ السنين ؟
ليتنى أحيا إلى يوم أرى فجرَ مصر فبه وضّاء الجبين
لا أبالى أعظامى بعده فى سهوب(١) من ثراها أم حزون
لا سقاك النيل يا مصر إذا لم تقرب من أمانيك الشطون(٢)
ونُعِدْ مجداً سليبا غابرا ونُعيِّر بلواكِ العالمين

لا يخشى الموت

كان رحمه الله يتنبأ بأن لا يطول به العمر وأنه سيموت فى ربيع الحياة ، فكان يستعد للقاء الموت ، ولا يهابه ولا يخشاه ، وينشد الخلود .

قال فى هذا المعنى من قصيدة له سنة ١٩٣٣ بعنوان (لحن الموت) :

أيها العرّافُ هل عند النجوم سرُّ هذا الكون أو عند المنون؟
كاذبٌ عِلْمُك ما لم تُنْبِئنى حِرْتُ والله ولَجَّتْ بى الظنون

---

(١) السهوب ، كالسهول : الأراضى المستوية ؛ والحزون ؛ جمع حزن وهى الأرض الصلبة .

(٢) الشطون : البعيد .

جَهِلَ السرَّ أناسٌ قبلنــا وجهلْنا فوق جهل الأولين
حملوا العبء وقد ناءت به أمم من قبلِ عادٍ و (أمون)
ولـكم ساءلتُ نفسى حائراً حيرة السارى بليل ذى دجون :
ما وجودى ؟ ماسبيلى ؟ من أنا ما جهادى ؟ ما مصيرى بعد حين ؟

***

يابنى أمى لقــد جَدَّ نوىً وغدا يجمعنى واد شطون[1]
لا تقولوا مات فى شرخ الصبا ذلك الحق تجـــلَّى واليقين
ليس مِنى مَن بكانى فارعَووْا لن يردَّ الدمعُ محتومَ المنون

***

لاتقولوا ليتـــه عاش ! فقد فارق الأصفادَ عصفورٌ سجين
شاقنى الخـــلد كما شاق القطا سلسبيل فى عقاب وقرون[2]

يا قارئ الـكف

وقال فى هذا المعنى سنة ١٩٤٤ من قصيدة له بعنوان (ياقارئ الـكف) :

ياقارئ الكف ماذا أضمر القَدَرُ؟ ولا عليك إذا لم يَصْدُقِ الخَبَرُ
وما اهتمامك باسمى ؟ هَبْهُ عنترةً وهبهِ زيداً . وجدى عمْرو أو عمر

---

(١) الشطون : البعيد .

(٢) العقاب ، جمع عقبة: طريق فى الجبل وعر ، وقرون ؛ جمع قرن: القطعة من الجبل .

عليك بالكف فاقرأ بين أسطرها ماذا يدل عليه الخط والأثر ؟

***

أطالعُ اليمن أن الخط متصل وآية النحس أن الحد منبتر ؟
وما الشيات(١) على جنبي ثمانية تبدو كوشم وتخفى حولها غرر ؟
خبِّر عن الفأل لا تجفل فسانحة عندى كبارحة والشر ينتظر
هل أنسأ الله فى عمرى إلى أجل يلجّ فيه علىَّ الهمُّ والكِبَرُ ؟
وهل أُبلَّغ آمالى ؟ وأبعدُها عندى كأقربها ناءٍ ومحتضرُ
هبْنى ظفرت بآمالى على ظمأ إذا ارتويت فماذا يعقب الظفر ؟
وهل أُوسَّدُ حزْنا حَرَّةً وحصى فى جوف هاوية أغوارها حجر
أم هَوْجلاً(٢) قَذَفا(٣) تنبو براكبها لا البيدُ عبَّدها يوماً ولا الحضر
قفراء جرداء لم تكلأ حشائشها إلاَّ السواقى ولم يعلق بها مطر
أم تُقْدَحُ النار من حولى فتطعمنى حياً وأشوى بها أيَّان تستعر
أم أن فى مسبح الحيتان منقلبى يوم الرحيل إذا نادانى السفر(٤)

***

قل ما بدا لك واهرفْ غير مبدع فالرجم بالغيب ـ لو تدرى ـ هو الهذر

---

(١) الشيات ، جمع شية : العلامة .
(٢) الهوجل : المفازة البعيدة لا علمَ بها .
(٣) القذف : البعيدة .
(٤) كأنه فى هذا البيت كان يتنبأ بموته غرقا ، وقد توفى رحمه الله غريقا سنة ١٩٥٢ .

اللحد كاللحد والأكفان واحدة ولا خيار لميت حين يدّثر
والمال كالعدْم لولا أنه أمل إن الغنى إلى الأموال مفتقر
والسعد حال على الإنسان طارئة (وعندصفو الليالى يحدث الكدر)
لولا التشابه فى الأقدار ما صدقت عرّافةُ الحىّ من تُوفى لها النذُر

الشورى

قال من قصيدة له سنة ١٩٤٣ :

بنى مصر هذا الحق أبلج واضح وهذا صراط يستوى عنده القصدُ
إذا شئتم الشورى فذلك حكمها وإن شئتم الفوضى فليس لها حدّ
تولى زمان الحاكمين بأمرهم ولم يبق فى الدنيا مسودٌ ولا عبدٌ
تولى زمان الفرد لا عاد عهده وبدل بالدستور سلطانه الفرد

الضمير

وقال يصف الضمير من قصيدة له سنة ١٩٤٤ :

صاحبٌ وسنان من طول السهرْ إن تنم ناداك أو تنس ادّكرْ
كلما غافلته فى سكرة من أمانيك تجنّى أو عذرْ
فإذا كفّرت عن وزر عفا وإذا عدت إلى إثم ثأر
ليس ملموساً فتدرى كنهه وهو ما كتّمت يدرى ما تسر
وتواريه فيغفى ساعة ثم يستيقظ فى لمح البصر
ليس عقلا أو شعوراً خالصاً بل تُراثاً من شعور وفكر
فهو عقل باطن أو ملهم وهو إحساس قديم مدخر

كم جرعت الصاب من ترياقه   واستسغت الشهد مما قد هصر
أنتما الدهرَ طــريدٌ آبق   وغريمٌ طاردٌ أو منتصِرْ
أينما وليتَ أحصى مُرْجئــاً   موعــداً حتما فأيّان المفر ؟

***

يتراءى شــاحباً أو إمَّعــاً   فهو كالظل إذا الظل انتشر
وهو جبــارٌ عنيف تارةً   وهو أحيــاناً ضعيف يأتمر
وهو إعصار وريح صرصر   وهو كالسيل إذا السيل انهمر
وهو كالبحر إذا البحر طغى   وهو كالموج إذا الموج انحسر
وهو كالسهم إذا السهم رمى   وهو كالسيف إذا السيف بتر
آمرٌ ناهٍ وعاصٍ طيــعٌ   وهو الآمر وهو المزدجــر
لا ينــام العمر إلاَّ ساعة   فترقبها وبالغ فى الحذر
ساعة إن نمت عنها غافلا   عدت كالمخمور أو كالمحتضر
أيها الساهر نم أو لا تنم   وترفَّق وتجــــــلد واستعِرْ
إن جنينا فعلينا وزرنا   وإذا نحن أنبْنا فاعتذِرْ

ومصر تناديهم وصوتى يردد

وقال فى يونيه سنة ١٩٤٦ وهو معتقل فى سجن الأجانب :

كفاك عزاء أنك اليوم أوحد   وقد يسكن الغمد الحسام المجرد
يهون عذاب السجن والليل موحش   ويذهب عنك الحزن فيه تجلد
وقد يؤسر الليث المنيع عرينه   ويرهب منه الصوت وهو مصفد

أهبت بقومى أن يذودوا عن الحمى ومازلت أدعوهم ومازلت أشهد
أهبت بقومى والخطوب زواحف تلم بهم طوراً وطوراً تهدد
وأنذرت حتى بح صوتى ولم أزل ومصر تناديهم وصوتى يردد

نذرت نفسى قرباناً لفاديها

ومن قصيدة أخرى نظمها وهو فى سجن الأجانب سنة ١٩٤٦ :

شكت إلى الله من عدوان أهليها وعاث غاصبها فى أرض راعيها
واحرّ قلباه من يأس يصارعها يكاد لولا بقايا الصبر يرديها
فزعت من غدها علما بحاضرها ورضت نفسى على نسيان ماضيها
وقفت قلبى عليها فى شبيبته فشاب منها ومن عدوان ساليها
لما أفقت من الماضى بلا أمل نذرت نفسى قربانا لفاديها

***

ذكرت مصر فهاجتنى مواجعها وعزنى الدمع حتى كدت أبكيها
يالائمى وأنا الجانى على كبدى دع عنك لومى فإن اللوم يغريها
كلٌ يغنى ليشجى سامرا وهوى وقد يغنى لأوطار يرجيها
وليس لى سامر فيها ولا وطرٌ ولا زعمت جوادى من مذاكيها
وإنما هى آلامى أكتمها حتى يضيق بها صدرى فأحكيها

***

نزحت عنها فلم أعدل بها وطنا وبات قلبى أسيراً فى مغانيها
وصلت شعرى إلاّ عن مفاتنها وهمت فى الأرض مسحوراً بواديها

ورق شعرى كما رقّت جداولها   وراق وصفى كما راقت مجاليها
وما رأيت كناساً فيه جؤذرهُ   إلا ذكرت غزالا فى مراعيها

***

لما رُدِدْت إليها رد لى أملى   عند اللقاء وأحيانى تدانيها
وقد طويت إليها اليم واقتربت   بى السفينة من أولى موانيها
فكاد يظفر قلبي من توثبه   وقد تنسم ريحاً من نواحيها
وحال قلبي دموعا عند ما اتأدت   فرحت أنثر دمعى فى ضواحيها
سجدت لله عرفاناً لنعمتـــه   لما حللت رفيقاً من روابيها
فكيف حالت حياتى عندها سقراً   وكيف أصليت ناراً من سواقيها !

***

جارت عليها صروف الدهر واختلفت   أيدى الرماة فآها من أعاديها !
راشوا لها السهم مسموماً فشتتها   وكاد لولا يد الرحمن يصميها
وأثخنوها جراحا فى مقاتلها   ياللجريمة من عدوان آسيها

إلى أن قال :

فزعت من شرك يلقيه غاصبها   قبل الجلاء لعل (الوعد) يغريها
وما الجلاء إذا شدت(١) بسلسلة   من القيود و(شرط الحلف) يمليها
تشعب الرأىُ والأحزاب سادرة   ومصر صابرة والصبر يضنيها
وكيف تنهض من أسر يكبلها   والقيد آمرها والقيد ناهيها

---

(١) الإشارة هنا إلى مصر .

بنى وطنى أهبت بكم زماناً

وقال فى نوفمبر سنة ١٩٤٦ يندد بالإنجليز على أثر الاعتداءات الدامية التى وقعت منهم فى القاهرة والإسكندرية ، ويدعو المواطنين إلى البذل والتضحية :

سلوا من سامها(١) هـذا العذابا ومن شرع الأسنَّةَ والحرابا
سـلوا جلادها تبَّتْ يداه بأى شريعة فرض العقابا
أما ينهاه عقـل أو ضمير يرد له المحجة والصـوابا
ضـلال أن يعاتَبَ مستبدٌ وَأولى بالمسوَّد أن يعابا
وجهل أن يخاطب غير أهل فلا تحزن عليـه إذا تغابى
يصعِّر خـده صلفاً وحمقاً ويوردها على ظمأ سرابا
وَكم أسدت إليـه وكم تجنى ولم يحسب لعاقبـة حسابا
بأى جريرة وبأى عـدل تجرع مصر كأس النصر صابا ؟
ولولا مصر ما غنموا فلاة ولو مصر ما غلبوا ذبابا

* * *

سلوا (دنـكرك) هل نهضوا بعبء وقد غنموا السلامة والإيابا
سلوا (الصحراء) عنهم كيف طاروا وهل تخذوا النعام لهم ركابا
سلوا (العلمين) هل ثبتوا بأرض وقد سبقوا مع العَدْو السحابا
فـكيف تعاظموا بعد انـكسار وكيف تبدلوا أُسْداً غضابا

(١) يقصد الإنجليز .

سلوا (الميثاق[1]) هل وأدوه صبحاً وهل نسجوا من الكفن الإهابا
وكيف جرى على فمهم كذابا وسال على سواعدهم خضابا
وكيف استبدلوا شرعاً بشرع فأضحى الحق عندهم اغتصابا
كذلك تلدغ الأفعى كريماً جزاء صنيعه وتمد نابا
وبين الناس رقط وابن آوى وذؤبانٌ ومن غلب الذئابا

إلى أن قال :

ويا وطنى فديتك من جراح إذا نكأت حملناها عذابا
وهل يأسو الجريح سوى جريح يشاطره الفجيعة والمصابا
وكم من قسور ورد المنايا يروع ببطشه السبع السغابا
إذا كرت عليه الخيل فرّت وإن سام الجياد حمى العرابا
روى دمه ثراك ففاح مسكا وأينع روضة وزكا ترابا
وآخر فى (الجنوب) ثوى شهيداً فضج النيل واجتاح الرحابا
لحا الله الخوارج والمطايا ومن أضحت نفوسهم خرابا
ولا كان الجلاء إذا أحلوا مع الحلف المرافق والرقابا
وطوبى للأولى ذهبوا فداء إلى الرضوان واستبقوا الثوابا

***

بنى وطنى أهبت بكم زمانا فلما بح صوتى قيل هابا
ولو نطق الجماد كما نطقنا لأسمعه الصدى عنكم جوابا

***

---

(١) ميثاق الأمم المتحدة .

علي الغاياتي



من شعراء الوطنية ومن المجاهدين القدامى ، اعتنق مبادئ مصطفى كامل منذ أن استمع إلى خطبته الكبرى التي ألقاها بالإسكندرية فى ٢٢ أكتوبر سنة ١٩٠٧، وصار من تلاميذه وأنصاره الأوفياء الحافظين لعهده طوال السنين .

انضم إلى أسرة الصحافة منذ صباه . وعمل فى صحف الحزب الوطنى المتعاقبة . واتجهت نفسه إلى الشعر ، فنظم قصائد تفيض وطنية وإخلاصا . وقد جمعها فى ديوان أصدره سنة ١٩١٠ بعنوان « وطنيتى » وله مقدمتان ، إحداهما بقلم محمد فريد ، والثانية بقلم عبد العزيز جاويش . وكان لهذا الديوان قضية أثرت فى مجرى حياة الشاعر . فقد أقيمت عليه الدعوى العمومية وحوكم على قصائد من هذا الديوان عدتها الحكومة وقتئذ عيبا فى ذات ولى الأمر (الخديو عباس الثانى) وتحريضا على كراهية الحكومة والإزدراء بها ، وتحبيذاً للجرائم (السياسية) ، وحكم عليه من محكمة جنايات القاهرة فى أغسطس سنة ١٩١٠ بالحبس سنة . وقد صدر الحكم عليه فى غيبته ، إذ كان قبل محاكمته قد ارتحل إلى الاستانة ، ثم إلى سويسرا حيث أقام فى (جنيف) ، وأصدر بها سنة ١٩٢٢ جريدة (منبر الشرق) بالفرنسية ، وجعلها وقفا على الدفاع عن قضية مصر وقضايا الشرق عامة . وظل فى منفاه حتى عاد إلى مصر سنة ١٩٣٧ واستأنف فيها إصدار صحيفته (منبر

الشرق) بالعربية حتى اليوم[1] — مد الله فى حياته — وهى صحيفة وطنية شرقية إسلامية أخلاقية ، تدافع عن القضية الوطنية وقضايا العروبة ، وتناضل عن الحرية والاستقلال للشعوب الشرقية جمعاء .

إلى مصطفى فى حياته

من أول شعره الوطنى قصيدة نظمها سنة ١٩٠٧ وقدمها إلى مصطفى كامل عقب خطبته بالإسكندرية ، قال مخاطبا الفقيد :

اصدع بقولك إن أردت مقالا   فالقوم جندك إن دعوت رجالا
لم تدر مصر سوى حماك تؤمه   فترى به آلامها آمالا
أقبل على الوطن العزيز بصارم   لاتدرك الأعداء منه كلالا

وختمها بقوله :

فادأب على إنهاض أمتك التى   ترجو وراء خطاك الاستقلالا

وطن يناجى ربه

قال من قصيدة له بهذا العنوان :

رب أن البلاد أرهقها الظـلم   وحاقت بأهلها البأساء
رب إن الصدور أحرجها الوجـد   وأودت بحلمها الأرزاء
فتدارك بلطفك النيل حتى   لاتجارى حياة مصر دماء

---

(١) أى حتى وقت ظهور الطبعة الأولى من الكتاب سنة ١٩٥٤

قصائد حوكم من أجلها سنة ١٩١٠

من قصيدة له بعنوان (طيف الوطنية) :

وعداة ملكوا الأمر ولم يحفظوا للشعب فى حقٍّ ذماما
وولاة أقسموا أن يسجدوا كلما رام العدا منهم مزاما
رب ماذا يصنع المصرى إن جاوز الصبر مدى الصدر فقاما
طال يوم الظلم فى مصر ولم ندرِ بعد اليوم للعدل مقاما
هل يرى المحتل أنا أمـــة مذ عرفنا السلم لا ندرى الخصاما
أو يرى الظالم فينا أننـــا نحمل الخسف ولا نبغى انتقاما
زعموا زورا ، فما من أمة سامها العسفَ ظلومٌ ثم داما
كتب النصر لشعب ناهض فى سبيل المجد لا يخشى الحماما

ومن قصيدة له يندد بالخديو عباس الثانى :

أعباس هذا آخر العهد بيننا فلا تخش منا بعد ذاك عتابا
أيرضيك فينا أن نــكون أذلة ننال إذا رمنا الحياة عقابا
ونيأس من آمالنا فيك كلما قضيت علينا أن نــكون غضابا
وأرضيت أعداء البلاد وأهلها وأصليتنا بعد (الوفاق) عذابا
رويدك ياعباس لاتبلغ المدى ولا تستمع للظالمين خطابا
فما يبتغى (جورست) إلا مكيدة تحوّل أقلام السلام حرابا
وها قد رمى حرية القول رمية بسهمك تجنى للبلاد خرابا

يهاجم الوزارة

وقال فى هذه القصيدة يهاجم وزارة بطرس غالى التى كانت تتولى الحكم وقتئذ :

ألا أمطر الله الوزارة نقمة ولا بلغت مما تروم مراما
تحاول أن تقضى علينا بإثمها ولكن ستلقى دون ذلك أثاما
وزارة خدّاع أقامته بيننا يد الحاكمين الآثمين فقاما

ومن قصيدة أخرى له يندد بهذه الوزارة على أثر امتناعها عن حضور جلسات مجلس شورى القوانين فرارا من مناقشات الأعضاء :

يا أيها الوزراء ماذا نابكم حتى هجرتم صورة النواب

إلى أن قال :

فتزلزلت أقدامكم من هولها وهرعتمو فزعا إلى الأبواب
ورضيتمو الهرب المعيب لأنه خير من الإفلاس عند حساب
عارٌ عليكم أن يقال وزارة لم تدر إن سئلت بيان جواب

ومن قصيدة أخرى له سنة ١٩١٠ :

طال ليل البلاد والشعب سار لايرى غير هذه الظلمات
ظلمات من المظالم أودت بضياء الحياة بعد الحياة
يشتكى الشعب والقضاة خصوم فلمن يشتكى خصام القضاة

ومن قصيدة له يخاطب الشيخ عبد العزيز جاويش عندما حكم عليه لأول مرة سنة ١٩٠٩ ونشرها فى ديوانه (وطنيتى) :

ياساكن السجن الكريـــم وأنت نعم الأكرم
ما السجن للشرفاء إلا رفعـــــــة وتنعم
أنت البرىء ومن يخا لك مجرما هو مجرم

* * *

هذا ماوعته الذاكرة وما وسعنى الجهد فى استقصاء الشعر الوطنى . ولعلى بإخراج هذا الكتاب أحقق أمنية كانت تجول فى خاطرى منذ عدة سنوات . ولا زلت أكرر اعتذارى عما عسى أن يكون قد فاتنى تدوينه من الشعر الوطنى . وإنى لمتدارك هذا النقص فى المستقبل القريب إن شاء الله(١).

***

راجع هذا الكتاب

الأستاذ حلمى السباعى شاهين

المستشار بإدارة قضايا الحكومة

---

(١) لم استطع تدارك هذا النقص كما وعدت القارىء فى الطبعة الأولى من هذا الكتاب بسبب ما ألم بى من مرض ما زلت أعانيه أدعو الله الشفاء .

للمؤلف[1] :

حقوق الشعب

يتضمن شرح المبادىء والنظريات والقواعد الدستورية وحقوق الإنسان
(طبع سنة ١٩١٢)

نقابات التعاون الزراعية

يتضمن تاريخ التعاون الزراعى ومنشآته فى أوروبا ، ونشأة التعاون فى مصر وتاريخه ، ونظامه وعلاقته بالنهضة الاقتصادية والاجتماعية — (طبع سنة ١٩١٤) .

الجمعيات الوطنية

صحيفة من تاريخ النهضات القومية ، يتضمن تاريخ الانقلابات السياسية والنهضات القومية فى طائفة من البلدان ، مع شرح أصول الدساتير والنظم البرلمانية فيها ، والمقارنة بينها — (طبع سنة ١٩٢٢) .

---

(١) أعيد طبع أغلب هذه الكتب وكانت الطبعات التالية طبق الأصل للطبعة الأولى .

تاريخ الحركة القومية (فى جزءين)

الجزء الأول : يتضمن ظهور الحركة القومية ، فى تاريخ مصر الحديث ، وبيان الدور الأول من أدوارها ، وهو عصر المقاومة الأهلية التى اعترضت الحملة الفرنسية فى مصر ، وتاريخ مصر القومى فى هذا العهد (الطبعة الأولى سنة ١٩٢٩) .

الجزء الثانى : من إعادة الديوان فى عهد نابليون إلى ولاية محمد على (الطبعة الأولى سنة ١٩٢٩) .

عصر محمد على

يتناول تاريخ مصر القومى فى عهد محمد على (الطبعة الأولى سنة ١٩٣٠) .

عصر إسماعيل (فى جزءين)

الجزء الأول : يشتمل على عهد عباس وسعيد وأوائل عهد إسماعيل (الطبعة الأولى سنة ١٩٣٢) .

الجزء الثانى : وفيه ختام الكلام عن عهد إسماعيل (الطبعة الأولى سنة ١٩٣٧) .

الثورة العرابية

والاحتلال الإنجليزى (الطبعة الأولى سنة ١٩٣٧)

مصر والسودان

فى أوائل عهد الاحتلال

تاريخ مصر القومى من سنة ١٨٨٢ إلى سنة ١٨٩٢ (الطبعة الأولى سنة ١٩٤٢)

مصطفى كامل

باعث الحركة الوطنية

تاريخ مصر القومى من سنة ١٨٩٢ إلى سنة ١٩٠٨ (الطبعة الأولى سنة ١٩٣٩)

محمد فريد

رمز الإخلاص والتضحية

تاريخ مصر القومى من سنة ١٩٠٨ إلى سنة ١٩١٩ (الطبعة الأولى سنة ١٩٤١)

ثورة سنة ١٩١٩

تاريخ مصر القومى من سنة ١٩١٤ إلى سنة ١٩٢١ (فى جزءين)
(الطبعة الأولى سنة ١٩٤٦)

الجزء الأول : يشتمل على شرح حالة مصر وحوادثها التاريخية أثناء الحرب العالميـة الأولى (١٩١٤ — ١٩١٨) ، وبيان الأسباب السياسية والاقتصادية والاجتماعية للثورة ، وتطور الحوادث من بعد انتهاء الحرب إلى شبوب الثورة فى مارس سنة ١٩١٩ ، ثم وقائع الثورة فى القاهرة والأقاليم .

الجزء الثانى : وفيه الكلام عن مهادنة الثورة ، واستمرارها ، ومحاكمات الثورة ، ولجنة ملنر ، والحوادث التى لابستها ، ومفاوضات ملنر ، واستشارة الأمة فى مشروع ملنر ، والتبليغ البريطانى بأن الحماية علاقة غير مرضية ، ونتائج الثورة فى حياة مصر القومية .

فى أعقاب الثورة المصرية

ثورة سنة ١٩١٩ (فى ثلاثة أجزاء)

الجزء الأول : تاريخ مصر القومى من أبريل سنة ١٩٢١ إلى وفاة المغفور له « سعد زغلول » فى ٢٣ أغسطس ١٩٢٧ (الطبعة الأولى سنة ١٩٤٧) .

الجزء الثانى : تاريخ مصر القومى من وفاة سعد زغلول سنة ١٩٢٧ إلى وفاة الملك فؤاد سنة ١٩٣٦ (الطبعة الأولى سنة ١٩٤٨ — ١٩٤٩)

الجزء الثالث : تاريخ مصر القومى من ولاية فاروق عرش مصر فى ٦ مايو سنة ١٩٣٦ إلى سنة ١٩٥١ (الطبعة الأولى سنة ١٩٥١) .

مقدمات ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢

الكفاح فى القنال — حريق القاهرة — وزارات الموظفين — أسباب الثورة — فاروق يمهد للثورة (الطبعة الأولى سنة ١٩٥٢) .

ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢

تاريخنا القومى فى سبع سنوات ١٩٥٢ — ١٩٥٩ (طبع سنة ١٩٥٩)

تاريخ الحركة القومية

فى مصر القديمة من فجر التاريخ إلى الفتح العربى (طبع سنة ١٩٦٣)

مذكراتى

١٨٨٩ — ١٩٥١

خواطرى ومشاهداتى فى الحياة (طبع سنة١٩٥٢)

شعراء الوطنية فى مصر

تراجمهم وشعرهم الوطنى والمناسبات التى نظموا فيها قصائدهم (الطبعة الأولى سنة ١٩٥٤)

أربعة عشر عاماً فى البرلمان

مجموعة أعمالى وأقوالى فى البرلمان (بدون ثمن)

فى مجلس النواب سنة ١٩٢٤ — ١٩٢٥ .

وفى مجلس الشيوخ من سنة ١٩٣٩ إلى سنة ١٩٥١ (طبع سنة ١٩٥٥).

أعمالى فى مجلس النواب سنه ١٩٢٤

فى دور الإنعقاد الأول (بدون ثمن)

(طبع سنة ١٩٢٥)

كتب مختصرة

مصطفى كامل ـــ باعث النهضة الوطنية (طبع سنة ١٩٥٢)

بطل الكفاح ـــ الشهيد محمد فريد (طبع سنة ١٩٥١)

الزعيم أحمد عرابى (الطبعة الأولى يناير سنة ١٩٥٢)

جمال الدين الأفغانى ـ باعث نهضة الشرق طبع سنة ١٩٦٦

بحث وتحليل معاهدة سنة ١٩٣٦ استقلال أم حماية (طبع سنة ١٩٣٦)

(بدون ثمن)

كتب لطلبة المدارس الثانوية طبعت سنة ١٩٥٨ ـ ١٩٥٩

مصر المجاهدة فى العصر الحديث فى ست حلقات تشتمل على كفاح الشعب فى عهد الحملة الفرنسية ثم كفاحه فى العهود التالية إلى بداية ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ .

***

وفاة المؤلف

وعقب الانتهاء من مراجعتى هذا الكتاب بأيام معدودة كان يوم مصر الحزين . يوم ٣ ديسمبر سنة ١٩٦٦ . حيث فقدت مؤرخها الوطنى المحقق . فروّع الشرق لوفاته . وخرجت جموع الشعب ظهر ٤ ديسمبر سنة ١٩٦٦ تودعه إلى مقره الأخير . إلى ضريح زميليه فى الكفاح المرحومين مصطفى كامل ومحمد فريد بميدان القلعة بعد أن أدى الفقيد الكريم رسالاته فى جميع الميادين التى خاضها ـ محاميا صادقاً ونقيباً للمحامين وأباً روحياً لهم ، وبرلمانياً جريئاً ، ووطنياً مخلصاً ثابتاً على مبادئه . ومؤرخاً حراً محققاً ـ جمع لمصر تاريخها القومى فى مؤلفاته العديدة ، فى مختلف عصورها ، فإليك أيها الفقيد العظيم بكائى . بل دعائى ، وما أنت فى حاجة إليه ، بل نحن أحوج ما نكون إلى تسجيل تاريخك وكفاحك ، ليكون هادياً ونبراساً للجميع ، وهو دين فى عنقى لعلنى أوفيه لهذه الأمة العظيمة ، أما أنت فمثواك الجنة مع النبيين والصديقين والشهداء والأبرار .. ! !

ابنك الروحى

حلمى السباعى شاهين

١٩٦٦/١٢/٢٥

فهرست الكتاب

خطأ وصواب

أرجو من القارئ قبل قراءته هذا الكتاب أن يصحح فيه الأخطاء الآتية، وسيتدارك بفطنته وقت القراءة بعض أخطاء مطبعية .

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٨	١٢	الحركة	هذه الحركة
١٦	٥	وأهوا ُنها	وأهو ُنها
١٨	٤	خلو	خلواً
٢٩	٥	الأشواف	الأشواق
٣١	٦	شطرية	شطريه
٣٣	١٧	أصجبُ	أصبحتُ
٣٤	الهامش (١)	تضمح	تطمح
٣٨	١٤	الشبع	الشيع
٣٩	١	الوزى	الورى
٣٩	٤	يغزَ	يغر
٤١	٩	الأباء	الإباء
٤١	١١	وطنية	وطنيته
٤٢	١٠	إذا	إذ
٤٤	٩	عين	عين الصديق
٤٥	٤	ألفت	ألقت
٤٥	١٤	بعلم	يعلم

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٤٧	٧	الأباء	الإباء
٤٩	هامش ٢	الطغيان	الطليان
٦٢	١٧	مرناة	مرثاة
٦٣	٦	أجرر	أجر
٦٤	١٤	الهافى	الهانى
٦٥	١٦	نعد	بعدُ
٦٦	١٨	واليس	والبس
٦٨	١٥	وزكاء	وزكا
٧٢	٤	أثر	أثر
٧٨	١٤	وأشكوا	وأوشكوا
٨٤	١٦	تبعد	تعبد
٨٥	٧	السما	السها
٨٦	١٦	سَرَّة	سَرَّه
٨٨	١٥	الميت	الميب
٩٥	٢	صُغَّتْ	صُفَّتْ
٩٨	٩	الثقفاة	الثقاة
٩٨	١٤	لجح	لُجَجُ
١٠٢	٣	بالمحتفل به والحكم	الحكم

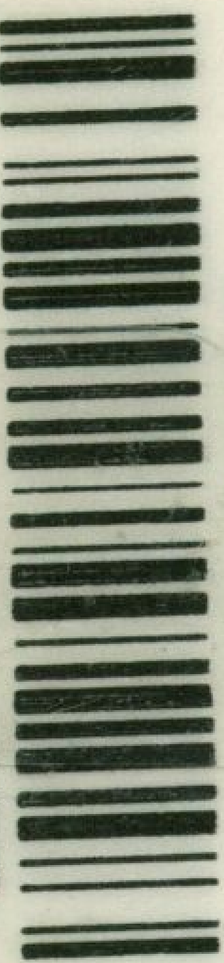
الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١١٢	هامش ٢	وهنداها	وهندها
١١٣	٧	يثووب	يؤوب
١٢١	١٠	لأثبل	لأثيل
١٣٤	هامش ٢	قضاة	قضاة المحكمة
١٣٧	١٥	ندءا	نداء
١٣٩	١٥	ووتنكر	وتُنكر
١٤٠	١٧	وأنْبَ	وأنْتَ
١٤٦	٤	أنا	إنا
١٤٧	١٤	تتقجر	تنفجرّ
١٤٨	١٥	جال	رجال
١٤٩	٧	فكوا	فكونوا
١٥٠	١٤	الهومُ	الهموم
١٥٧	١٦	نفذْ	نفدْ
١٥٩	١٠	اتخذ	اتحد
١٦٥	٦	رَبّ	رُبّ
١٦٦	هامش ٣	مستنفذة	مستنفدة
١٦٧	٤	نُهرْة	نُهْرةً
١٦٧	١٧	اهبسى	أعبسى

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٦٨	١١	مسرها	مسرحا
١٧٢	١٤	كباد	كياد
١٧٢	١٦	منوبا	مندوبا
١٧٣	٢	توايا كم	نوايا كم
١٧٣	١٠	المبينً	المبينْ
١٧٣	١١	مدججينً	مدججينْ
١٧٧	١١	انتتشت	انتشت
١٧٧	١٢	ايطالنا	أبْطالنا
١٨٠	٦	وعقت	وعِفْتُ
٢٠٢	٦	جائرا	جاأرا
٢٠٢	١٠	قد لك اسمها ذكرت	قد ذكرت لك اسمها
٢٠٨	١٩	وما اشتق	وما اشتفى
٢٠٩	١٧	رفيق	رفيف
٢١٠	٩	بذيمة	بعزيمة
٢١٤	٦	أجزعُ	أجزِعْ
٢٤٠	١١	جنت	حبت
٢٤٢	٧	يشفى	يشقى
٢٥٠	٢	ثرة	ثروة

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٢٥٨	١٨	(يراجع هامش هذه الصحيفة(١) بيت من الشعر ترك سهواً	
٢٦٦	١٠	فريد	فريدا
٢٨٢	٣	تقسم	نُقْسَم
٢٨٣	١٢	طبيعة	طبيعة له
٣٠٥	هامش ١	طالما	ظالما
٣٠٧	هامش٣	الفصير	القصير
٣١٢	١٣	ليلة	ليله
٣١٥	٣	مخزونة	محزونة
٣١٧	١١	تحتال	تختال
٣١٩	١٢	عجب	عجبا
٣٤٠	٥	عافيا	غافيا
٣٤٥	١٩	ألقى	ألق
٣٤٩	٨	نجاد	نجاد بقصائد رقيقة
٣٥٠	١٢	ثرن	ترن
٣٥٥	١٩	هذا	أنه
٣٦٠	٦	يلج	يلح
٣٦١	٤	الجى	الحى
٣٦٣	١٩	وصلت	وصنت

(١) أنتم أساةُ الجرحُ فاتخذوا له من طبٍ شيع أساتكم ماجرَّبا

دار الكاتب العربي للطباعة والنشر
بالقاهرة



الثمن ٦٠ قرشا